تمييز المحظوظين
عن المحرومين

تأليف

أبى عبد الكريم وأبى عبد الرحمن

محمد سلطان المعصومى الخجندى المكى

المدرس بالمسجد الحرام

الطبعة الأولى

١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م

obeikandl.com

obeikandl.com

(قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا
وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أوجدنا من العدم ، وجعلنا أهلا لفهم خطابه وكلامه ، فنحن المخاطبون بخطابه خطاباً عمومياً وخصوصياً ؛ فالعمومى شامل لكل بنى آدم من عرب وعجم مادام عاقلاً بالغا ، ولا يخرج منه إلا الصبيان والمجانين . وأما الخصوصى فمختص بالمؤمنين الذين تشرفوا بشرف الإيمان ، وصاروا من أمة محمد رسول الله سيد الإنس والجان ، صلى الله عليه وسلم ، وخارج منه غير المؤمنين من جميع أصناف الكفار ، من أهل الكتاب والمجوس والمشركين والدهريين الأشرار .

أما بعد ؛ فهاأنا عبد الله الفقير إليه جل وعلا أبو عبد الكريم وأبو عبد الرحمٰن محمد سلطان المعصومى الخجندى ثم المكى : إنى حينما كنت فى الطائف مُتصّيفا عام ١٣٦٥ هـ كنت أتلو كتاب الله القرآن متدبّراً معانيه ، إذ تبين لى قصور بنى آدم بسبب جهلهم بمعانى كلام ربهم فلهذا ضلّوا وأضلّوا كثيرا ، ولا شك أن سبب الضلال عدم فهم كلام رب العالمين الذى أنزله الله تعالى لهداية جميع العالمين والحال أنهم مخاطبون ومكلّفون بفهمه وتدبّره والعمل والاتّعاظ به .

فها أنا أذكر هنا أولاً الخطابات الإلٰهيّة العمومية الموجّهة إلى عموم البشر وكافة بنى آدم عربا أو عجما ، فهم كلهم مكلّفون بفهم هذا الخطاب وامتثال هذا الأمر ؛ والرب العليم الحكيم ، ناداهم آمرًا إياهم بالتقوى والتوحيد ، وأن لايعبدوا إلاّ إيّاه ؛ فيجب على كل إنسان عاقل بالغ تعلّم القرآن وفهم معناه والعمل بمقتضاه ، ولا يُعذر أحدٌ فى ترك ذلك سواء كان عربيًّا أو عجميًّا أو فارسيًّا أو تركيًّا أو روميًّا أو هنديًّا

أو جاويًا أو حبشيًا أو صينيًا أو جابانيًا أو أمريكيًا ، لأنه يلزم حينئذ إهمال خطاب الله رب العالمين وأمره ، أو نسبة الجهل إلى الله الرب الحكيم حيث خاطب ونادى أو أمر من لايستأهل الخطاب ولايفهم ؛ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً ؛ وعلى هذا أوجب الشارع طلب العلم على كل مكلف كما هو مقرر فى عامة الكتب الإسلامية الدينية ؛ وما لايتم الواجب إلاّ به فهو واجب ، فتعلّم القرآن وفهم معناه واجب على كل إنسان خصوصا المسلمون ، فإنهم هم المخاطبون بخطابات خاصة لهم كيا أيها الذين آمنوا ، فتدبر .

وما شاع وذاع فيما بين متأخرى أدعياء العلم من المسلمين من أن فهم القرآن والعمل به مختص بأهل الاجتهاد ، وهم قد انقرضوا منذ عهد بعيد فمن أبطل الباطل وأفسد الفاسد ، إنمّا دسّ هذه العقيدة الفاسدة أعداء الإسلام لإبعاد المسلمين عن معرفة كلام ربهم ، فصاروا بذلك محرومين من فهم كلام ربهم العليم الحكيم ، وقد صرفوا كل أعمارهم فى دراسة الفلسفة وحكمة الهند واليونان ومباحث الإشراقيين والمشائيين وأفكار ابن سينا والفارابى ودراسة ديوان المُتنبى وابن الفارض ، وأهل بخارى بديوان ميرزا عبد القادر « البيدل » الذى يقول بأنّ أصل الإنسان القِردُ ، ورباعيات الخيّام الزنديق ، أو بالصرف والنحو والبيان ، ولكن لم يصلوا إلى المقصد الأصلى من فهم كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل بهما ، فبذلك ضيّعوا أعمارهم ، وأفسدوا أعمالهم وأبطلوا عقائدهم ، فصاروا من المحرومين من السعادتين : سعادة الإيمان الصحيح فى الدين ، وسعادة الدنيا من الخلافة الإسلامية فيما بين العالمين و إن ادّعوا واغتروا بأنهم مسلمون وعلماء وسادات ومشايخ بل أقطاب وأوتاد وأبدال ونجباء ، كما هو غير خفى على أولى الألباب .

والمحظوظون إنما كانوا المسلمين الأولين من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين اقتفوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنالوا رضا الله حتى رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فنالوا خلافة الله فى الأرض ورفعوا عَلَمَ الإسلام فى شرق الأرض وغربها

مع ما نالوا من الأجر والغنيمة ، فهم المحظوظون من الإيمان والإسلام بالحظ الأوفر . وأما المتأخرون الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وصاروا مذاهب وفرقا واكتفوا بآراء الرجال واعتمدوا عليها واتخذوهم أنداداً من دون الله ، فبذلك صاروا محرومين من فهم أوامر ربهم وتباعدوا عن الحق بُعد المشرقين ، وقد صاروا محرومين من خلافة الأرض كما صاروا محرومين من فهم كلام ربهم ودراسته بل صار أكثرهم محروماً من الإيمان الصحيح وتوحيد الله رب العالمين ربوبيةً وإلهيةً وأسماء وصفات ، وبدلوا ذلك بالشرك والإلحاد وعبادة الأرواح والقبور والأجداد ، فتنبه وتدبر هداك الله عز وجل.

وإني أذكر هنا أوّلا الخطابات والأوامر الإلهية القرآنية الموجهة إلى عامة بني البشر ، ليظهر لطالب الحق الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، فيرجعوا إلى أصل دينهم فينالوا رضا ربهم في الدارين ، ولقبت ما نويت جمعه :

تمييز المحظوظين عن المحرومين

فأسأل الله تعالى الكريم الوهاب أن يوفقني للعمل به ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به العباد في عامة البلاد ، فهو حسبي ونعم الوكيل .

الآية الأولى في سورة البقرة : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

اعلم أن الله تعالى ربَّ العالمين نادى وخاطب عامة الناس عربهم وعجمهم كلهم وأمرهم أن يعبدوا ربهم الذي خلقهم وخلق جميع من قبلهم من الأنبياء والأولياء ، فخالق الكل واحد لا شريك له ، وكل الناس من أولهم إلى آخرهم صالحهم وطالحهم مؤمنهم وكافرهم مخلوقون مربوبون ، ومحتاجون إلى الله خالقهم ورازقهم في حياتهم وموتهم أبداً ؛ فإن كان هكذا فلا معبود إلا الله ، كما أنه لا خالق إلا الله ، ولا رازق

إلا الله ، ولا متصرف فى الكون حقيقة إلا الله عز وجل وحده . فلا تجعلوا لله أنداداً ولا تظنوا، فضلاً عن أن تعتقدوا أن الملائكة تربيكم أو تضركم أو تنفعكم ، أو أن الأنبياء أو الأولياء أو أرواحهم يربونكم أو ينفعونكم أو يضرونكم أو يشفعون لكم يوم القيامة بنفسهم بدون إذن الله وأمره ، فإن كان الأمر هكذا فلا تحبوا إلا الله ، ولا ترجو إلا الله ، ولا تخافوا إلا الله ، ولا تدعوا إلا الله ، ولا تطلبوا إلا من الله ، ولا تنذروا إلا لله ؛ لأن الله ربكم الذى خلقكم بأمره حى لا يموت أبداً ، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد ؛ يجيب الدعوات ، ويقضى الحاجات ، ويرزق من يشاء بغير حساب .

فالناس كلهم مخاطبون بهذه الآية وما شابهها . فأمرهم الله تعالى جميعا بأن يعبدوه وحده ويؤمنوا بأنه الإله الحق ، والمعبود الحق وحده ؛ فمن لم يعبد الله وحده ولم يؤمن بأنه المعبود الحق وحده فهو كافر بالله العظيم يستحق عذاب جهنم وبئس المصير ؛ فحيث خاطبهم الله تعالى وناداهم مسمياً إياهم ناساً ؛ فكل البشر ناس سواء كان عرباً أو عجما، فارسيا تركيا هنديا روميا صينياً حبشيا روسيا جابانيا أمريكيا، يجب على كل واحد منهم أن يعرف هذا الخطاب لأنهم أهل لمعرفة ذلك ، ولو لم يكونوا أهلاً لما خاطبهم الله تعالى أصلا ، فمن لم يعرف هذا الخطاب فقد ضيع أهليته ، أو خرج عن دائرة الإنسانية وأدخل نفسه فى حظيرة الحيوانية ، وليس بداخل فى تلك الحظيرة أصلا ، فمثل هذا يتمنى يوم القيامة أن يكون ترابا كالحيوانات وليس بصائر .

والإنسان له أهلية للتعلم والتعليم ، فلهذا جعله الله تعالى أهلا للخلافة فى الأرض ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ؛ فلهذا ترى سلمان الفارسى و بلالا الحبشى وصهيبا الرومى وأمثالهم من الأعجام رضى الله عنهم قد نالوا الدرجة العليا بالإيمان بالله ورسوله ، ومعرفة الحقيقة بمعرفة كلام ربهم وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك الإمام محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى ، وأبو عبد الرحمن النسائى ، وأبو داود السجستانى ، وأبو عيسى الترمذى ، والإمام أبو حنيفة النعمان وغيرهم كلهم من الأعجام رحمهم الله تعالى ورضى عنهم ، تعلموا العربية واشتغلوا

بعلوم القرآن والحديث فبلغوا الذروة العليا من الكمال ، فالإنسان من حيث إنه إنسان أهل لذلك بلا ريب .

ولكنه هو الذى ضيع أهليته ، وصرفها فى السفاسف والترّهات؛ ألا ترى الذين اشتغلوا طول عمرهم بدراسة كتب الصرف والنحو والبيان وفلسفة الهند واليونان ، أو بدواوين الشعراء والألغاز والمعميات ، ودققوا تدقيقاً وألفوا وأبدعوا إبداعا ولكن خرجوا عن الحق خروجا فضلوا وأضلوا كثيراً لماذا ؟ لأنهم لم يصرفوا تلك الأهلية لمعرفة كلام الله وكلام رسوله حق المعرفة ، بل تفلسفوا وتأولوا وتجوزوا . فحرفوا تحريفا و بدلوا تبديلا وغيروا تغييراً مسمين إياه تأويلا، والله العظيم إنهم لو استعملوا تلك الأهلية فى معرفة خطابات ربهم لعرفوا الله تعالى حق المعرفة فعبدوه وحده لاشريك له ، ولعرفوا حقائق الأشياء كما هى ، وسخروا العالم حسب سنة الله تعالى فى خلقه كما لايخفى فليس للإنسان إلا ماسعى .

فهذا هو دين العدالة ودين المساواة ودين الحرية ، كما أنه دين التوحيد ، لأن كل إنسان يعامل بنى جنسه بالعدل و يعدّه كنفسه لأنه إنسان مثله ؛ فيحب له مايحب لنفسه ، ولا يظلمه ولا يخذله ولا يخدعه « وكونوا عباد الله إخوانا » يكون شعاره ، و يعتقد كل واحد منهم أنه عبدٌ لله وحده مهما بلغ من الكمال . فالملائكة عبيد لله لايعصون الله ماأمرهم و يفعلون مايؤمرون ، والأنبياء والرسل عبيد لله يبلغون إلى الناس أوامر ربهم ، وكذا الأولياء والصديقون عبيد لله يعملون بأمر ربهم مااستطاعوا، فالكل فى عبودية الله تعالى سواء و إنما الفرق فى تقوى الله وامتثال الأمر ، فهم عباد مطيعون لربهم . وأما الكفار والفجار فعصاة مخالفون لأمر ربهم ، فحيث إنهم فى العبودية سواء فلا يعبد أحد أحداً ، ولايعتقد أحد فى أحد سواء كان حيا أو ميتاً أنه يحييه أو يميته أو يرزقه أو يهديه أو يُدخله الجنة أو ينجيه من النار أو يُعطيه الولد أو نحو ذلك ، فهذا هو المساواة مساواة المخلوق مع المخلوق فى العبودية لله تعالى .

وهذا هو الحرية يكون الإنسان حراً فى عقيدته ، وحرا فى إنسانيته وأعماله ،

ولا يكون مقيدا وعبداً فى عقيدته وأعماله لعبد مثله ؛ بل إنما يكون عبدا لله الذى خلقه ، فلا يعبد إلا إياه ولا يخضع إلا له ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولهذا قال الله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » من الملائكة والكروبيين والأنبياء والجن ، فلا تعبدوهم لأنهم مخلوقون مثلكم « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » عن الإشراك بربكم وتجتنبون عبادة مخلوق مثلكم ، فإذا اتقيتم عن ذلك وقاكم الله تعالى عن الشرك والكفر ، ووقاكم عذاب النار يوم القرار ونجاكم من الذلة تحت سيطرة الأشرار .

فيا أيها الناس لا تجعلوا لله أندادا تحبونهم كحب الله ، أو تعتقدون أنهم ينفعونكم أو يضرونكم ، فتنذرون لهم ولمشاهدهم ومراقدهم وتستغيثون بهم والحال أنكم أنتم بأنفسكم تعلمون يقينا أنهم مخلوقون مثلكم ، لايقدرون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ، وهم ولو كانوا قد بلغوا أعلا الدرجات قد ماتوا وتحولوا من الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ ، ومنه سيحوّلون إلى عالم الآخرة دار الجزاء ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

فانظر يا أيها الإنسان إلى هذه الخطابات الربانية ، قد ناداك وخاطبك فأمرك ونهاك وأرشدك إلى مافيه خلاصك وسعادتك فى دنياك ودينك ، وأعطى لك العقل وجعلك مخاطباً ومكلفاً به ، وميزك عن سائر الحيوانات بهذا العقل والخطاب والتكليف ، فإذا لم تصغ إلى كلام ربك ولم تفهم خطاب مولاك ، فأنت أجهل الجاهلين ، وأخسر الخاسرين ، ولا ينفعك ماتعلمت ودرست من فلسفتك وأشعارك وألغازك ومعمياتك ، ولا سلطنتك وأموالك .

والله العظيم لو تعلمت كل يوم كلمة من كلام ربك لكان ماتتعلمه فى الشهر ثلاثين كلمة وفى السنة ثلثمائة وستين كلمة ، فإذا علمت مثلا معنى فاتحة الكتاب وفهمته فهما صحيحا كنت مؤمنا موحدا خالصا ، وتخلصت من داء الشرك والضلال ، وصرت من الفالحين .

وهل يظن أحد أن خطاب : يا أيها الناس اعبدوا ربكم خاص بالعرب ، أو أنه

خاص بالمجتهدين والعلماء ، ولا يظن هذا إلا مجنون ، أو جهلة المنتسبين إلى العلم من الأحناف ومن شاكلهم ، فالخطاب عام شامل لكل البشر ؛ كما أن وجوب الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكذا عبادته تعالى عام شامل لكل البشر ، فمن آمن بالله ورسوله وعلم خطابه فقد فاز فوزاً عظيما ، وأما من جهل ذلك فقد خسر خسرانا مبينا.

فآية «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» مسوقة لإثبات التوحيد ، وتحقيق نبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللذين هما أصل الإيمان ، والنداء عام لكل البشر ، يشمل المؤمنين والكافرين والمنافقين ، والمشارقة والمغاربة ، فاعبدوا ربكم : يقول للكفار والمشركين وحدوا ربكم ، ويقول للعاصين أطيعوا ربكم ويقول للمنافقين أخلصوا بالتوحيد معرفة ربكم ، ويقول للمطيعين المؤمنين اثبتوا على الإيمان وطاعة ربكم ، واللفظ محتمل لهذه الوجوه كلها ، وهو من جوامع الكلم ؛ فالأولون والآخرون مخاطبون بالأمر بالتقوى ؛ فحيث إن الناس كلهم مخاطبون يجب عليهم وجوبا عينيا فهم هذا الخطاب ، فمن لم يطلب فهم الخطاب فقد أخرج نفسه عن صفته الإنسانية وصار كالحيوان في صورة إنسان ، فهؤلاء هم الخاسرون .

وتأمل أيها الإنسان سورة العصر فإنها تكفيك في كل شئونك ، وترشدك إلى نجاتك وسعادتك ، وتبين لك حالك أنك من الفالحين أو من الخاسرين ، فعليك بهذا الميزان الإلهي فزن به في كل آنٍ نفسك ؛ وعليك بالفهم والتفهم ، والله يتولى هداك .

الآية الثانية في سورة البقرة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً ، وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ » .

لاشك أن هذا الخطاب الإلهي ونداءه عام شامل لكافة البشر شرقا وغربا ،

ولا يختص به طائفة دون طائفة ، فضلا عن العرب خاصة ، كما يزعم بعض الناس ؛ فلكل الناس خلق الله الأرض كلها شرقها وغربها وسهلها وجبالها ؛ فكل بنى البشر مخاطبون به سواء كانوا عربا أو عجما ، لأنهم يأكلون مما فى الأرض من الأرزاق فأمرهم أن يأكلوا من الحلال الطيب ، ولا شك أن كل ماخرج من الأرض من الأرزاق فهو حلال طيب ؛ وإنما الإنسان الجاهل يخبثه و ينجسه كاتخاذه العنب أو الحب خمراً أو غصبه أموال الناس وأرزاقهم ؛ ولهذا نهى الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان وأمرهم أن يجتنبوها ؛ لأن الشيطان يريد هلاك الإنسان و إهلاكهم لأنه عليه اللعنة عدوّ مبين لبنى آدم أجمعين .

ومن شأن الشيطان وخصائصه أنه يأمركم أيها الناس بالسوء والفحشاء ؛ أى مايئول و ينتج عاقبته السوء ؛ وأنه يأمركم أيها الناس أن تتقوّلوا على الله مالا تعلمون بأن تحلوا شيئاً أو تحرموا شيئاً أو توجبوا شيئاً بلا استناد إلى دليل شرعى من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل أن تقولوا إن الإشارة بالسبابة فى تشهد الصلاة حرام كما كثر جهلة الأحناف ؛ أو إن فى عمل الموالد ثوابا أو أن قراءة دلائل الخيرات فيها ثواب كذا وكذا ، أو أن بناء القبب على قبور الأولياء خير وثواب ، أو أن التقليد بمذهب معين من المذاهب الأربعة لازم أو نحو ذلك ، فكل هذا تقوّل على الله بلا علم ولا دليل .

فإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، واتركوا ما أنتم عليه من أمور الجاهلية ، وتقليد من مضى من الناس فى عبادة الأوثان ، واتخاذ الأنداد ، والاعتماد على الأرواح أو الاستمداد منها ، والتوجه إلى القبور ، والنذر إليها وتقبيلها و إسراج السرج عليها ؛ وتقليد غير المعصومين فى الدين ، والتعصب للمذاهب والطرق — أجابوا قائلين : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا وما ألفيناهم عليه ، لأنهم أعلم منا ومنكم ، فقل لهم أو لوكان آباؤكم لا يعقلون شيئا من كتاب الله ولا يعلمون شيئا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ولا يهتدون إليه ، لأن التقليد أعمى بصرهم و بصيرتهم والشياطين من الإنس والجن قد تصرفوا فيهم تصرفا كليًّا فيوحى بعضهم

إلى بعض زخرف القول غرورا ، بأن يقول إن الولى الفلانى فعل كذا ، و إن القطب الفلانى استرد أرواح مريديه من يد قابض الأرواح عزرائيل عليه السلام ، و إن فلانا العالم اعترض على العارف الفلانى فصار كذا . فهؤلاء الذين لايعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولامن القرآن إلا رسمه وخطه يُطنطنون بكلماته ؛ فالعوام يصدقون هؤلاء الشياطين فيقلدونهم فى كل ماقالوا من الباطل .

فياأيها الإنسان من حيث إنك إنسان قد خاطبك ربك العليم الحكيم بيا أيها الناس ، فعليك أن تفهم خطاب ربك الموجه إليك ، لأنك أهل لذلك ، فعليك بتعلم اللغة العربية الفصحى والاعتناء بالفهم والتفهم حتى تصير إنساناً كاملاً ، وتنال السعادة دينا ودنيا وأخرى ، فتعيش حراً سعيداً ، وتخلص من الأغلال والسلاسل ، أغلال الدجالين والأباليس ، وسلاسل المستعمرين والمستعبدين .

و يجب على سلاطين أهل الإسلام وأمرائهم ورؤسائهم وعلمائهم وأغنيائهم الاعتناء التام الكلى بتعليم علم القرآن ولغته ، وجعل التعليم فيه إجباريًّا حتى يعرف المسلمون أوامر ربهم وخطاباته الموجهة إليهم ؛ ألا ترى أن الحكومات المتمدنة ذات الشأن اليوم كيف تجتهد لجعل لغتها وخطها عمومياً فيما بين رعاياها بل فى العالم كله ، وتصرف لذلك ملايين الملايين كل عام ، فتحصل مقاصدها الدنيوية السياسية ، وتفسد عقائد المسلمين إفساداً ، فالويل كل الويل لرؤساء المسلمين وعلمائهم من هذه الغفلة ، ومن هذا الكسل والجهالة ، أليس كلنا راعيا وكلنا مسئول عن رعيته ؟ .

الآية الثالثة فى أول سورة النساء (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) خطاب عام ليس خاصاً بقوم دون قوم ، ولفظ الناس اسم لجنس البشر . وقد اتفق الأصوليون من المفسرين على أن الخطاب عام لجميع المكلفين ؛ وهـذا هو الأصح ، ولا وجه لتخصيص بعض المفسرين بأهل مكة ، والأصل أن أل فى الناس للاستغراق وأن جميع الناس مخلوقون

بخلق الله ومأمورون بالتقوى . والتقوى هى الإيمان بالله عز وجل ، وأن تقى وتحفظ نفسك من الله ؛ أى من غضبه وسخطه وعقوبته ، ولا يتيسر بل ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يُرضيه وما يُسخطه ، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى فهما صحيحا ، وعرف سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم معرفة صحيحة ، وعلم سيرة سلف الأمة الصالح مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله ، فمن صبر وصابر ورابط لأجل حماية الحق وأهله ، ونشر دعوته ، واتقى ربه فى سائر شئونه فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى .

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم والأم حواء

فيجب على كل فرد فرد من أفراد الناس أن يتقوا ربهم ويؤمنوا به ويمتثلوا أمره ويعرفوا كلامه ، وهذا لا يختص بشخص دون شخص ؛ فالله تعالى يسألهم كلهم عن الإيمان به وبكتابه ومعرفته ، وأنه تعالى رقيب بصير عليم خبير، فيجازى كل أحد على نيته وعقيدته وعمله ، فإذا كان الأمر هكذا فعليكم أيها الناس بتقوى الله ، ولا تعذرون بترك تعلم القرآن وفهم معناه كما لا تُعذرون بترك الإيمان بالله ورسوله ، لأنكم المكلفون المخاطبون بذلك .

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل

الآية الرابعة فى أواخر سورة النساء أيضا (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذٰلِكَ قَدِيرًا) أى أيها الناس إذا علمتم أن لله تعالى جميع ما فى السموات وما فى الأرض من الموجودات والمخلوقات فهو جل جلاله يتصرف فيها كيف يشاء ، فاعلموا أنه تعالى إن يشأ يذهبكم بعذاب ينزله عليكم كما أنزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام ، أو أمة قوية يسلطها عليكم فتسلب استقلالكم حتى تجعلكم عبيداً أو كالعبيد لها ، لا تستطيعون أن تقوموا بإقامة شعائر دينكم ، ولا بمصالحكم ويأت بآخرين يحلون محلكم فى الوجود أو الحكم والتصرف ، كما سلط بختنصر

على بنى إسرائيل، وكما أن البخاريين والخوارزميين ممن يدعون الإسلام لما غيروا أوامر ربهم عقيدة وعملا سلط الله تعالى عليهم الروس والبلاشفة واللادينية فقتلتهم وأهلكتهم وفرقتهم أى تفريق ، وكذا أهل الهند والأندلس سلط الله تعالى عليهم الإنكليز والفرنسيس والأسبان ، وكذا الألمان والطليان لما طغت و بغت سلط الله تعالى عليها البلاشفة والإنكليز والأمريكان؛ وهكذا سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا، فالخطاب بيا أيها الناس عام لا يختص بأمة دون أمة ، ويؤيد ماحررناه ، قوله تعالى : «ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ الآية» وقوله تعالى « وَكَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ، وقوله تعالى « وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ » ، وقوله صلى الله عليه وسلم رواية عن ربه جل جلاله « إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَعْرِفُنِي » .

فيا أيها الناس اتقوا الله حق تقواه ، ولا تغتروا بما أنتم عليه من زخارف الدنيا ، فإن ربكم لبالمرصاد ، فافهموا كلام ربكم وخطاب مولاكم واعملوا بموجبه فى كل الأمور دنيوية ودينية وأخروية ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، وكم من الناس فى طرفى الإفراط والتفريط ، وإنما السعادة فى التوسط والاقتصاد فتنبه .

الآية الخامسة فى سورة النساء أيضاً (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً)

قد نادى الله تعالى بهذه الآية جميع الناس عموماً : عربهم وعجمهم ، شرقيهم وغربيهم فى سياق خطاب أهل الكتاب ؛ وذكر الرسول هنا معرّفاً ، لأن أهل الكتاب قد بشروا به ، وكانوا ينتظرون بعثته ، واختيار لفظ الرب هنا للإشعار بأن هذا الحق الذى جاء به يقصد به تربية المؤمنين وتكميل فطرتهم وتزكية نفوسهم ، فلهذا قال « فآمنوا خيراً لكم » أى إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ؛ فإن تؤمنوا يكن الإيمان لكم خيراً ، لأنه يزكيكم ويطهركم من الأدناس الحسية والمعنوية ، ويؤهلكم

السعادة الأبدية « و إن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض » فهو تعالى غنىّ عن إيمانكم وطاعتكم فيجازيكم على كفركم وسوء عملكم ، لأن له تعالى ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وعبيدا ، وكل يعبده طوعا أو كرها . أما عبادة الكره وعدم الاختيار فبالخضوع للسنن والأقدار ، وهى عامة فى جميع الخلق . وأما عبادة الاختيار فخاصة بالمؤمنين الأخيار والملائكة الأبرار وأمثالهم من جنود الله ، اللهم اجعلنا منهم.

و إن ممن اهتدى بهذا الهدى وتنور بهذا النور الإلهى رجلا من أهل الغرب من النوع المنتسب إلى النصرانية ، فهذا الرجل طالع ترجمة القرآن باللغة الإنكليزية فنور الله تعالى بصره و بصيرته فتعلم اللغة العربية ؛ ففهم بعض معانى القرآن ، وتيقن أن الإسلام هو الدين الحق الذى يسعد الإنسان فى الدنيا والآخرة ؛ فاعتنق الإسلام وهاجر من بلاده قاصداً الإقامة فى ديار الإسلام فأقام فى الحرمين ، ولكن لما رأى المنتسبين إلى الإسلام هنا وأخلاقهم ومعاملاتهم المخالفة لدين الإسلام وتعاليمه تعجب وتحير ، فقد ذكر لى قائلاً : الحمد لله إنى قد أسلمتُ قبل ملاقاة هؤلاء المسلمين وهذا من فضل الله علىّ ولو كنت رأيتهم أوّلا قبل ذلك لنفرت عنهم وعن الإسلام ، ولكنى لما فهمت خطاب الله ياأيها الناس ، وأنى من جملة الناس وجب علىّ أن أتقى الله الذى خلقنى وربانى ، وأومن به و برسوله وكتابه ، وتيقنت أن كل من اتقى الله ربه سعد فى الدارين ، ومن كفر وجحد فإن عذاب الله شديد ، ولا يعذر أحد بالجهل مادام عاقلا الخ .

فانظر إلى هذا الرجل الأوروبى كيف تعلم العلم وكيف اهتدى ، فهكذا كل فرد من أفراد البشر له أهلية للتعلم وفهم كلام ربه ، فلهذا قد خاطبهم الله تعالى بخطاب عام وأمرهم بالإيمان والتقوى و بالاقتداء بالرسول الذى أرسله الله تعالى بالحق ؛ وهذا الرسول مبعوث إلى كافة البشر وعامة الورى رحمة للعالمين إنسهم وجنهم ، فيجب على كافة بنى البشر الإيمان به ومعرفة كلامه ، ولا يعذر أحد بالجهل كما أسلفت ، فاعتبروا يا أولى الألباب والأبصار ، وهذا الرجل المهتدى إلى الإسلام قد صاحبنى منذ عام

١٣٥٥ ﻫ وحضر دروسي وكثيراً ماراجعني في تفهم معاني بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وقد حسن إسلامه . فأسأل الله تعالى أن يُثبتني و إياه وسائر المسلمين على الإيمان ، وأن يديم لنا التوفيق وأن يرزقنا حسن الخاتمة آمين .

الآية السادسة فيها أيضا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) .

قد خاطب الله تعالى بهذا الخطاب العام ، عامة البشر وكافة بني آدم ، وأخبر أنه قد جاء إليكم برهان من جانب ربكم العليم الحكيم ، وهذا البرهان والحجة هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جاءكم رسول الله يرشدكم إلى الحق و يهديكم إلى صراط مستقيم ، وهو رحمة مهداة لكم من ربكم اللطيف الحكيم ، وأنزلنا إليكم أيها الناس القرآن نوراً مبيناً تتنورون به ، فتجتنبون ظلمات الشرك وتلويثات الأوثان والأنداد فتعرفون ربكم الواحد الصمد فلا تعبدون إلا إياه وحده ، فإن آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته وكلامه ورسوله واعتصمتم بالله عاملين بكلامه وأوامره فسيدخلكم في رحمة منه وفضل ، و ينيلكم سعادة الدارين ، فبعد إيمانكم وظهور صلاحكم وأهليتكم للهداية يوفقكم و يوصلكم إلى رضاه ورضوانه صراطا مستقيما .

و إنما أرسل الله تعالى هذا الرسول العربي الأمي لرحمتكم أيها الناس وتربيتكم وتزكية نفوسكم ، فهو صلى الله عليه وسلم برهان عظيم وجليّ يبين لكم حقيقة الإيمان الصحيح بالله عز وجل ، وجميع ماتحتاجون إليه من أمر دينكم ودنياكم ، فهو صلى الله عليه وسلم بسيرته العملية برهان وحجة ؛ كما أنه صلى الله عليه وسلم برهان في دعوته العلمية الشرعية ؛ وأنزلنا إليكم أيها الناس بما أوحينا إليه كتابا من لدنا هو كالنور بيّن في نفسه ومبين لكل ما أنزل لبيانه ، فبه تنجلي لكم الحقائق بحيث لايشتبه فيها من تدبره وعقل معانيه .

مثال ذلك توحيد الله في ألوهيته ور بو بيته ؛ وهو أثبت الحقائق وأعلى مايصل

إليه البشر من المعارف ، وأفضل ماتتزكى به النفوس ، وتترقى به العقول ، وقد بعث به جميع رسل الله إلى جميع الأمم ، فكان كل منهم يدعو أمته إليه ، ولكن من الأمم من لايفقه معنى التوحيد فيلبسونه بالشرك فى الألوهية كاتخاذ المسيح إلهًا ، بل اتخاذ من دونه من مقدسيهم آلهة أو أنصاف آلهة يزعمون أنهم وسطاء بينهم و بين الله فى كل ماينفعهم و يضرهم فى معاشهم ومعادهم ، و بالشرك فى الربوبية باتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فيشرعون لهم من الدين مالم يأذن به الله و يحلون لهم و يحرمون عليهم فيتبعونهم، فأرسل الله تعالى هذا البرهان محمداً صلى الله عليه وسلم لبيان هذه الحقيقة ، لأن من أشرك من أهل الكتاب وأمثالهم من الأمم القديمة كالهنود والكلدانيين والمصريين واليونان والصينيين كانوا يقولون: إن الإله واحد ، و بعضهم كان يصرح بمثل كلمة التوحيد عندنا أو بها نفسها ، ولكنهم كانوا مع ذلك مشركين يزعمون أن بعض البشر أو الحيوان أو الجماد ينفع أو يضر بصفة خارقة للعادة فيتوجهون إلى تلك الأشياء المعتقدة توجه العبادة ، و بعضهم كانوا يزعمون أن ماجاءت به رسلهم من أحكام الدين غير كافٍ فى بيان الدين ؛ فيضع رؤساؤهم أحكام الحلال والحرام سواء وافق ماجاء به الرسول أم لا ، فبهذا تغلغلت الوثنية فى جميع الأديان ، وأفسدتها على أهلها ، فقلد بعضهم بعضا فيما ورثوه منها .

فأنزل الله تعالى لهداية البشر هذا النور المبين « القرآن » فكان أشد إبانةً لدقائق مسائل التوحيد وخفاياها من نور الكهرباء المتألق فى هذا العصر ، فبين لمن يفهم لغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين الكونية العقلية ؛ وضرب الأمثال المادية والمعنوية ؛ وضروب القصص والمواعظ والهداية إلى النظر والتجارب ، وكشف مارَان على هذه العقيدة من شبهات المضلين ، وأوهام الضالين التى مزجتها بالشرك مزجا ، وجمع بين الضدين بل النقيضين جمعا ، وتمكن فى نفوس الناس فقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم التوحيد ، واجتث جذور الوثنية بالبراهين القطعية .

فالذين يعتصمون بهذا القرآن يدخلهم الله تعالى فى رحمته خاصة به لايدخل

فيها سواهم ، وفضل خاص لايتفضل به على غيرهم ، فياخسارة المعرضين وياطوبى للمعتصمين ، وقد صدق وعد الله للصادقين ففاز من اعتصم به من الأولين ، وخاب وخسر من أعرض من الآخرين ، فعسى أن يعتبر بذلك المنتمون إلى هـذا الدين فى هذا العصر .

وعن هذا قال بعض العارفين :

العـلم قال الله قال رسوله وما سوى ذاك وسواس الشياطين

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث و إلا الفقه فى الدين

أهل الحديث هم أهل الرسول و إن لم يصحبوا شخصه أنفاسه صحبوا

الآية السابعة فى سورة الأعراف (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

قد نادى الله تعالى وخاطب بنى آدم فى هـذه الآية وأمثالها عربهم وعجمهم ذكرهم وأنثاهم ، فامتنّ عليهم بعد أن أنبأهم بما كان من عرى سلفهم الأول ؛ بما أنعم به عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وأنواعه من الأدنى الذى يستر السوءة عن أعين النـاس إلى أنواع الحلل التى تشبه ريش الطير فى وقاية البدن من الحر والبرد بستر جميع البدن ، ومافى ذلك من أنواع الزينة والجمال اللائقة بجميع ذكران البشر و إناثهم . فهو جل جلاله يقول : يابنى آدم إنا بما لنا من القدرة والنعمة والرحمة قد خلقنا لأجلكم ومنافعكم مادة اللباس من القطن والصوف والحرير وغيرها ، وعلمناكم بما خلقنا فيكم من الغرائز والقوى والأعضاء وسائل صنع اللباس منها كالزراعة والغزل والنسج والخياطة ، و إن منن الله تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف مننه على المتقدمين من شعوب بنى آدم . فيجب أن يكون شكرهم له تعالى أعظم ، فياأيها الإنسان أنت المخاطب بهذا الخطاب الربانى أفلا تجتهد وتسعى فى فهم خطاب ربك ، أفلا تحافظ على وحدانيته بهـذه النعم والآيات ، ألا تتقى الشرك والإشراك والـكفر والإلحاد ؛ ولباس التقوى هو الخير الذاتى . يعنى فزين نفسك بتقوى

الله وزكاها بتوحيد الله وهذا هو الخير الأبدى فيجب عليكم أن تلاحظوا هذه النعم الإلهية لعلكم تتذكرون وحدانية ربكم وقدرته القاهرة فلا تعبدوا إلا إياه ، ولا تخضعوا إلا له جل جلاله . وهذه الآية ترشدنا إلى الصنائع والاكتساب ، والزراعة ، والحياكة ، وأنواع الصناعة ، كما أنها تنبهنا إلى الستر والتستر وأن كشف العورة سوء وعار وشنار ، وهذا عام فى جميع بنى البشر من جنس الأبيض والأحمر ، والأسود ، والأصفر . (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) .

الآية الثامنة فيها أيضاً (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) .

هذا النداء عام أيضا لجميع بنى آدم عربهم وعجمهم ، قد خاطبهم الله تعالى فى مقام الوعظ والتذكير ناهيًا إياهم أن لا يفتتنوا ولا يغتروا بوساوس الشيطان كما وسوس لأبى البشر آدم عليه السلام بإظهار النصح له والمحبة حتى أخرج الأبوين من الجنة ، فمن قبل وسوسة الشيطان ابتلى بالعصيان فيكون من أهل الخسران والخذلان ، فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته ووساوسه ، وهذا من الطب الإلهى فى هداية الناس إلى تهذيب أخلاقهم وإصلاح أعمالهم ظاهراً وباطنًا من الشرك وكل مايفسد الدين .

ومن المصائب على البشر أن أكثر المؤمنين بطب الدين الروحى فى هذه القرون الأخيرة لايقفون فيها عند حدود ما أنزل الله على رسوله وما فهمه منه رواته من السلف الصالح ، بل زادوا ، وما زالوا يزيدون فيه من الخرافات والبدع والضلالات فيُنفّرون من الدين العقلاء القاصرين ، والشياطين إنما يتصرفون ويوسوسون من يقبل قولهم من المشركين وأهل الضلال لأن سنة الله التى قد جرت فى التناسب بين أنواع المخلوقات المتجانسة والمتشاكلة أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس وهم الكفار والمشركون وعبّاد القبور والأرواح (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) فأولياء الشيطان هم أصحاب الوساوس

والأوهام والخرافات والطغيان من أهل الطواغيت والدجل والنفاق فنعوذ بالله من شر الشيطان وشر أوليائه من الإنس والجان .

فيابن آدم إذا لم تفهم هـذا الخطاب الإلهى ولم تعرف هذا الأمر الربانى فأنت خارج عن حيز الآدمية فتكون أسيرا بيد الشيطان فهو يلعب بك كيف يشاء ، وقد أخبر الله تعالى أن الشيطان وقبيله يرون بنى آدم فى هذه الحياة الدنيا فيوسوسون لهم، و يضلونهم ، وأما ابن آدم فلا يرى الشيطان على حقيقته وصورته ، و إن رآه على غير صورته ، كالحية والشيخ المتصوف ونحوهم ؛ وعلى أى حال فإن الشياطين إنما يؤثرون على من أطاعوهم من المشركين وعبدة القبور والأرواح ، لا المؤمنين الموحدين المخلصين .

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين الموحدين المخلصين ، وعذنا يار بنا من وساوس الشياطين ودسائسهم سواء شياطين الجن والإنس أجمعين .

الآية التاسعة فيها أيضاً (يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) .

هذا النداء والخطاب الإلهى عام شامل لجميع بنى آدم رجالاً ونساءً ، ويدل على بعثة النبى صلى الله عليه وسلم إلى جميع البشر فستر العورة لازم على جميع بنى آدم رجالاً ونساءً ، وهذا أصل من أصول الإسلام لحفظ كرامة البشر ورقيهم على سائر الحيوانات ؛ والدين الإسلامى إنما شرعه الله تعالى لإصلاح البشر ديناً ودنيا فهو طب الخالق الحكيم العليم الخبير ؛ ولذا قال (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا) بل الزموا الاعتدال والاقتصاد (إِنَّهُ) تعالى (لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) أى إن ربكم الذى أنعم عليكم بهذه النعم لمنفعتكم لايحب المسرفين فى أمرهم كله ، بل يعاقبهم على الإسراف ، فبهذه الآية يُرشد الله تعالى عباده عامةً إلى الاقتصاد فى المعيشة وتدبير المنزل على اجتناب ماحظره الشرع من الإسراف والتبذير والبخل والتقتير ، فتدبر أيها الآدمى كلام ربك الحكيم وتفهمه إن كنتَ من بنى آدم ، وقد سمى الله الحكيم اللباسَ زينة وهو فى الحقيقة كذلك فإن الإنسان إذا تعرّى عن اللباس يكون أقبح منظراً وأشنع مظهراً من الكلب والخنزير كما هو غير خفى على أهل العقل والدين ، وكذلك الأكل والشرب

لأجل حفظ الحياة والقوة والصحة ، وهذا إنما يعتدل بالاعتدال والتوسط ؛ وأما إذا أكل فوق الشبع أو شرب فوق الرىّ فتفسد معدته وتتغير صحته فيبتلى بأمراض مهلكة كما لا يخفى وكذلك الإفراط والتفريط فى اللباس والبناء والأساس والجماع فكلها مضر ومهلك ، والخير كل الخير فى التوسط والاقتصاد فتنبه .

حكاية تناسب المقام ، وهى ماذكرها العلامة إبراهيم الأزرقى فى كتابه « تسهيل المنافع » روى أنه اجتمع عند كسرى « أنو شروان » أربعة من الحكماء : عراقى ورومى وهندى وسودانى ، فقال كسرى لهم : ليصف لى كل واحد منكم الدواء الذى لاداء معه . فقال العراقى : الدواء الذى لاداء معه أن تشرب كل يوم على الريق ثلاث جرع من الماء الساخن . وقال الرومى: الدواء الذى لاداء معه أن تسف كل يوم قليلاً من حب الرشاد . وقال الهندى : الدواء الذى لا داء معه أن تأكل كل يوم ثلاث حبات من الهليلج الأسود ، والسودانى ساكت وكان أحذقهم وأصغرهم سنًّا ؛ فقال له الملك ألا تتكلم ؟ فقال يامولانا إن الماء الساخن يُذيب شحم الكلى ويُرخى المعدة ، وحب الرشاد يُهيج الصفراء ، والهليلج الأسود يهيج السوداء ، فقال فما الذى تقول أنت ؟ فقال يا مولانا الدواء الذى لا داء معه أن لاتأكل إلا بعد الجوع فإذا أكلت فارفع يدك قبل الشبع فإنك لاتشكو علة إلا علة الموت فقالوا كلهم صدق ؛ والاحتماء فى وقت الصحة خير من شرب الأدوية عند المرض . قلتُ وتصديقه فى قوله تعالى : (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا) .

الآية العاشرة فيها أيضاً (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

هذا النداء والخطاب الإلهى عام أيضاً لكافة بنى آدم منذ بعث الله تعالى إليهم الرسل عليهم الصلوات والتسليمات ، وهذا يؤذن بأن الله تعالى قد خاطب كل أمة على لسان رسولها و بين لهم أصول دينهم ، فمن اتقى مانهى الله تعالى عنه ، وأصلح نفسه بما أوجب الله تعالى عليه فلا خوف عليهم مما يترتب على التكذيب والعصيان من عذاب الدنيا والآخرة ولاهم يحزنون عند الجزاء يوم القيامة فيا آدمى إن كنت من بنى آدم فاجتهد

فى فهم خطاب ربك لأنك أهل لذلك ولا تضيع أهليتك فتكون من الخاسرين الهالكين ، وهذه الآية كقوله تعالى (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فتدبر .

الآية الحادية عشرة فى الأعراف أيضاً (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

هـذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم وجهه إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم العربى الأمى بأمر الله تعالى ينبئهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة ، لا إلى قومه العرب خاصة ، فهو كقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) اللهُ (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ) فله التصرف والتدبير فى العالم كله وهو رب العالمين لاشريك له فلا إله إلا هو ولا معبود إلا هو كما أنه لاخالق إلا هو ولا رب إلا هو « فآمنوا » ياأيها الناس من أىّ أمم كنتم عربا أو عجما شرقا أو غربا (بالله) الواحد فى ربوبيته وألوهيته وآمنوا برسوله الممتاز بأنه الأمى الذى بعثه فى الأميين « العرب » رسولا إلى الخلق أجمعين يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويطهرهم من خرافات الشرك ، والرذائل والجهل والتفرق والتعادى بعصبيات الأجناس واللغات والأوطان ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الإخاء العام فى البشر ، فيا أيها الناس اتبعوا هذا النبى لعلكم تهتدون إلى مافيه سعادتكم فى الدارين ؛ ومما يدخل فى اتباعه صلى الله عليه وسلم تعلم لغته التى هى لغة الكتاب الإلهى الذى أوحاه الله تعالى إليه وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعبده به وأن يتلوه فى الصلوات وغير الصلوات مع التدبر والتأمل فى معانيه وذلك موقوف على اتقان لغته وهى العربية الفصيحة فيجب على المسلمين أن يبلغوا الدعوة إلى كل قوم بلغتهم حتى إذا ماهدى الله تعالى من شاء منهم ودخل فى الإسلام علموه أحكامه ولغته كذلك كان يفعل الخلفاء الفاتحون فى خير القرون وما بعدها إلى

أن تغلّبت الأعاجم على العرب وسلبوهم الملك كأبي مسلم الخراساني فإنه منع عن تعلم العربية وعزّر من يتكلم بها أو يعلمها ، والحال أن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة وأوجب عليهم أن يتعلموا لسانه بقدر ما يُطيقونه ولا شك أن لكل فرد من أفراد بني آدم أهلية تعلم العربية وتعلم معناها ولهذا أمر الله تعالى رسوله أن يخاطبهم و يأمرهم و ينهاهم فيتبعوه و يمتثلوا أمره .

وجملة القول أن إقامة دين الإسلام متوقفة على فهم لغة كتابه المنزل من رب العالمين ، وسنة نبيه المرسل رحمة للعالمين .

والعاقل يفهم من هذه الآيات المحكمة أن القرآن هداية دينية عربية وأنه حكومة دينية مدنية عربية عربية اللسان عامة لجميع شعوب نوع الإنسان ، وقد قضى الله تعالى أن يوحد به ألسنة جميع الأمم فيجعلهم أمة واحدة بالعقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة ليكونوا بنعمته إخوانا ، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الإسلام العربية ، وكذا الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون رضى الله عنهم صدعوا بهذا الأمر ونشروا هذا الدين بلغته .

فالآية الجليلة تصرح بأنه يجب على كل فرد من أفراد الإنسان أن يعلم أن الله عزوجل قد أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته ، وأن يحللوا ماحلل اللهُ ورسوله و يُحرموا ماحرم اللهُ ورسوله ، وأن يوجبوا ما أوجبه اللهُ ورسوله ، فمن لم يؤمن به فهو كافر ، وهذا أصل متفق عليه بين المسلمين أجمعين .

واعلم أن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إنما علقا الأحكام بالصفات المؤثرة فيما يحبه الله تعالى وفيما يبغضه ، ولم يخص العرب بنوع من أحكام الشرع إذ كانت رسالته ودعوته لجميع البرية عامة ، و إنما نزل الله تعالى القرآن بلسانهم وهذا لأجل التبليغ لأنه بلغ قومه أولا ثم بواسطتهم بلغ سائر الأمم وأمره الله تعالى بتبليغ قومه أولا ، ثم بتبليغ الأقرب فالأقرب إليه ، كما أمر بجهاد الأقرب فالأقرب ،

كما ذكره الإمام أحمد بن تيمية في رسالته « إيضاح الأدلة فى عموم الرسالة » .

الآية الثانية عشرة فى سورة يونس (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) قدخاطب الله تعالى الناس كلهم عربهم وعجمهم أحمرهم وأسودهم وأبيضهم أن ضرر بغيكم وظلمكم وشركم وكفركم راجع على أنفسكم فتستحقون غضب الله ولعنته وعذابه يوم القيامة ، وإنما تتمتعون عدة أيام فى الحياة الدنيا الفانية كالحيوان والوحوش ثم بعد الموت ترجعون إلى الله فيُخبركم بأعمالكم الظاهرة والباطنة فيُجازيكم عليها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشرٌّ ، فالناس كل فرد فرد منهم مخاطبون ومكلفون مادام عاقلا بالغاً ؛ فتدبر أيها الإنسان حتى لا تصير من أهل الخسران ، يا أيها الظالم الباغى إنما تبغى فى هذه الحياة الفانية عدة أيام زائلة ثم تذوق عذابه وعقابه أبدالآبدين ودهر الداهرين بلا انقطاع فى دار الجزاء . فالآية قد دلت على أن البغى يُجازى أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة ؛ أما فى الآخرة فلا شك فيه البتة ، لأنها دار الجزاء بلا مراء ؛ وأما فى الدنيا فمشاهد معلوم لأنه تعالى يقول (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) .

ويؤيده ويُفسره قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا مِنْ ذَنْبٍ يُعَجِّلُ اللهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » رواه البخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابنُ ماجه . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلاَثٌ هُنَّ رَوَاجِعُ عَلَى أَهْلِهَا : الْمَكْرُ وَالنَّكْثُ وَالْبَغْيُ ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ـ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ـ وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» رواه أبو الشيخ وابن مردويه ، والمراد نكث العهود مع الله تعالى وكذا مع الناس ، وقد جرّب أن البغى من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الأفراد وإيقاد نيران الفتن والثورات فى الأقوام ، والباغى لا يعيش ولا يدوم وينثلُّ عرشهُ عاجلاً ؛ وأما بغى أهل أوربا على أهل آسيا وظلمها لهم فبسبب ظلم وبغى أهل آسيا على أنفسهم فإنهم غيَّروا أمر الله وأشركوا بعبادة الله واعتمدوا على غير الله من

الأموات والأرواح وتلوّثوا بفساد الأخلاق والتقاطع والتخاذل ، وترك كل ماهدى الله تعالى إليه فى كتابه من أسباب السيادة والاستخلاف فى الأرض كما نبهنا عليه مرارا ، ومن يستخدمونهم من ملوكنا وأمرائنا وحكامنا هم أشرّ علينا منهم أنفسهم بل لم يسودونا ولم يغلبونا فى قطر من أقطارنا إلا بمساعدة ساداتنا وكبرائنا إياهم علينا ، ولو تبنا نحن إلى الله لتاب الله علينا ، ولكن أين توبتنا وقد وجد فى زماننا من هم أشد شركا وكفرا بالنعم والمنعم الواحد الأحد جل جلاله ، وهم قوم يدعون غير الله من الأموات فى أشد أوقات الضيق والشدة والخطر ويدّعون مع ذلك أنهم مسلمون ويصلون ويحجون بل يدّعون أنهم العلماء والعرفاء والسادات الكاملون لأنهم ينطقون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم وهم لايعقلون معناها ، ولا يراعون حدودها وحقوقها والله تعالى يقول (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ) والعبد الضعيف قد كنتُ ألفتُ رسالة فى هذه المسألة وسميتها :

[حكم الله الواحد الصمد فى حكم الطالب من الميت المدد] .

وهى مطبوعة فى مصر ومنشورة ، وكذا تفسيرى على سورة فاتحة الكتاب [أوضح البرهان فى تفسير أمّ القرآن] وهذا مطبوع فى مكة فى مطبعة أمّ القرى وكذا رسالتنا المسماة [مفتاح الجنة لا إله إلا الله] وكذا [البرهان الساطع فى تبرؤ المتبوع من التابع] المطبوعتان فى مصر ، ففى كلها تحقيق هذه المسائل حق التحقيق فعليك بمطالعتها أيها الطالب للحق وبالله التوفيق .

الآية الثالثة عشرة فيها أيضاً (يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

وهذا النداء والخطاب عامّ شامل أيضاً لعامة الناس كلهم ، وهذا الذى جاء من الله تعالى إنما هو القرآن وهو موعظة وتذكرة من ربكم الرحيم وشفاء لما فى الصدور والقلوب من أمراض الشكوك والشبه والكفر والشرك والنفاق والعقائد الفاسدة الزائغة ويحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، ولكنه إنما ينتفع به المؤمنون المصدقون العاملون ، وفى حقهم يكون شفاء وهدى ورحمة ، فآمنوا بالله ورسوله وهذا

الكتاب واهتدوا بهديه ، وهذا لاشك خير وأفضل من أموال الدنيا وزخارفها الفانية كلها ، ولكن أكثر الناس لما لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولم يهتدوا بهديه ابتلوا وتلوثوا بالشرك وعبادة الأوثان والدجل والخرافات ، فاستحقوا النار و بئس المصير .

واعلم أن هذا الكتاب جامع لكل ما يحتاج إليه البشر من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة ، وحكمة بالغة لإصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة ، وهداية واضحة للصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ورحمة خاصة للمؤمنين هى شجنة من رحمة رب العالمين العامة للخلق أجمعين يتراحمون بها فيما بينهم فتكمل بها رحمته تعالى لهم ورحمته تعالى للعالمين برسوله إليهم .

نكّر الله تعالى هذه الكلمات الأربع : موعظة ، شفاء ، هدى ، رحمة ، لتعظيم أمرهن وكمالهن فيجب الاتعاظ بها إيمانا وتسليما لأنها من مالك أمر الناس ومربيهم بفضله ورحمته وعلمه وحكمته . الأولى : الموعظة أى الوصية بالحق والخير ، واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التى يرقّ لها القلب فتبعث على الفعل أو الترك . الثانية : شفاء ما فى الصدور أى شفاء جميع ما فى القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق والجهل وسائر الأمراض النفسية التى يضيق الصدر بها من شك فى الإيمان ومخالفة للوجدان و إضمار للحقد والحسد والبغى والعدوان وحبّ للباطل والظلم والشر و بغض للخير والحق والعدل . الثالثة : الهدى ، وهو بيان الحق المنقذ من الضلال فى الاعتقاد بالبرهان وفى العمل ببيان الحِكَم والمصالح فى إحكام الأعمال . الرابعة الرحمة للمؤمنين وهى ما تثمره لهم هداية القرآن وتُفيضُه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة ، فمن آثارها إغاثة الملهوف و بذل المعروف وكفّ الظلم ومنع التعدى والبغى وغير ذلك من أعمال الخير والبر ومقاومة الشر ، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بقوله : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) وهذه الرحمة لا توجد على كمالها إلا فى المؤمنين المهتدين ، ولا يحرمها إلا الكافرون المادّيون ، وكان الصحابة رضى الله تعالى عنهم من أرحم الناس بإخوانهم المؤمنين مع شدتهم على الكافرين المعاندين كعمر بن الخطاب رضى الله تعالى

عنه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلا مِنْ شَقِيٍّ » رواه أبو داود والترمذى . وقال صلى الله عليه وسلم « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمٰنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » رواه الترمذى وأبو داود ، وقد خاطب الله تعالى بهذه الآية أمة الدعوة المحمدية وهم جميع الناس فموعظة القرآن ؛ وما فيه من شفاء أمراض الكفر والنفاق والرذائل وهديه إلى الحق والفضائل موجهات إلى جميع الناس وخص المؤمنين بما تثمره الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

فيا أيها المؤمنون انتفعوا بمواعظ ربكم واستشفوا بها من أمراضكم بسلوك سبيلها كى تكونوا أهلا لرحمة الله الرحيم الكريم فتفوزوا بسعادة الدارين .

الآية الرابعة عشرة فيها أيضاً (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم آمراً إياه قل يا محمد يا أيها الناس إن كنتم فى شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذى أوحاه الله تعالى إلىّ ولكنى على يقين أن ماجئت به حق من الله تعالى فأنا لا أعبد الذين تعبدونهم أنتم من دون الله من الملائكة أو الروحانيين أو الأولياء أو أى شىء كان ، ولكن إنما أعبد الله الذى خلقكم فأحياكم ثم يميتكم وأنا مؤمن بالله وحده لا شريك له ، وهذا الخطاب عام لجميع البشر عربهم وعجمهم مغربيهم ومشرقيهم فأكثر الناس من الهنود والصينيين واليابانيين والإفريقيين والأوروبيين والأمريكانيين والروسيين وأمثالهم لما لم يفهموا كلام الله ربهم ولم يعتنوا به لم يعرفوا ربهم حق المعرفة فأشركوا به شركاء من العلويين والسفليين تقليداً لآبائهم أو اكتفاء بعقولهم وآرائهم ، فهؤلاء هم الذين لما يرون يوم القيامة أن الحيوانات العجم تصير ترابا بعد القصاص يقولون ياليتنى كنت ترابا ، وأنى له ذلك بل مصيره إلى النار وبئس المصير لماذا لأنهم ضيعوا أهليتهم للإيمان بالله تعالى وفهم كلام ربهم العليم الحكيم فتنبه أيها الإنسان ولا تضيع أهليتك فى الخسران .

الآية الخامسة عشرة فيها أيضاً (قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) وهذا الخطاب عام أيضاً ، قد أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس كلهم ويقول لهم إن الدين الذى جاءهم به من عند الله تعالى هو الحق الذى لامرية فيه ولا شك فيه فمن اهتدى به وآمن واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، وأما من ضل عنه ولم يهتد به ولم يتبعه وتمادى على كفره وشركه وعناده باتباع آبائه وأحباره ورهبانه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ، فأنت يامحمد قل لهم ماأنا عليكم بوكيل وموكل حتى تكونوا مؤمنين به ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى ، فمن هداه الله تعالى ورزقه التوفيق يكون من المحظوظين وأهلا لرحمة رب العالمين ورضاه وجنته ، وأما من أضله الله تعالى فهو من المحرومين من الرحمة والجنة بل يكون من الخاسرين الهالكين ، الذين هم فى عذاب جهنم خالدون .

الآية السادسة عشرة فى سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) قد أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينذر الناس كلهم ويخوفهم عذاب يوم القيامة ليجتهدوا فى تخليص أنفسهم منه ، وهذا الخلاص إنما يحصل بالإيمان بالله ورسوله وكتابه والاهتداء به واتباعه ؛ لأن الظالمين والكافرين سيندمون ذلك اليوم لما يرون العذاب ويقولون : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونؤمن بك ونتبع الرسل محمدا صلى الله عليه وسلم فمن قبله ولكن لايستجاب لهم لأنهم كفروا وظلموا أنفسهم فى دار التكليف وافتتنوا بدنياهم وما هم فيه من شئون الملك والرياسة والمال والجاه والأتباع فيقال لهم : أولم تكونوا أيها الظالمون المعاندون الكافرون المنكرون مغرورين ومفتونين ، وتدّعون أنكم على الحق وتقسمون أنكم مستمرون على ماأنتم

عليه من العقيدة والمذهب والعمل مالكم من زوال ، فاليوم لا ينفعكم الندم ولا التوبة لأنه يوم الجزاء .

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً (هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) يعنى أن هذا القرآن العربى بلاغ للناس كلهم عربهم وعجمهم شرقيهم وغربيهم يُبلغه محمد صلى الله عليه وسلم لجميع الخلق أجمعين : من إنس وجن ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الجهل والشك والشرك والخرافات إلى نور الإيمان والتوحيد ، فمن آمن به وصدقه وفهم ما فيه من الأوامر والنواهى والحكم الإلهية فقد فاز فوزا عظيما ، ومن تدبره وتذكره يعلم يقيناً أنما الله إله واحد لا معبود سواه ، كما أنه لا خالق سواه ، ولا رازق سواه ، ولا رب سواه ؛ فيا أيها الناس إن فهمتم كلام ربكم الرءوف اللطيف الرحيم الحكيم فلكم الحظ الأوفر من فضل الله ورحمته وإلا فأنتم من المحرومين الخاسرين .

وهذا الأمر الإلهى يرشدنا إلى أنه يجب على كل مؤمن ومؤمنة عموماً والعلماء ورثة الأنبياء خصوصاً أن يُبلغ كل فرد منهم كلام الله القرآن إلى من يليهم من الناس ويُفهموهم معناه ويُبينوا نتائج العمل والإيمان به ويوضحوا وخامة حال من كفر به وخالفه أو جهل معناه ، وهذا هو الواجب على كل مؤمن ومؤمنة . وأما إذا لم يؤدوا هذه الوظيفة ، وتساهلوا فيه ، أو ضيعوا أعمارهم فى الفلسفة والأدبيات كما هم عليه اليوم فقد خانوا الله تعالى ورسوله وعامة الخلق أجمعين ، فتنبه وتدبر .

الآية الثامنة عشرة فى سورة النحل (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وهذا خطاب لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم آمراً إياه ليبين للناس كلهم عربهم وعجمهم ما أنزل الله تعالى إليه من القرآن لعل هؤلاء الناس يتفكرون فيه ويتدبرون معانيه وينتفعون بإرشاداته فيهتدوا فيفوزوا بالنجاة والسعادة فى الدارين ، فأنت يا رسولى محمد صلى الله عليه وسلم تفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ، فالنبى صلى الله عليه وسلم قد بين للناس كلهم كلّ ما فى الذكر

الحكيم من الأوامر والزواجر والمصالح ؛ فالأحاديث النبوية قولية وفعلية كلها بيان لما فى القرآن الحكيم ، فعليك أيها الإنسان أن تتعلم القرآن والأحاديث النبوية بالتدبر والتفكر والتفهم والتأمل لتقف على حقائق الدين والإسلام كما هى ، وتكون من المحظوظين الفائزين ، رزقنى الله تعالى و إياك فوز الدارين .

فمن لايعلم معنى القرآن ، ولم يتدارس أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يطلع على كتب السنة والصحاح والمسانيد والسنن ، فهو لم يعرف من الدين والإسلام إلا اسمه ، كمن اغترّ بالقشر الخالى عن اللبّ ، وهذا لاشك من المحرومين لأنه محروم عن فهم الدين ، ومحروم عن فهم كلام رب العالمين ، ومحروم عن فهم معانى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتدبر أيها الإنسان بماذا يمتاز الإنسان عن الحيوان ، و بماذا يمتاز الموحد المؤمن عن المشرك الكافر .

الآية التاسعة عشرة فى سورة الإسراء (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) أى بيّنا للناس كلهم عربهم وعجمهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق وشرحناه و بسطناه من كل وجه من العبر والحكم والأحكام والوعد والوعيد، ليستعملوا عقولهم و يفهموا ذلك ، ولكن أبى أكثر الناس عن الإيمان به ، وتدبر معانيه ، إلا كفوراً : أى جحوداً للحق و إعراضاً عنه ، فبدلوا نعمة الله كفراً ، واعتمدوا على ما كتب أسلافهم من الفلسفة والسفسطة من الأشعار والدواوين والأغلوطات ، وظنوها حكما ودينا وفضلا وكمالا ، و بذلك صاروا محرومين عن فهم كلام رب العالمين ، وتمادوا على كفرهم وضلالهم وشركهم وهم لايشعرون ، ولهذا يقولون يوم القيامة حين يُلقون فى جهنم (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) .

فمن كان فى هذه الحياة الدنيا أعمى عن حجج الله وآياته و بيناته فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، عياذا بالله من ذلك ، فهذه الآية تفيد أنه يجب على كل إنسان

معرفة ربه والإيمان به وبرسوله ومعرفة كلامه معرفة تامة ، وهذا لايختص به شخص دون شخص ، وفرد دون فرد ، كما لايخفى فتدبر .

والعجب أن كثيراً ممن يدّعون العلم والدين ويقرءون القرآن كثيراً ، لايفهمون من معانى القرآن إلا شيئاً يسيراً ، ولا يعتنون بفهم معانيه اعتناءهم بفهم كتب الفلسفة والمعميات والألغاز ، بل يعتقدون أن فهم معانيه متعذر فى هذه الأزمنة ، لانسداد باب الاجتهاد ، وإنما يعرف معنى القرآن والحديث الأئمة المجتهدون ، وهم قد انقرضوا منذ تاريخ أربعمائة عام ، فنحن لانعمل إلا بما قاله وكتبه مَن قبلنا من أئمتنا ، فبذلك صاروا محرومين عن فهم كلام ربهم الرحمن الرحيم ، فلهذا ترى أن أكثرهم ابتلوا بالشرك الأكبر والكفر الأقبح ، كدعاء الأموات والاستمداد من أهل القبور وهم لايشعرون ، كما لايخفى على من له أدنى عقل ودين .

الآية العشرون فى سورة الكهف (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً) فيا أيها الإنسان إن ربك جل جلاله قد بين للناس فى هذا القرآن طريق الحق ، ووضح الأمور كلها وفصلها كيلا تضل فتشقى ، وأنت تكثر الجدال والمعارضة للحق بالباطل ، وتقول إن آباءنا وأسلافنا ما كانوا يعرفون الدين والإسلام قبل أن تعرفه أنت ، وأن الشيخ الفلانى كان أعلم منك ، لأنه كان سيداً عظيما ، وأكبر منك سنًّا ، فبهذه المجادلات الباطلة ، صار تقليدهم الجامد لآبائهم سبباً لتركهم الإيمان بالله وحده ، فهم لا يرجعون ولا يتوبون إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، وهى إهلاكهم إن لم يؤمنوا ، أو يأتيهم العذاب قبلا كما أهلك قوم نوح بالطوفان وأغرقهم أجمعين

وهذا ابن نوح رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لم يؤمن ولم يتب ، لم ينفعه كونه ابن رسول الله ، ففيه عبرة عظيمة للذين يعتمدون على النسب ،

ويفتخرون بأنهم الأسياد أو الشرفاء ولا يؤمنون بالله وحده ولا يمتثلون أمره ، ولهذا قال على رضى الله عنه :

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

وقيل :

ولا ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهـله

وكما أهلك قوم عاد وثمود وقوم تبع ، وفرعون وهامان وقارون ، وكما أهلك أبا جهل وشيبة وربيعة ، وكما أهلك كسرى وقيصر ، وهكذا كل ظالم معاند ، يُهلكه الله تعالى ويأخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ فيا أيها الناس تعلّموا كلام ربكم ، واتعظوا بمواعظه ، واستغفروه على مامضى من الذنوب ، فإن تُبتم تاب الله عليكم ، وإن أصررتم على ما أنتم عليه ، وافتتنتم بزخارفكم ، واختراعاتكم ، أو ماعلمتم أنها استدراج وستكون سبباً لنداماتكم حيث لاينفعكم الندم .

الآية الحادية والعشرون فى سورة الحج (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) وهذا خطاب عام لجميع الناس ، فيا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم ، وأوجدكم من العدم وصوّركم فأحسن صوركم ، وركّب فيكم العقل والفهم والإدراك ؛ أى فاحذروا عقابه بطاعته ، فآمنوا به ووحّدُوه وخصصوا العبادة له تعالى وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، لاملَكاً مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، ولا وليّا من الأولياء ولا تتخذوا له تعالى نداً ، ولا تكونوا ممن يعبد الله على حرف ، ولا تجادلوا فى الله ودينه بغير علم ، لأن زلزلة الساعة شىء عظيم ، وهذه الساعة آتية قريبة لاريب فيها فاحذروا ، ولا تتبعوا كل شيطان مريد : من الرهبان والأحبار الأكالين أموال الناس بالباطل ، وشيوخ الطرق الدجالين ، والسادات الملحدين ، والرؤساء الجاهلين ، فاتقوا أيها الناس ربكم وحده لا شريك له ؛ فالناس كلهم مخاطبون ومكلفون بفهم هذا الخطاب وأمثاله من الخطابات العمومية ، فمن فهمه وعمل به فقد فاز فى الدارين وصار من المحظوظين ؛ وأما من أعرض عن فهمه ولم يعمل به فقد صار من المحرومين

الخاسرين ، وكذا من عمل ببعضه وخالف بعضه ، كأكثر من يدعى الإسلام من مسلمى هذه الأعصر .

الآية الثانية والعشرون فى سورة الحج أيضاً (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) الآية .

وهذا الخطاب عام أيضاً لجميع بنى آدم أحمرهم وأبيضهم وشرقيهم وغربيهم، وإعلام منه تعالى أن كل فرد فرد منهم قد خلقهم الله تعالى ، وأصله من تراب ، وهو آدم أبو البشر عليه الصلاة والسلام ثم من بعده من نطفة منىّ يُمنى ، فيرشد الله تعالى الناس كلهم إلى أن يستعملوا عقولهم ، ويستدلوا بوجود أنفسهم وسائر الموجودات على وجود الله تعالى خالقهم ، ووحدانيته وقدرته وعلمه ، وهذا لا يحصل إلا بفهم كلامه العربى المنزل منه تعالى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الآية الثالثة والعشرون فيها أيضاً : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) .

أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب الناس كلهم قائلا إنما أنا لكم نذير مبين ، أى إنما أرسلنى الله تعالى إليكم جميعا نذيراً لكم ومخوِّفا إياكم بين يدى عذاب شديد ، فآمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً لا فى الربوبية ولا فى الخالقية ولا فى الألوهية والعبادة ، وأما إن لم تؤمنوا ولم توحّدوا فالله تعالى يعذبكم عذابا شديداً فى نار جهنم خالدين فيها أبداً ، وليس إلىّ من حسابكم من شىء فأمركم إلى الله وحده إن شاء عجّل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، وأما الذين سعوا فى آيات الله معاجزين يثبطون الناس عن متابعة النبى صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته فأولئك أصحاب النار .

الآية الرابعة والعشرون فيها أيضاً (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ،

وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) .

يخاطب الله تعالى عامة الناس عربهم وعجمهم ذكرهم وأنثاهم عالمهم وجاهلهم ويأمرهم بالاستماع له وتفهم مايقول من المثل ، إن الذين تدعون فى عباداتكم أو طلباتكم وقضاء حاجاتكم من دون الله من الملائكة أو الكروبيين أو الروحانيين أو الأنبياء والأولياء أو أى مدعوّ كان لن يستطيعوا أبداً ، ولا يقدرون قطعاً أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمع أولهم وآخرهم لأجل ذلك ، والحال أنه أصغر المخلوقات وأضعفها ، وإنما خلقه الله تعالى لإذلال الجبارين والمتكبرين ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب .

فيا أيها الناس إن كان الأمر هكذا كيف ظننتم فى بعض المخلوقين واعتقدتم أنه يضركم أو ينفعكم أو ينقذكم من عذاب الله فعبدتموهم ونذرتم له أو توجهتم إليه فاتخذتم هذه الأنداد وهذه الأصنام وهذه الأوثان وهذه القبور التى بنيتم عليها القبب والبُنيان الشامخات وجلستم متوجهين إليها راجين منهم وسائلين إياهم وخائفين منهم ، وقد أخذ الشيطان عقولكم وزين لكم الشرك بالله فأشركتم بربكم وأنتم لاتشعرون ، لأنكم جهلتم معانى كتاب ربكم الحكيم العليم وأخرجتم أنفسكم عن حيز الإنسانية إلى حضيض الحيوانية بل سعير الشيطانية ، فمثلكم يقولون يوم القيامة حينما ترون الحيوانات تصير تراباً ، تساقون إلى جهنم : ياليتنا كنا ترابا لأنكم ظلمتم أنفسكم بتضييعكم أهليتكم للإيمان بالله وفهم خطابه فلا تلوموا إلا أنفسكم أيها المجرمون وتفكروا اليوم فى هذه الأمور تشبثاً لتدارك ذلك قبل الفوات .

الآية الخامسة والعشرون فى سورة الروم (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ)

وهذا التمثيل عام لجميع الناس ليعتبروا ويتعظوا فيهتدوا وينتفعوا ولكن أكثرهم من خبث عقيدتهم وتقليدهم لأسلافهم الجاهلين الخاسرين الذين اتخذوا

الخرافات والترهات ديناً ، ويقولون فى حق الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج الواضحات ، ليس هؤلاء إلا مبطلون مزوّرون كذابون ؛ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ، ولا يطلبون علم الدين ، ولا يجتهدون لفهم كلام رب العالمين ، بل يصرون على الخرافات التى اعتقدوها ، والترهات التى ابتدعوها ، كما لا يخفى فتدبر .

الآية السادسة والعشرون فى سورة لقمان : (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) .

وهذا خطاب ونداء عام لكافة البشر أسودهم وأبيضهم وأصفرهم ، قد أمرهم الله تعالى بأن يتقوا ربهم الذى خلقهم ، ويؤمنوا به وبكتابه الذى أنزله ، ونبيه الذى أرسله ؛ وأمرهم أن يخشوا عذاب يوم الجزاء ، ولا يغتروا بأولادهم وأموالهم ، وكثرة أتباعهم ، فإن فى ذلك اليوم لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود عن والده شيئاً ، ولا يسأل حميم حميما ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ؛ وهذا وعد من الله حق لا ريب فيه ، فلا تغرنكم زينة الحياة الدنيا وأموالها وأولادها ، وعماراتها الشامخة ، وحكوماتها المستبدة ، والمذاهب المبتدعة ، والطرق المخترعة ، وجميع المريدين والأتباع والتلامذة ، فإنها كلها فانية زائلة ، بل غالبها وبال على أربابها ؛ ففى ذلك يقول المغرور الكافر بالله وكتابه ورسوله (مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) .

فيا أيها الإنسان اتق الله حق التقوى ، واجتهد فى فهم كلام رب العالمين ، وامتثال أمره حتى لا تكون من المحرومين الخاسرين ، لأن الإنسان والله العظيم لفى خسر وخسران ، إلا الذين جمعوا الأوصاف الأربعة واتصفوا بها ، فمن جمعها فهو الناجى الرابح الفالح ، وصاحب الحظ العظيم ، ولا شك أن ذلك كله موقوف على معرفة معانى القرآن معرفة صحيحة ، وهذا لا يحصل إلا بالتعلم ، والإنسان أهل لذلك ، ولهذا قد خاطبهم الله تعالى وأمرهم ونهاهم ؛ وأما إذا لم يعرف الإنسان معنى كلام ربه معرفة صحيحة ، فلا يمكن له عبادة الله حقا وصدقا ، فلا ينفعه قيامه فى الأماكن

المقدسة ، ولا الطواف حول الكعبة ، فإن أبا جهل وأبا لهب كانا من ساكنيها فتدبر .

ونحن قد شاهدنا وجربنا فى هذا العصر أن كثيراً من الدجالين وإن رطنوا برطانة العرب ، ولكنهم يعتقدون أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب ، وأن روح عبد القادر الجيلانى يتصرّف فى العالم ، ويغيث من استغاث به ، وهو الغوث الأعظم ، وهكذا له أمثلة كثيرة ، ولاشك أن هذا الاعتقاد هو الشرك الأكبر ، الذى لايغفره الله تعالى أصلاً ؛ ومع ذلك هم مقيمون بالبلاد المقدسة والحرمين الشريفين ، فإذاً من لم يفهم القرآن فهماً صحيحاً ولم يتدبر ولم يتفكر فيه لاينتفع به كما لايخفى ، فيكون القرآن حجة عليه ، ولا يغتر بأقوال الناس إلا المغرور المفتون .

الآية السابعة والعشرون فى سورة سبأ : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) .

فكافة الآدميين عربهم وعجمهم مكلفون بالإيمان بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه رسول الله ، وأن القرآن أنزله الله تعالى إليه وحياً بواسطة جبريل عليه السلام ، بشيراً للمؤمنين الموحدين بالرضا والرضوان ، ونذيراً للكافرين والزنادقة الملحدين باللعنة والنيران ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ذلك لغلبة الجهل عليهم فيخالفون لهذا الرسول ، فلا يتبعون سنته ، ولا يتعلمون دينه وكلامه ، ولو كانوا يعلمون حقيقة الأمر لآمنوا به ، واتبعوا النور الذى أنزله الله تعالى إليه ، وتعلموا وتفهموا كلامه بالاعتناء التام فتنبه .

الآية الثامنة والعشرون فى سورة فاطر : (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) .

هذا الخطاب عام أيضاً لجميع الناس شرقيهم وغربيهم ، عالمهم وجاهلهم ، وقد أمرهم الله تعالى جميعاً أن يذكروا ويتذكروا نعم الله التى أنعمها عليهم ، فإنه هو الذى

خلقهم ورباهم ورزقهم ، وهيأ لهم الأسباب ، هل من خالق غير الله ، كلا لا خالق إلا هو وحده لاشريك له ، ولا متصرف فى الكون إيجاداً و إعداماً إلا هو وحده فلا تعبدوا إلا هو وحده ، فإنه المستحق للعبادة حقا ؛ فإن كان الأمر فى الواقع هكذا فأنى تؤفكون أنتم أيها المنكرون الجاهلون ، وتشركون به تعالى فى عبادته غيره ، فتدعون غيره ، وترجون من غيره ، وتخافون من غيره ، وتنذرون لغيره ، وتحجون لبيت غيره ، وتطوفون بمرقده ، أما تفيقون من سكرتكم ، أما تقفون عند حدكم فى العبودية له تعالى وحده .

ولما جهل الناس خطاب ربهم ، فضلوا وأضلوا كما هو الشائع الذائع ، صاروا يعبدون الأصنام والأوثان والأنداد والقبور والمشاهد والأرواح ، لأنهم ضيعوا عقولهم بتقليد أحبارهم ورهبانهم ورؤسائهم ، صاروا من المحرومين ، و إن ظنوا فى هذه الحياة الدنيا أنهم من المحظوظين ، والظن لايغنى من الحق شيئاً .

الآية التاسعة والعشرون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

هذا خطاب عام أيضاً لكافة البشر أجمعين ، وتنبيه لهم أن لايغتروا بهذه الحياة الدنيا وزينتها ودولتها وشوكتها ، فإنها كلها دنية فانية زائلة ، و إنما الباقى ما أعده الله تعالى لأوليائه المؤمنين فى دار الآخرة من الخير العظيم ؛ ولا يغرنكم الشيطان ، و يصرفكم عن الإيمان بالله وحده ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه هو العدو المبين لكم يجتهد فى إهلاككم الأبدى الدائم ، فلا تطيعوه أصلاً بل اتخذوه عدوا ، لأنه إنما يدعو و يرغِّب حزبه ومن يطيعه ، ليكونوا كلهم من أصحاب السعير .

نسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتابه والاتباع لطريق رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فيا أيها الناس إن وعد الله حق فاستعملوا عقولكم ، وتعلموا كلام ربكم ، وتفهّموا خطاب مولاكم ، طالبين منه التوفيق للعمل به .

الآية الثلاثون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

يخاطب الله تعالى عامة الناس كلهم نبيهم ووليهم ، وسعيدهم وشقيهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وملكهم ورعيتهم ، ومالكهم ومملوكهم ، أن كلهم فقراء محتاجون إليه تعالى فى وجودهم وحياتهم ، وفى جميع حركاتهم وسكناتهم ؛ وأما هو تعالى فهو غنى عن العالمين كلهم ، فلا تنفعه عبادة العابدين ، كما أنه لا يضره كفر الكافرين ، وشرك المشركين ، وإنما ضرر كفرهم وشركهم على أنفسهم ، كما أن منفعة طاعتهم وعبادتهم لأنفسهم ، والله تعالى حميد الفعال فى جميع ما يفعله ، ويُقدّره ويشرّعه ؛ فيا أيها الناس ، أطيعوا ربكم ، وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ، وتعلموا كلامه ، وتفهّموا خطابه ، لتفوزوا بسعادة الدنيا والدين والآخرة ؛ فياخسارة من فاته فهم كلام ربه ، وياشقاوة من شغل نفسه عن فهم خطاب ربه بالفلسفة والسفسطة والأشعار والألغاز والأساطير والخرافات والترّهات .

الآية الحادية والثلاثون فى سورة يس : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) .

وهذا خطاب عام لجميع بنى آدم بصيغة الاستفهام الإنكارى ، وأمر منه تعالى بأنه قد أمر بنى آدم أن لا يعبدوا الشيطان ، وأن لا يطيعوه فى مخالفة الله ومعاصيه ، لأنه عليه اللعنة عدو مبين لجميعكم ، إنما قصده إغواؤكم وإهلاككم بعصيان ربكم الرحمن الذى خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه وحده ، ألا تعلمون أن الشيطان قد أضل من قبلكم أناساً كثيرين ، كقوم نوح وإبراهيم وهود وصالح وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام بتزيين الشرك لهم ، وترغيبهم إلى عبادة يغوث ويعوق وود وسواع

ونسراً ؛ كما زين للمتأخرين من هذه الأمة عبادة عبد القادر الجيلانى حتى سموه واعتقدوه غوثاً أعظم ، وعبادة بهاء الدين النقشبندى ، واعتقدوه دافع البلاء ، وعبادة معين الدين الجشتى ، وأحمد البدوى ، وهكذا فى كل إقليم وقطر ، فبذلك حصّل الشيطان مراده ، ألا وهو الشرك الأكبر بالله فى عبادته ، بل فى ربوبيته وصفاته ، فيا أيها الناس ألا تنتبهون من هذه الجهالة المهلكة ، وتتفكرون فى خلق السموات والأرض وفى خلق أنفسكم ، أفلا تعقلون ، أفلا تبصرون ، أفلا تستعملون عقولكم ؟

الآية الثانية والثلاثون فى سورة الزمر : (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

يعنى بينا للناس كلهم عربهم وعجمهم فى هذا القرآن العربى كل شئ بضرب الأمثال لعلهم يتذكرون ويتفكرون ويتدبرون ، فيعملوا بإرشاداته ونصائحه ومواعظه ، لأنه قرآن واضح البيان لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ولا تعقيد ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك لعلهم يتقون ، ويحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد ؛ ولاشك أن الذى لايفهم معناه لا يتذكر ولايتعظ ؛ فالانتفاع به موقوف على فهم معانيه فهماً صحيحا مستقيما ، بلا عوج ولا تأويل ولا تحريف ؛ فيجب على كل الناس فهمه وتعلمه والاعتقاد والعمل بموجبه وألا يكون محروما من الإنسانية ، كما صار محروما من رحمة الله وجنته فتنبه .

الآية الثالثة والثلاثون فيها أيضا : (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) .

يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إنا أنزلنا عليك القرآن لهداية جميع الناس من الإنس والجن ، والشرق والغربى لتنذرهم به حقا ؛ فمن اهتدى وعمل بما فيه فمنفعته راجعة إلى نفس ذلك المهتدى ؛ وأما من ضل وعاند

وكفر ولم يهتد به فإنما ضرر ضلاله وكفره وجهله على نفسه ، ولست أنت يا محمد موكلا بهم أن يهتدوا ، وأن يقبلوا ويتعلموا ما فيه .

فيا أخى إن كان الله تعالى أنزل هذا القرآن لهداية جميع الناس وإرشادهم ، فهل يهتدى ويسترشد وينتفع من لا يعرف معناه حق المعرفة ؟ كلا ، والتراجم لاتؤدى تمام المعنى أبداً ، فإن جهلت معانى القرآن فقد ضللت ضلالاً مبيناً ، كأكثر الناس الذين يعتقدون أن أرواح الأولياء يعلمون الغيب ، ويتصرفون فى الكون ، فينفعون من يستغيث بهم ، ويضرون أعداءهم ، ومع ذلك يدّعون أنهم على شئ ؛ أى أنهم عارفون واصلون إلى الله ، وأنهم من محبى أولياء الله ، ألا إنهم هم الكاذبون والخاسرون ، لتركهم الاهتداء بكلام رب العالمين ، واكتفائهم بكلام أناس غير معصومين .

الآية الرابعة والثلاثون فى سورة الجاثية : (هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) .

يعنى أن هذا القرآن بصائر للناس كلهم عامة ، ولكن إنما ينتفع به من فتح بصره إليه ، ووجّه بصيرته إلى تدبره وتفهّم معانيه ، يعني أن كونه بصائر وإرشادات عام لعامة البشر شرقيهم وغربيهم ؛ وأما كونه هدى ورحمة فخاص بقوم يوقنون به ، فيعتنون بفهمه وتفهمه ، فالناس كلهم مكلفون بهذا كما لايخفى ، فمن علمه كله وعمل بكله ، فهو السعيد فى الدارين جميعاً ، وأما من علم بعضه وعمل بموجبه فإنه ينتفع على قدره ، كالإفرنج الذين اعتنوا بما يتعلق بالصنائع والطبائع وآلات الحديد ، وعدة القوة ، والحساب والهندسة ، والتجارة والسياسة ، فنالوا منها على قدر استعدادهم وسعيهم كما لايخفى .

وبالجملة فان معرفة معانى القرآن لازمة على كل إنسان عربهم وعجمهم ، وهذا لاشك فيه ولا ريب .

الآية الخامسة والثلاثون فى سورة الأحقاف : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) الآية .

فالإنسان من حيث إنه إنسان موصّى من قبل ربه ، ومأمور بالإحسان إلى الوالدين ؛ فيجب على كل إنسان معرفة هذه الوصية الربانية ، والعمل بموجبها كما لايخفى ، وكما قال الله تعالى فى سورة الإسراء : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً) . وقال تعالى : (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) الآية .

فالإنسان مأمور قطعاً بالإحسان إلى الوالدين وخدمتهما و إرضائهما بما يستطيع ، وحرام عليه إيذاؤهما وجفاؤهما وترك خدمتهما ؛ فلهذا قد عد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوق الوالدين و إيذاءهما من الكبائر والموبقات والمهلكات السبع ، وقد قرن الله تعالى شكره بشكر الوالدين ، وقد ثبت فى الصحيح أن الولد البارّ لوالديه ينال رضى الله تعالى و يكون مجاب الدعوة ، وهذا هو عين الإنسانية فتنبه وتدبر .

الآية السادسة والثلاثون فى سورة الحجرات : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

يخاطب الله تعالى كل الناس جميعًا معلنا إياهم أنه تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى ، وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء عليهما السلام ، وجعلهم شعوبًا وقبائل ؛ وأفاد تعالى أن جميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية سواء ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، و إنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهى الإيمان بالله وطاعة الله تعالى ، ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) لا بالأحساب والأموال والأنباع والأولاد ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . رواه مسلم وابن ماجه .

فبهذا قد أفادنا الله تعالى أن دين الإسلام مبنى على المساواة من حيث الإنسانية والمعيشة الدنيوية ومعاملتها ، وإنما يمتاز الفاضل عن المفضول عند الله يوم الدين ؛ فالأكرم ههنا هو المتقى الذى اتقى الشرك والظلم والكفر والمعاصى ، والله تعالى عليم وحكيم وخبير بما فى الصدور .

فانظر ياأخى كيف خاطب الله تعالى الناس جميعًا ؛ أى الجنس البشرى كله على اختلاف دينه ولغاته وألوانه وبلدانه ، ثم أراد أن يربط الناس جميعًا برابطة أقوى من رابطة القرابة والدم ، فدعاهم إلى اعتناق دين واحد ، وعبادة إله واحد ، تدعوهم الفطرة السليمة إلى الإيمان به ، فيؤلف بين قلوبهم ؛ فالله تعالى يدعو العالم كله إلى دين واحد ، وإلى لغة واحدة ، وهو تعالى قد حتم القراءة فى الصلاة والعبادات كلها باللغة العربية ، فالأمم التى دخلت فى الإسلام تسارعت إلى تعلم اللغة العربية ، وحذقها وإجادتها . ألا ترى الأندلس كيف ازدهرت فيها لغة العرب الفصحى ازدهاراً رائعاً ، وبخارى وماوراء النهر كيف نمت فيها لغة الضاد ، والشاهد الإمام أمير المحدثين محمد بن إسماعيل البخارى ، والإمام مسلم بن الحجاج ، وأبو عيسى الترمذى ، وأبو داود السجستانى ، وعبد الرحمن النسائى ، وأبو الليث الفقيه السمرقندى وأبو بكر القفال الشاشى ، وبرهان الدين على المرغينانى صاحب الهداية ، وملك العلماء الكاسانى صاحب البدائع ، وأمثالهم رحمهم الله تعالى ، ولكن الخلف قد خالفوا السلف ، فغيروا فغيّر الله عليهم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم فتح مكة قائمًا على باب الكعبة وقال : « يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِالآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَاب ، ثم تلا هذه الآية :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) » الآية .

كذا فى البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣٠١ .

الآية السابعة والثلاثون فى سورة الحشر : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

يقول الله تعالى معظمًا لأمر القرآن ، ومبينا علوّ قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد ، فإذا كان الجبل فى غلظه وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدّع من خوف الله عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم ، وتخشع وتتصدع أفئدتكم من خشية الله ، وأنتم قد أمركم الله تعالى بفهمه وتدبره ؛ فتفكروا أيها الناس ، ولا تضيعوا أهليتكم ، وأنتم المكلفون بفهم هذا القرآن ، والاعتبار بآياته ومواعظه ؛ فإذا تفكرتم وتدبرتم تعلمون يقينًا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا معبود سواه ؛ كما أنه لا خالق سواه ، ولا رب سواه ، بل كل ما سواه من الملائكة والمقربين والأنبياء والصديقين والأولياء كلهم مخلوقون ومربوبون ومحتاجون فى حياتهم ومماتهم وحشرهم ونشرهم إلى الله تعالى الغنى القادر جل جلاله .

فيا أيها الناس حيث إنكم جهلتم معانى كلام ربكم ، ابتليتم بالداء العضال ، بحيث صرتم لا تفرقون بين الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب ، فتعبدون الله وتعبدون المخلوق ، وتدعون الله وتدعون المخلوق ؛ فمثلا تقولون حينما تقومون من مقعدكم يا ألله يارسول الله ، وهذا هو الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله تعالى أبداً ، وذلك أن الله تعالى حىّ قريب مجيب يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات ؛ وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد مات وروحه الشريف فى أعلى عليين ، لا يعلم الغيب ، ولا يسمع النداء ولا الدعاء ، فإذا نداؤه ودعاؤه فى هذه الدنيا هباء ، بل إذا اعتقد القائل بأنه يعلم الغيب أو يسمع النداء ، فقد أشرك بالله العظيم ، لتسويته بين الخالق

والمخلوق ؛ و بعضهم يقول من نهاية جهله وسخافة حمقه ، إنه يحب رسول الله وهذا من محبته ، والحال أنه قد خالفه وعصاه بتسويته برب العالمين الذى لاشريك له ؛ ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما تحصل باتباع سنته ، والصلاة والسلام عليه فى كل حين .

فيا أيها الإنسان الجاهل لو تأملت أدنى تأمل وقلت يا ألله صل على رسول الله أواللهم صل وسلم على رسولك محمد ، أو ما أشبه ذلك ، لكنت آتيا بالصواب ، وداعيًا بالحق .

الآية الثامنة والثلاثون فى سورة الانفطار : (يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) الآيات .

وهذا خطاب تهديد من الله تعالى لكل بنى الإنسان : ماخدعك ، وسوّل لك الباطل حتى أضعت ماوجب عليك من عبادة ربك وطاعته ، ومعرفة أمره ونهيه ، وغرّك إمهالى إياك ، وغرّك الشيطان بإيقاع الأمانى فى قلبك ، وغرتك الدنياوزينتها وغرّك الجاه والنسب ، حتى نسيت ربك الذى خلقك ، وأشركت به فى عبادته ودعائه ، وساويت بينه و بين بعض مخلوقاته ، ولم تتفكر فى نفسك ماذا كنت وماذا تصير ، ولم تتدبر كلام الذى خلقك ووجه إليك وخاطبك وأمرك ونهاك به ، وأنت ساه لاه ، فيا أسفا عليك ياعدو نفسك .

فيا أيها الإنسان إن الله تعالى ربك الحكيم ، قد خلقك على هذه الصورة ، ومع ذلك أنت ما تعرفه وتنكره وتنكر يوم الجزاء ؛ والحال أن عليك ملائكة مراقبين ومحافظين يعلمون كل ما تفعل وتقول ، ويكتبون كل ما يصدر منك ، فيجازيك الله تعالى على ذلك ، فيدخل الله تعالى المؤمنين الموحدين المخلصين الأبرار فى جنات النعيم ، ويجازى الله تعالى الفجّار الكفار المشركين فى نار الجحيم ، ويصليهم على رؤوسهم منكوسين أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، خالدين فيها أبداً ، وهذا إنما يكون فى يوم الدين يوم الجزاء ، وهذا اليوم لايملك أحد لأحد فيه شيئاً ، لاوالد لولد ، ولا عالم لتلميذ ، ولا شيخ لمريد ، بل ولا نبى لأمته إلا بإذن الله تعالى وأمره ،

لأن الأمر كله لله لا شريك له ، وأنت أيها الإنسان الجاهل تغتر بشيخك ، أو بمن تعتقده وليًّا ، وتظن أنه ينفعك أو ينقذك من النار ويدخلك الجنة ، وإنما هذا صادر من نهاية جهلك ، وغاية حماقتك ، ولماذا هكذا لأنك محروم من فهم كلام الله رب العالمين ، مكتفياً بالترهات والخرافات ودجل الدجالين فتنبه .

الآية التاسعة والثلاثون في سورة الانشقاق : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) .

وهذا الخطاب عام لجميع بني الإنسان عربهم وعجمهم ، يخاطبهم الله تعالى منبهاً إياهم ، فيقول : إنك أيها الإنسان ساع إلى ربك سعيًا ، وعامل عملاً ، فستلاقي ما سعيت وعملت من خير وشر . يعني إنا أرشدناك إلى ما فيه سعادتك في الحياة وبعد الممات ، فإن أنت عملت بإرشاداتنا تكن سعيداً فتُعطى كتابك بيمينك ، وتكون من أهل اليمين ، وأما إذا عاندت وعصيت أمرنا أو جهلته ، فأنت الشقي ، فتُعطى كتابك من وراء ظهرك أو شمالك ، فتكون من أهل الشمال ، وتلقى في جهنم سعيراً ، فيا أيها الناس والإنسان إنك المكلف المخاطب بالإيمان والأعمال ، فإن ضيعت أهليتك فأنت أخسّ من الحيوان ، ولا ينفعك أبناؤك وأموالك ومنصبك ، وجاهك التي كنت أنت مغروراً بها ومسروراً ، لأنه قد نسي ربه ، ونسي الرجوع إليه ؛ والحال أنه تعالى بصير به .

الآية الأربعون في سورة الطارق : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) .

وهذا أمر من الله تعالى للإنسان وكل بني آدم أن ينظر نظر العبرة والاعتبار أنه مم خلق ؟ فليعلم أنه خلق من ماء دافق ، أي فوّار خارج بالقوة ، وهو المنيّ والنطفة يخرج من صلب الرجل وصدر المرأة عند فيضان الشهوة منهما ، وهذا الماء هو بذر الإنسان يزرعه الرجل في أرض رحم المرأة ، فيخلق الله تعالى منه هذا الإنسان الذي يتكبر ويتبختر ، ويقول أنا وأنا ، فينسى ربه الذي خلقه ، ويكفر به

و يشرك فى عبادته ، ولايؤمن به ولا بكتابه ولا برسوله ولا باليوم الآخر ، ولا يتفكر أن الذى خلقه من ماء دافق لم يخلقه عبثًا ، بل إنما خلقه ليعرفه و يعبده وحده لاشريك له ، ثم يحييه و يعيده ، فيجازيه على عقيدته وعمله ، إن خيراً فخير ، و إن شرًّا فشر ، و إنما يمهلهم فى الدنيا و يستدرجهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

فاعلم أن هذه الأربعون آية كل واحدة منها موجهة من الله رب العالمين ، إلى كل فرد فرد من أفراد بنى آدم ، لايخرج من هذه الخطابات الصريحة أحد منهم ، سواء كانوا عربًا أوعجما أو من أى جنس كان ، فارسيا أوهنديا، تركيا أوصينيا ، جاويا أوجابانيا ، روميا أو بربريا ، حبشيا أوأمريقيا ، فكلهم مخاطبون بهذه الخطابات ، ومأمورون ومكلفون بهذه الأوامر ، وهم أهل لذلك ، ولو لم يكونوا أهلاً لما خاطبهم الله تعالى ؛ وحيث إنه تعالى خاطبهم وناداهم وأمرهم ونهاهم قد ثبت أنهم أهل لفهم ذلك والعمل به ، ولا يخرج عن هذا الخطاب أحد من البشر ، حيث إنهم بالغون وعاقلون ، فلايخرج أحد أصلا إلا الصبى والمجنون ، وأما العُجمة فلا تكون مسقطة للتكليف ، وتوجه الخطاب وفهمه فتنبه .

وهذه الخطابات الموجهة إلى كافة بنى آدم بلفظ يا وأنتم وكم توجب على كل البشر معرفة كلام ربهم ، ولايعذر أحد بالجهل به ، فهو مسئول عن إضاعته أهليته ولاشك أن كل إنسان أهل لمعرفة ذلك بالتعلم ، وهذا هو الحد الفارق بين الإنسان والحيوانات البهم ؛ فالإنسان من حيث إنه إنسان قابل للفهم، وأهل للعلم والمعرفة ؛ ومن هذا أخذ الله تعالى العهد من ذرية آدم بأجمعهم وقال : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فأجابوا ببلى، و (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) فتفكر وتدبر وتأمل أيها الإنسان هل ينادى الله تعالى و يخاطب ، و يأمر و ينهى من لايفهم الخطاب ؟ كلا ، تعالى الله وتقدس عن العبث ، وعما يقوله الظالمون علوًّا كبيراً ، وعما يعتقده المبطلون تنزهًا وتقديسا ، والله العظيم إن الذين يجهلون كلام ربهم ، ولا يجتهدون فى فهمه ومعرفته ، فهم المحرومون عن فضل ربهم ، والمحرومون من هدايته وتوفيقه

وجنته ورضوانه ، وهم الذين إذا ألقوا فى نار جهنم قال لهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، فيقولون: بلى قدجاءتنا النذر ولـكن ماصدقناهم ولم نعتن بكلامهم ، مع أن هؤلاء المحرومين يتفلسفون فى العلوم الفلسفية تفلسفاً ، ويدققون تدقيقاً ، ويشقون الشعرة مائة شقٍّ ، ويعتنون بالأمور الدنيوية ، والزخارف الفانية اعتناء عظيما ، ولـكن مع ذلك يجهلون كلام ربهم ، وأوامر إلههم ، فهـل يُعذرون بهذا الجهل ؟ كلا ، أبدا لايعذرون قطعاً .

كما روى الإمام البخارى فى كتاب الرقاق من صحيحه ، عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تَرْتَفِعُ الْأَمَانَةُ ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : مَا أَحْذَقَهُ(١) وَمَا أَذْكَاهُ(٢) وَمَا أَعْلَمَهُ(٣) وَلَيْسَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » الحديث .

وفى الدر المنثور عن مصنَّف ابن أبى شيبة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْتَمِعُونَ وَيُصَلُّونَ فِى الْمَسَاجِدِ وَلَيْسَ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ » . وفى حديث آخر مرفوع : « يَأْتِي زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ وَلَا مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ . فيقولون إنَّهم مُسلمُونَ ، وَلَا يَعْرِفُون مِنَ الإسلامِ حَقِيقته ، ويقرءونَ القرآنَ ولا يعرفونَ منْ معانيهِ إلاَّ البعْضَ اليَسيرَ » فكل هذا حجة عليهم .

فيا أخى بعد أن علمت أن هذه الخطابات العامة لكافة بنى البشر ، فهم بأجمعهم مكلفون بفهم ذلك ، والإيمان به ، والعمل بموجبه ، وبذلك قد قامت الحجة عليهم وخصوصاً فى هذه الأزمنة الحاضرة ، منذ ألهم الله تعالى لهم اختراع هـذه الآلات الحديثة « المذياع — الراديون » فهى تبلّغ الأصوات من الشرق إلى الغرب فى حينها فهم بأنفسهم يتلون القرآن بأصوات موسيقية ، ونغمات مصرية لأغراضهم السياسية ، أو للتجارة واكتساب الأموال ، فبهذه يقيمون حجة الله على أنفسهم وهم لايشعرون ،

---

(١) أعقله . (٢) أظرفه . (٣) أجلده .

حتى لا يبقى لهم مجال لأن يقولوا ما جاءنا من رسول ولا نذير ، فسبحان الله الخالق الحكيم ، وإنما كرّر الله تعالى هذه الخطابات العمومية فى مواضع كثيرة من كتابه للتقرير ، كى يقرّر الحجة عليهم ، ويؤكدها تأكيداً ، فتنبه وتدبر ولا تكن من الغافلين المحرومين ، والمفتونين الهالكين .

فصل

وأما الآيات والخطابات والأوامر الموجهة إلى المؤمنين خاصة ، فكثيرة جدًّا لا تخفى على قارئ القرآن ، وإنى أذكرها هنا لزيادة البيان ، وحبًّا لكلام ربنا الرحمٰن ، لأن من أحب شيئاً أكثر ذكره ، وإنى أحب ربى وأحب كلامه ، ثم أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأحب كلامه وأحاديثه أيضاً .

أهل الحديث هم أهل الرسول وإن لم يصحبوا شخصه أنفاسه صحبوا

وهذا هو الواجب على كل مؤمن ومؤمنة ، ثم بعد ذكر الآيات أبين مايتعلق بها من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قولية وفعلية ، وما ثبت عن الصحابة والسلف الصالحين رضى الله تعالى عنهم ، وجعلنا منهم ، وحشرنا فى زمرتهم بفضله ومنّه آمين .

الآية الأولى فى سورة البقرة : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

هذا خطاب قد خاطب الله تعالى به المؤمنين بأن لا يقولوا مثل ما قالت اليهود فى معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سوء الأدب ، بل عليهم أن يراعوا معه الأدب ، ويستمعوا لما يقوله ويلقى إليهم ؛ وأما إساءة الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المخاطبة معه فأثر من آثار الكفر الذى يستحقون به العذاب الأليم ، فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة للمساواة المنافية للآداب ، ولا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة فى القول والعمل يقلّ احترامه له ، وتزول

هيبته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تنعدم ، لأن المدار فى التربية على التأسى والقدوة ، مثلا إن من أراه مثلى لا أراه إماماً وقدوة لى ، فان رضيته بالمواضعة والتقليد وكذّبتنى المعاملة ، فأى قيمة لهذا الرضى ، والعبرة بما فى الواقع ونفس الأمر ، وهو أن من اعتقد أن فلاناً فوقه علماً وكمالاً ، وأنه فى حاجة الاستفادة من علمه وإرشاده وأخلاقه وآدابه ، فإنه لايستطيع أن يسوى نفسه به فى المعاملة القولية والفعلية . ولماذا كان ذلك كذلك ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يتكلم عن الله عز وجل لسعادة من يستمع ويعقل ويأخذ مايؤمر به بالأدب ، ويسأل عما لايفهمه بالأدب ، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقى .

واعلم أن لمن جاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حظا من هذا الأدب ، وليس هو خاصا بمن كان فى عصره صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، فهذا كتاب الله الذى كان يتلوه عليهم ، وكان يجب الاستماع له ، والإنصات لأجل تدبره ، هو الذى يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شئ ، وهو كلام الله الذى به كان الرسول رسولاً تجب طاعته والاهتداء بهديه ؛ فانظر يا أيها المؤمن إلى الذى يقابله الأكثرون به إنهم يلغطون فى مجلس القرآن ، فلا يستمعون ولاينصتون ، ومن أنصت واستمع فإنما ينصت طربا بالصوت ، واستلذاذاً بتوقيع نغمات القارئ ، وإنما يفعلون ذلك فى مجالس الغناء بلا فرق ، ولايلتفتون إلى شئ من معانيه إلا مايرونه مدعاة لسرورهم مع الغفلة عما فيها من العبرة ؛ أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق ، الذى ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها ، وتتوعد على تركه بجعله مجاوراً الكفر الذى يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم .

الآية الثانية فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين عربهم وعجمهم ، وأمرهم بأن يستعينوا على تكميل

الإيمان والثبات عليه بالصبر على جهاد النفس وعلى طعن الأعداء ، وسفاهة السفهاء ، فإن أهل الحق يعاديهم أهل الباطل وأحزابه ، ويؤذونهم فى سبيل الحق والدعوة إلى الدين والتوحيد ، خصوصاً توحيد الألوهية وتوحيد العبادة والمدافعة عنه وعن أنفسهم ؛ فهو سبحانه وتعالى يأمرهم بالصبر على ذلك كله ، والدوام والاستمرار على الجهاد بالسنان واللسان والبنان ، والصبر على ذلك بالتطوع والرغبة ؛ فإنه تعالى وعد وأكد أنه مع الصابرين ، والمشركون يؤذون المؤمنين ويصدون الناس عنهم فى كل عصر وزمان ، فأمرهم الله تعالى أن يستعينوا فى مقاومة ذلك كله وفى سائر مايعرض لهم من المصائب بالصبر والصلاة ؛ أما الصبر فقد ذكر فى القرآن سبعين مرة ، وأمر الله تعالى به الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام ، وهذا يدل على عظم أمره ، وكثرة نتائجه .

وقد جعل الله تعالى التواصى به فى سورة العصر ، مقروناً بالتواصى بالحق ، إذ لابد للداعى إلى الحق منه ، والمراد بالصبر فى هذه الآيات كلها ملكة الثبات ، والاحتمال التى تهوّن على صاحبها كلّ مايلاقيه فى سبيل تأييد الحق ، ونشر الدين والتوحيد ؛ وإنما يظهر الصبر فى ثبات الإنسان على عمل اختيارى يقصد به إثبات حق ، أو إزالة باطل ، أوالدعوة إلى عقيدة ، أوتأييد فضيلة ، أو إيجاد وسيلة إلى عمل عظيم ، لأن أمثال هذه الكليات التى تتعلق بالمصالح العامة ، هى التى تقابل من الناس بالمقاومة والمحادّة التى يعوز فيها الصبر ، ومصارعة الشدائد ؛ فالثابت على العمل فى مثل هذه الحال هو الصابر والصبّار ؛ وليس كل متحمل المكروه من الصابرين الذين أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه منهم ، وبشرهم بالفوز ، وأثنى عليهم ، بل لابد من العمل للحق والثبات فيه ، وعلى ذلك جرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم الرضا والرضوان ، حتى فازوا بعاقبة الصبر المحمودة ، ونصرهم الله تعالى مع قلتهم وضعفهم على جميع الأمم مع قوتها وكثرتها ، وإنما كان ذلك بالصبر فى الله ولله ، والمتحمل المكروه مع السآمة والضجر لايعد صابراً ، وهو شأن منتحلى العلم ومدعى

الصلاح فى هـذه الأزمنة ، تراهم أضعف الناس قلوباً ، وأشدهم اضطراباً ، إذا عرض لهم شيء على غير ما يهوون ؛ فمن لم يستعن على عمله بالصبر لايتم له أمر ، ولا يثبت على عمل ، لاسيما الأعمال العظيمة ، كتربية الأمم ، والانتقال بها من حال إلى حال .

وجه الحاجة إلى الاستعانة بالصبر على تأييد الحق ، والقيام بأعبائه ظاهر جلىّ . وأما الحاجة إلى الاستعانة بالصلاة فوجهها خفى محجوب لايكاد ينكشف إلا للمصلين الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، وهى التوجه إلى الله تعالى ، وحضور القلب معه سبحانه ، واستغراقه فى الشعور بهيبته وجلاله ، وكمال سلطانه ، وهى التى قال الله تعالى فيها : (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) ولأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ؛ وليست هذه الصلاة هى الصورة المعهودة من القيام والركوع والتلاوة باللسان فقط ، والذى نشاهد من المعتادين عليها الإصرار على الفواحش والمنكرات ، وارتكاب الآثام والسيئات ، وأن الله تعالى مع الصابرين ، ولم يقل معكم ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفاً لازماً لهم ، ولكن أكثر من يدعى الإيمان حيث إنه جاهل بمعنى كلام ربه ، فهو محروم من حقيقة الإيمان الصحيح ، والصلاة الصحيحة ، فلهذا صار محروما من نتائج الإيمان والصبر والصلاة ، فتدبر وكن من المؤمنين الصادقين .

الآية الثالثة فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين ، آمراً إياهم بالأكل من الحلال الطيب من رزق الله ، ولايضيقوا على أنفسهم مثل متخذى الأنداد ، بترك الأكل من الطيبات كترك أكل اللحم ، فكلوا واشكروا لله الذى خلق لكم هذه الأشياء ، وسهل عليكم أسبابها ، بأن تتبعوا سننه الحكيمة فى طلب هـذه الطيبات واستخراجها

واستعمالها فيما خلقت لأجله ، و الثناء عليه جل جلاله وعم نواله ، وأن هذه الطيبات من فضله و إحسانه لعباده ، ليس لمن اتخذوه أنداداً له تأثير فيها ولذلك قال : (إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) أي إن كنتم تخصونه بالعبادة ، والاعتقاد بالانفراد بالسلطة والتأثير ؛ فاشكروا له جل جلاله أنه خلق هذه النعم وأباحها لكم ، فلا تجعلوا له أنداداً تطلبون منهم الرزق ، أوترجعون إليهم فى التحليل والتحريم ، أوترجون منهم جلب المنافع أودفع المضار ، و إلا كنتم كافرين بالله ، كالذين من قبلكم جهلوا معنى عبادة الله تعالى ، فاتخذوا بينهم و بينه وسطاء فى طلب الرزق ، ورؤساء يحلون و يحرمون .

ومن الشكر له تعالى استعمال القوى التى غُذيت بتلك الطيبات فى نفع أنفسكم وأمتكم ، وليس من الطيبات ما يأخذه شيوخ الطريقة من مريديهم من النذور ، بل هو من الخبائث والسحت ، ولا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفا بتاريخ الملل والأمم عند ظهور الإسلام وقبله ، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقاً وأصنافاً ، يحرمون على أنفسهم أشياء ، و يعذبون أنفسهم بصوم الدهر ، وقد ورثوا هذه الأشياء عن آبائهم الوثنيين ، الذين يرون أن التقرب إلى الله تعالى محصور فى تعذيب النفس ، وترك حظوظ الجسد ؛ وقد تفضل الله تعالى على هذه الأمة المحمدية بجعلها أمة وسطاً تعطى الجسد حقه ، والروح حقها ، فأحل لنا الطيبات لتتسع نعمه الجسدية علينا . وأمرنا بالشكر عليها ، ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية ، فلم نكن جسمانيا محضاً كالأنعام ، ولا روحانيا خالصاً كالملائكة ؛ فالمؤمنون مكلفون بمعرفة هذه الأشياء ، فإذا لم يعرفوها فقد ضيعوا صفة الإيمان ، وصاروا من المحرومين من فضائل الإيمان ، وفهم كلام الله تعالى « القرآن » .

الآية الرابعة فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

هذا خطاب خاص من الله تعالى موجه إلى المؤمنين ، فمن كان مؤمناً فليعرف خطاب ربه الحكيم العليم ، فإنه تعالى أرشد عباده المؤمنين إلى مافيه صلاحهم وسعادتهم فى حياتهم ومماتهم ، ودنياهم ودينهم ، وقد فرض الله تعالى الحكيم على المسلمين الحدود : من القصاص والرجم والضرب ؛ ولاشك أن القصاص بالعدل والمساواة هو الأصل الذى يربى الأمم والشعوب ، وأن تركه بالمرة يُغرى الأشقياء بالجراءة على سفك الدماء ؛ فقتل القاتل هو الذى يربى الناس فى كل زمان ومكان ويمنعهم من القتل إلا إذا رضى أولياء المقتول ، وعفوا بعاطفة الرحمة ، أو ملاحظة المصلحة بأخذ الدية ، فلا تمنعه الشريعة الإلهية بل ترغبهم إليه .

وقوله تعالى : (الْحُرُّ بِالْحُرِّ) الآية ، مفهوم اللفظ غير مراد على إطلاقه ، لأنه قد جرى العمل من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الآن على قتل الرجل بالمرأة ، ومنطوق الآية أن الحر يقتل بالحر الخ ؛ وأما كون الحر يقتل بالعبد ، والرجل بالمرأة ، فهذا يؤخذ من لفظ القصاص ، وصريح النفس بالنفس ؛ ففى إقامة القصاص الحياة الطيبة ، وصيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض ، وأمرهم بالقتل ليقلّ القتل أو ينتفى ، لأن من علم أنه إذا قتل نفساً يُقتل بها يرتدع عن القتل فتحفظ الحياة ؛ وأما الاكتفاء بالدية ، أو بالحبس والنفى ، فلا يردع كل أحد عن سفك دم خصمه ، فالآية خطاب وأمر للمؤمنين كلهم ، فيجب عليهم أن يستعملوا عقولهم فى فهم خطاب ربهم ، ليعرفوا دقائق الأحكام ، وما فيها من المنفعة للأنام ، فمن ينكر أولا يعمل بإجراء القصاص بعد هذا البيان ، فلاعقل له ولاجَنان ؛ فالحكومات الإسلامية الحاضرة كمصر وسورية والعراق وإيران وأفغان وتركية وغيرها وإن ادعت أنها إسلامية ، ولكنها محرومة من العدل بسبب عدم فهمها معانى القرآن ، فاعتبروا يا أولى الألباب والأبصار .

الآية الخامسة فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين كلهم ، وأعلمهم أنه قد فرض عليهم الصيام ، كما كان مفروضاً على الأمم السابقة ، فأفاد أنه ركن من أركان الدين ، وأنه من أقوى العبادات ، وأعظم ذرائع التهذيب ؛ وفيه إشعار بوحدة الدين فى أصوله ومقصده ، لا تدخل فيه الكيفية والكمية ؛ وإنما فرض الله تعالى الصيام ، لأنه يستعدّ به العبد المؤمن لتقوى الله تعالى ، والله غنىّ عنا وعن عملنا ، وما كتب علينا الصيام إلا لمنفعتنا ، ومعنى (لعلّ) الإعداد والتهيئة ؛ وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى أنه أمر موكول إلى نفس الصائم ، لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى ، وستر بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه ، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته لأجل امتثال أمر ربه مدة شهر كامل فى السنة ، لاجرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ، ملكة المراقبة لله تعالى ، والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه ؛ وفى هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى أكبر معدّ للنفوس ، ومؤهل لها لسعادة الروح فى الآخرة وفى الدنيا أيضاً .

انظر هل يقدم من تُلابس هذه المراقبة قلبَه على غش الناس ومخادعتهم ، هل يسهل عليه أن يراه الله تعالى آكلا لأموال الناس بالباطل ؟ هل يحتال على الله تعالى فى منع الزكاة ، وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه ؟ هل يحتال على أكل الربا ؟ هل يقترف المنكرات ؟ كلا إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل فى المعاصى ، إذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى ، وإذا نسى وألمّ بشىء منها يكون سريع التذكر ، قريب الفىء والرجوع بالتوبة الصحيحة (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) .

وهذا هو روح الصوم وسره يورث هذه المراقبة ، وهذا هو معنى كون العمل لله تعالى ، ويؤيد هذا ماورد من الأحاديث المتفق عليها ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

فيا أيها العبد المؤمن أنت المخاطب بفهم هذه الأشياء والعمل بها ، والتحلى

بتقوى الله تعالى فى سرك وجهرك ، وأما إذا لم تفهمه ، ولم تجتهد فى تفهّمه ، فأنت المحروم من فضل ربك ، كما صرت محروما من فهم كلامه الذى وجهه إليك ، فتنبه وتدبر ولا تكن من المحرومين ، كأكثر من يدعى الإسلام من المسلمين الجغرافيين اليوم .

الآية السادسة فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ، وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين كافة وعامة ، عربهم وعجمهم ، شرقيهم وغربيهم ، آمراً إياهم بأن يدخلوا فى حديقة المسالمة والاتحاد عامة ، ويكونوا عباد الله المؤمنين إخواناً ، وبهذا يرشدنا الله تعالى إلى أن شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد والمسالمة ، ولهذا قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَانَهَى اللهُ عَنْهُ » .

وقد شرف الله تعالى أهل الإيمان بهذا الخطاب . والسلم : المسالمة والانقياد والتسليم ، والسلام والصلح ودين الإسلام ؛ فمعنى الآية : تمسكوا واعملوا بجميع شرائع الإسلام ، فهذا يوجب علينا أن ننظر فى جميع ما جاء به الشارع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل مسألة قولاً وعملاً ؛ وأن نفهم المراد من ذلك كله ، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة ويجعلها حجة على الآخر ، أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل ، أو تعصب للمذاهب ، والله تعالى يرشدنا بهذه الآية أن نكون نحن المسلمين على منهج واحد فى الدين ؛ ونحن نجد فى كلام كثير من علمائنا مثل هذا الكلام والدعوة إلى الاتفاق ، ولكن بسده فشوّ الجهل ، وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى إليها ينتسبون ، وبجاهها يعيشون ويكرمون ، وتأييد الأمراء لهم استعانة بهم على إخضاع العامة ، وقطع طريق الاستقلال العقلى والنفسى على الأمة ، لأن هذا أعون لهم على الاستبداد .

وهذه الآية تنهى على (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) : أى أجزاء ، حيث آمنوا ببعض

وكفروا ببعض (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، وإنكار على الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . أى يعملون ببعضه على أنه دين ويتركون بعضاً بالتأويل أودعوى النسخ ، ولاشك أن الأخذ بالقرآن والدين بجملته واجب على كل مؤمن ، وكذا فهم معناه ، وفهم هدايته فتدبر .

وهذه الآية كآية (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) وكآية (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) ولكن يا أسفا نحن قد خالفنا كل هذه النصوص ، فتفرقنا وتنازعنا ، وشاقّ بعضنا بعضاً بشبهة الدين ، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة ، كل فريق يتعصب لمذهب ، ويعادى سائر إخوانه المسلمين لأجله ، زاعماً أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين . هذا سنّى يقاتل شيعيا ، وهذا شيعى ينازل أباضيا ، وهذا شافعى يغرى التاتار على الحنفية ، وهذا حنفى يقيس الشافعية على الذمية ، وهؤلاء مقلدة الخلف يحاذون من اتبع طريق السلف ، وسببه الانحراف عن الصراط المستقيم بسبب الجهل بمعنى كلام رب العالمين ، اتباعا لخطوات الشيطان الرجيم .

ولهذا قال الله تعالى : (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) أى لاتسيروا سيره ، ولا تتبعوا سبله فى التفرق فى الدين ؛ وسبل الشيطان وخطواته هى كل أمر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة العامة ، ولاشك أن الذين يتبعون سبيل الله لايتفرقون فى الدين . قال الله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) ، وأهل الحق إذا دبّ فيهم تنازع يرجعون حالا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالآيات يفسر بعضها بعضاً ، وطريق الحق هو التوحيد والوحدة والإسلام ، وطرق الشيطان هى مثارات التفرق والخصام ، والشيطان يزين طرقه ؛ فيا أيها المؤمن تفهّم خطاب ربك العليم الحكيم ، واعمل به تكن سالماً من العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة ، وإلا تكن خاسراً من حزب الشيطان الرجيم ، فتنبه .

الآية السابعة فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين من عباده آمراً إياهم بإنفاق الأموال فى سبيل الله ومرضاته ، وإعلاء شرعه وكلماته ، ونشر دينه ، ومصالح عباده المؤمنين ، وتربية الأيتام والعاجزين ، مما رزقهم الله تعالى فى هذه الحياة الدنيا قبل فوات الفرصة ، وألا يغتروا بدجل الدجالين الذين يفتنون الناس بأنهم وأسلافهم يشفعون فى حقهم يوم القيامة ، ويقيسون الله العلى العظيم والغنى الحكيم بالمخلوقين من الأمراء والحكام بأنهم بإرشائهم إياهم يستميلونهم رعاية لمالهم ودولتهم ، فيظن الغرُّ المفتون أن دار الآخرة كذلك ؛ فالله تعالى رب العالمين نبههم بأنه لاينفع يوم القيامة لا الأخلاء ولا المشائخ ولا المال ولا السلطان ، وإنما ينفع العبدَ المؤمن إيمانُه وعمله الصالح الخالص لله عز وجل ، فلاتكفروا نعم الله بالبخل ، وترك الإنفاق فى مرضاة الله ووضعها فى غير موضعها .

والوثنيون كانوا يظنون أن الإنسان يمكن أن ينجو فى الآخرة بفداء يفتدى به أو شفاعة من سلفه الربانيين ، كدأب الأمراء والسلاطين ؛ وقصارى هذا الاعتقاد أن سعادة الآخرة هى كالمعروف للعامة من سعادة الدنيا ؛ فمن كان يطلب فى الآخرة السعادة فعليه أن يعتمد على أحد المقربين عند الله ليشفع له هناك ، وقد رد الله جل جلاله عليهم ردًّا ظاهراً ، وأمر المؤمنين مخاطباً إياهم أن يطلبوا مرضاة الله بإنفاق أموالهم فى سبيل الله فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يكونوا كافرين بأصل الدين ، فإنه لاينفع يوم القيامة بيع ولا خلة ولاشفاعة .

والحاصل أيها العبد المؤمن لا تعتمد على مالك وتجارتك وجاهك وشيخك ، وآبائك وعلمك وفضلك ، فإنه لاينفعك شىء من ذلك ، بل يكون وبالا وحسرة عليك ، وإنما ينفعك إيمانك بالله ، وامتثال أمره خالصاً له ، والكافرون لنعم الله وفهم كلامه ، وامتثال أمره هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وهم لايشعرون .

الآية الثامنة فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ناهياً إياهم عن الأخلاق الذميمة مما يبطل الصدقات والحسنات ، ألا وهو المنّ والمنة والأذى ، نهى المؤمنين خاصا بعد أن رغب إلى الإنفاق فى سبيل الله و إعلاء كلمته ومصالح المسلمين ، لأن الذى ينتفع بما أنفق وتصدق يوم القيامة إنما هو المؤمن بالله واليوم الآخر ، المخلص لله تعالى وحده ؛ ثم مثل الله تعالى الذى يرائى أو يمنّ بالتراب والغبار الذى على الحجر الأملس؛ يظن الرائى له أنه تراب يصلح للزرع ونحوه ، ولكن إذا جاء المطر الشديد أزاله بالكلية ، وترك الحجر صلداً ، فهكذا لايقدر المرائى والمنان على شئ مما كسب يوم القيامة ، حينما يكون أحوج إليه ، لأن الله تعالى لايهدى القوم الكافرين إلى الحق، ولاينوّر بصرهم و بصيرتهم ، لعدم صلاحيتهم للفضل والرحمة .

فيا أيها العبد المؤمن أنت المخاطب بهذه المواعظ والنصائح ، فعليك أن تفهمها وتتعظ بها ، وإلا تكن جاهلا غافلا بل كافراً ، ومن نتيجة هذا الجهل نرى أكثر الناس يراءون فى الأعمال ، ويتظاهرون بالصلاح والدين لأجل الناس والمصالح الدنيوية ، ولذا قلّ النفع والانتفاع فيما بين الأمة فى هذه الحياة الدنيا ؛ وأما فى الآخرة فمعدوم النفع بالكلية ، لأن شرط قبول العمل ونفعه فى الآخرة كونه صادرًا عن الإيمان بالله تعالى ومخلصاً له تعالى ، والمرائى والمنان ليس بمخلص ، والكافر ليس بمؤمن ، (والله لا يهدى القوم الكافرين) لعدم صلاحيتهم ، وخبث طينتهم على مايعلمه الله تعالى ، فنعوذ بالله من الشرك والكفر والرياء وكل ما يحبط العمل ، كما نستعيذ به تعالى من الشيطان وخطواته ووساوسه والشرك والنفاق .

واعلم أن الإنفاق فى سبيل الله من أشق الأمور على النفوس ، لاسيما إذا اتسعت دائرة المنفعة الدينية ؛ وأما الإنفاق لهوى النفس فسهل ، ولذا ترى الإنفاق لنشر علم الدين قليلا ؛ وأما لما يظن فيه المنفعة الدنيوية من الحساب والفلسفة والإنكليزية ، فتجده كثيراً معتنى به كل الاعتناء .

المنّ : هو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ، يظهر به تفضله عليه ، والأذى أعم منه ، ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن إليه ، وهذا ربما يكون أشد عليه مما لو ذكره له ، أو يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه ، وكل واحد من المن والأذى كافٍ وحده لإحباط العمل ، وعدم استحقاق الثواب على الإنفاق؛ وقد خص الله تعالى المؤمنين بهذا الخطاب وأمثاله ، ونهاهم نهياً صريحا أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى ، مبالغة فى التنفير عن هاتين الرذيلتين ؛ وقد مضت سنة الله عز وجل بأن الإيمان هو الذى يهدى قلب صاحبه إلى الإخلاص ، ووضع النفقات فى مواضعها ؛ فالكافر بمقتضى هذه السنة محروم من هذه الهداية التى تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل ، وسعادة الدنيا والآخرة .

الآية التاسعة فيها أيضا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم أن ينفقوا و يتصدّقوا من أطيب أموالهم ؛ كما أمرهم فى الآية السابقة بأن يُنفقوا بخلوص نياتهم ، وحسن طوياتهم ، لنفع عباد الله ، طالباً ثوابه من الله عزّ وجل . والطيب : هو الجيّد المستطاب ، وضدّه الخبيث المنكر ، ولذلك قال فى مقابل هذا الأمر (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) والطيب الحلال ، والخبيث الحرام ، فينبغى أن يُعطى المذكى من أوسط أمواله بل من أعلاها لا من حشفه ورديئه ، ويؤيد هذا قوله تعالى : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وكيف تقصدون إعطاء المال الخبيث والحرام والردىء الدنىء فى سبيل الله ولستم ترضون لأنفسكم أن تأخذوه إلاَّ إذا تساهلتم مع غمض العين ، و إهداء الردىء يُشعر بقلة احترام المهدَى إليه ، ولا شك أن ما يُبذل فى سبيل الله وابتغاء مرضاته هو كالمُعطى له ، فيجب على المؤمن أن يجعله من أجود ماعنده وأحسنه ، ليكون جديراً بالقبول ، فإن الذى يقبل الردىء مغمضاً فيه إنما يقبله لحاجته ، والله تعالى لا يحتاج أصلا ، بل غنى عن ذلك وعن كل الأشياء ولذلك قال : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) ولم يبق بعد هذا الترغيب والترهيب والتسليم الكامل والتأديب الشامل إلا أن يكون المؤمن بهذا الهَدْى أشدّ الناس رغبةً فى الصدقة والإنفاق فى سبيل الله بحسب سعته وحاله ، وأن يكون فى بذله مخلصا متحرّيا مواقع الفائدة ، مبتعداً بعد البذل عما يذهب بثمرته من المنّ والأذى والرياء ، ولكنك تجد كثيراً من اللابسين لباس الإيمان يتقلبون فى النعم وهم أشد الناس لها كفراً ، إذ كانوا أشد الناس إمساكاً وبخلاً ، فاعتبر أيها المؤمن ، وتفهّم خطاب رب العالمين ، ولا تضيّع أهليتك فيما لا فائدة فيه من الأشعار والمدائح والخرافات والترّهات وسفاسف الخيالات فتكون من المحرومين الهالكين .

الآية العاشرة فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ) فقد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم بأن يتقوه ، ثم أمرهم بترك ما بقى من الربا الذى كانوا يرابونه فى الجاهلية و يتحرّزون عنه كل الاحتراز (إن كنتم مؤمنين) أى إن كان إيمانكم كاملا صادقا بجميع ماجاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهى ، فذروا ما بقى من الربا . يؤخذ منه أن من لم يترك مابقى من الربا بعد نهى الله تعالى عنه ، وتوعده عليه لا يُعدّ من أهل الإيمان ، ومن الناس من يؤمن ببعض الكتاب إيماناً يبعث على العمل ، ويكفر ببعض فلا يذعن له

ولا يعمل به فهو يجحده بفعله وإن أقرّ به بلسانه ، ولا يعتدّ الله تعالى بإيمان مثل هذا إلا إذا صدّق قلبه عمل لسانه .

فيا أيها المؤمنون إن لم تتركوا مابقى من الربا كما أمرتم ، فاعلموا واستيقنوا أنكم على حرب من الله ورسوله ، إذ نبذتم ماجاءكم به رسوله بالخروج عن الشريعة وعدم الخضوع للحكم ، وهذا يقتضى أن يكونوا عالمين بذلك ، فهذا إعلام من الله تعالى للمسلمين بأنكم خارجون عن حكم الله ورسوله ، محاربون لها مادمتم تتعاملون بالربا ، فبعد هذه النصوص ألا يجب على المسلمين أن يجتهدوا فى تفهم كلام ربهم ، ولاريب أن العمل بلا علم وفهم لا يكون صحيحاً مستقيما ، ولكن المسلمين فى ظلمات الجهالة منغمسون ، وفى ردغات التقليد متلوثون ، فلهذا تراهم من فهم كلام ربهم محرومين ، وهذه مصيبة عظيمة ابتلى بها المسلمون ، فـ(إنا لله وإنا إليه راجعون) .

الآية الحادية عشرة فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ، وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ، وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا

فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب بهذه الآية العظيمة عباده المؤمنين خاصة أيضاً ، وأمرهم وأرشدهم إلى مافيه صلاح دنياهم ومعاملتهم ، وضبط أموالهم ، وحفظ حقوقهم ، وتوثيق ذلك بكاتب عدل ، وشهادة شاهدين ؛ فانظر إلى هذا الإرشاد الإلهى ، وتفهم معانيه ، ولاحظ منافعه وفوائده ، فإنه يرقيك إلى المدينة العليا ، والإنسانية العظمى ، وقد أمر الله تعالى بكتابة الدَّين والإشهاد عليه ، وأخذ الرهن إذا لم يتيسر الاستيثاق بالكتابة والإشهاد ، وذلك أن من يضيع ماله بإهمال المحافظة عليه لا يكون محموداً عند الناس ولا مأجوراً عند الله ، لأن المال وقاية للحياة والعرض ، وإنما اللازم اكتسابه من طرق الحل ، وإنفاقه فى سبيل الخير والبر ، قال الله العزيز الحكيم : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) أى تقوم وتثبت بها منافعكم ومصالحكم ؛ والدَّين الذى أمر الله بكتابته عام يشمل القرض والسلَم ، وبيع الأعيان إلى أجل ، وحيث إن الله تعالى أمر المتداينين بالكتابة ، فهذا يستلزم عليهما تعلّم الكتابة وإتقانها ، لأن ما يتوقف عليه الشىء الضرورى ضرورى .

وقد أرشد الله تعالى إلى أن يكون بين المتعاملين كاتب يكتب بالعدل بلا ميل ولاحيف ، والعدل فى الكاتب يستلزم كون الكاتب عالما بالحقوق والشروط ، فالعدل يهدى الكاتب إلى العلم ، وأما العلم فلا يهديه إلى العدل ، فلهذا لا يقع الفساد من العدل ، وإنما يقع الفساد من العلماء الفاقدين لصفة العدالة كما لا يخفى .

وبهذا قد أرشد الله تعالى الأمة الأمية إلى نظام المدنية العليا ، لحفظ الحقوق والأحكام فيها حتى لا يقع التنازع ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله عز وجل : (وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ) أى لا تملوا ولا تضجروا

أو لا تكسلوا من كتابة الدَّين والحق سواء كان قليلاً أو كثيراً ، فهذا دليل ظاهر على أن الكتابة يعمل بها ، وأنها من الأدلة التي تعتبر عند استيفاء شروطها ، ودليل أيضاً على أن الكتابة واجبة في القليل والكثير ؛ ففي الآية إرشاد إلى عدم التهاون بشيء من الحقوق أن يذهب سدى ، وهي قاعدة عظيمة من قواعد الاقتصاد ، والعمل بها آية الكياسة والعقل (ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) الآية ؛ الخطاب المؤمنين ، والإشارة في «ذلكم» إلى جميع ما ذكر من الأحكام لا لواحد منها (وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَنْ لَا تَرْتَابُوا) وأقرب إلى انتفاء ارتياب بعضكم ببعض ، فإن هذا الاحتياط في كتابة الحقوق والإشهاد عليها ، وتقوى الله ، والعدل من المتعاملين ، والكتاب والشهداء ، يمنع كل ريبة ، وكل ما يترتب على الارتياب من المفاسد والعداوات والمخاصمات .

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا) أي نقداً بنقد ، ويداً بيد ، بأن يأخذ المشتري المبيع والبائع الثمن فلا حرج في ترك كتابتها ولا إثم ، ففي نفي الجناح إشارة إلى أن كتابة ذلك أولى وأضبط ، فهو إرشاد إلى استحباب ضبط الإنسان لماله وإحصائه ، لما يرد عليه وما يصدر عنه ، وذلك من الكمال المدني ، ومن أسباب ارتقاء أمور الكسب والتجارة ، ولم يجعل الله تعالى هذا حتماً لأنه مما يشق على غير المرتقين في المدنية ، والترخيص فيه دليل على وجوب كتابة الديون المؤجلة فتنبه .

ثم ختم الله تعالى بالموعظة التي تعين النفس على الامتثال في جميع الأعمال فقال : (وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أي اتقوا الله في جميع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، وهو تعالى يعلِّمكم ما فيه قيام مصالحكم ، وحفظ أموالكم ، وتقوية رابطتكم ، وهو سبحانه العليم بكل شيء ، فإذا شرع شيئاً فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد ، وجلب المصالح لمن اتبع شرعه ؛ وكرر الله لفظ الجلالة لكمال التذكير ، وقوة التأثير .

حيث أن الله تعالى خاطب المؤمنين آمرًا إياهم بكتابة الدين وحفظ الحقوق ، يجب على كل مؤمن عاقل بالغ معرفة هذا الخطاب والعمل بمقتضاه ، وليس فيه حرج أصلاً ، لأن الإنسان قابل للتعلم والتفهم ، وإن كان يُرى في بادئ الرأى حرجاً وصعباً ، ولكن في الحقيقة هو عين السهولة والسفه واليسر ؛ فالتعلل بالحرج باطل ؛ كما أن التعلل بالحرج في تحريم أنواع الشرك والمعاصي واجتنابها باطل ؛ فكما أنه لايجوز أن يكون أحد من البشر مشركا بنوع مّا من أنواع الشرك ، كذلك لا يجوز أن يفرط في شئ من الحقوق ، فالحق المحتم عليك أيها الإنسان أن لاتضيع أصليتك لفهم خطاب ربك الذى هو أرحم لك من نفسك ومن والديك ، وألا تكون محرومًا كالمحرومين من المشركين والمجوس وعبدة الأوثان وسدنة القبور وعبادها فتكون من أهل الخسران

ولكن الأسف كل الأسف أن المسلمين محروم أكثرهم من هذه المزية الإنسانية ، والكمالات المدنية ، فإن أكثرهم لايعرفون القراءة ولا الكتابة ، وخصوصاً أهل البدو وأهل القرى ، حتى إن من علمائهم من لا يعرف الكتابة ، فلهذا قد ضاعت الحقوق فيما بينهم ، وكثر التخاصم والدعاوى ، فشاع الظلم والعدوان ؛ وأكثر هؤلاء إنما يقرءون القرآن للتعيش في المحافل والمآتم ، ولايعرفون من معانيه شيئاً ، فصار أكثرهم كمثل الحمار يحمل أسفارًا ، فداستهم الطائفة التي أتقنت هذه الأمور ، وعملت بما يتعلق بإصلاح شئون الحياة البشرية ، كالانكليز والأمريكان والروس والفرنسويين ؛ والقرآن الكريم وإن كنا نحن مؤمنين بأنه كلام الله تعالى ونحفظه ونتلوه ونختمه ، ولكن عن فهم معانيه جاهلون ؛ فهو حجة علينا ونحن غافلون ؛ فيا أيها المسلم انتبه من غفلتك ، واستعمل عقلك ، وتدبر وتفهم كلام ربك لتكون عبدا لله مخلصا ، فيكفيك كل حاجاتك دنيا وأخرى ، وينصرك على أعدائك نصرًا مبيناً ، (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ — إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ) .

الآية الثانية عشرة في سورة آل عمران : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا

فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين ، محذرا إياهم عن فتن أهل الكتاب ودسائسهم وكذا سائر الكفار ، لأن مقصود الكفار إنما هو إدخالكم فى الكفر كأنفسهم كما قال الله تعالى : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) .

وقد علم بلا شك أن أهل الكتاب قد سلكوا سبل التأويل فى الكتاب فحرفوه وانصرفوا عن هدايته إلى تقاليد وضعوها لأنفسهم ، فإذا أطعتموهم وسلكتم مسالكهم فإنكم تكفرون بعد إيمانكم .

والحاصل أن طاعة أهل الكفر أىّ كافر كان يردكم آخراً إلى الكفر ، فالسلامة فى عدم إطاعتهم ؛ فيجب على العبد المؤمن أن لا يطيع كافراً ، ولا يسكن معه ، لأنه إنما يقصد إخراج المؤمن عن إيمانه ، ولهذا ترى الذين أطاعوا الكفار وانخدعوا بعطاياهم ، قد انسلخوا من الإيمان كليًّا وجزئيا بإدخالهم فى الدين المحمدى ماليس منه كالرهبانية ، والطريقة المحدثة ، والمذاهب المخترعة ، والانحناء عند اللقاء ، واعتقاد تصرف الأرواح ، وأنها تعلم الغيب فتعين من تحبه من مخلصيه ، وتضر من تبغضه ، فكل هذا نتيجة جهلهم بمعانى أوامر الله عز وجل ، واختلاطهم بفريق من أهل الكتاب والمشركين من عبدة القبور والأرواح ، وسدنة اللات والعزى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الآية الثالثة عشرة فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين وناداهم آمرًا إياهم بأن يتقوه حق تقواه ،

اى بالغوا فى التقوى حتى لاتتركوا من المستطاع منها شيئاً (وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) أى استمروا على الاسلام ، وحافظوا على أعماله حتى الموت ، لأن المرء يموت غالباً على ما عاش عليه ، فإذا عاش على اليقين والتقوى حق التقوى والاحتراس مما ينافى الإسلام مات على ذلك بفضل الله الذى أجرى هذا من سنته (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) .

وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » .

ثم بين الله تعالى لنا مابه يتحقق ذلك الأمر والنهى فقال : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا) حبل الله هو القرآن كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن كان معتصماً به كان آخذاً بالإسلام ، وإنما الاجتماع فى نفس الاعتصام ، فهو يوجب علينا أن نجعل اجتماعنا ووحدتنا بكتابه ؛ إليه نجتمع ، وبه نتحد ، لابجنسيات نتعبها ، ولا بمذاهب نبتدعها ، ولا بمواضعات نضعها ، ولا بسياسات نخترعها . ثم نهانا عن التفرق والانفصام ، بعد هذا الاجتماع والاعتصام ، لما فى التفرق من زوال الوحدة ، التى هى معقد العزة والقوة ، وبالعزة يعتز الحق ، فيعلو فى العالمين ، وبالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات الواثبين ، وكيد الكائدين . وهذا كقوله تعالى : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

فمن هذه السبل المتفرقة إحداث المذاهب والشيع فى الدين ، ومنها عصبية الجنسية الجاهلية ، وقد اعتصم أهل أوروبا فى هذا العصر بالعصبية الجنسية ، كما كانت العرب فى الجاهلية ، فسرى سمّ ذلك إلى كثير من متفرنجة المسلمين ، فحاول بعضهم أن يجعلوا فى المسلمين جنسيات وطنية ، مخادعين للناس بأنهم بذلك ينهضون بالوطن ويعلون شأنه ، كالأتراك الكماليين ، فبذلك انخلعوا عن الدين وهم لايشعرون ؛ فيا أيها المسلمون أما تفيقون من سكرتكم ، وأما تنتبهون من غفلتكم ، فترجعون إلى كتاب ربكم ، وتتعلمون أمر مولاكم ، فتعتصمون بحبله المتين ، وتنالون العز والسعادة فى الدنيا والدين والآخرة ؟ وإلا فياحسرة عليكم

فى الدارين ، وتكونون ألعوبة فى أيدى المستعمرين من شياطين البلاشفة والإنكليز والأمريكان ؛ ولا تغتروا أيها الإخوان المؤمنون بترهات المشايخ الدجالين وأرباب المذاهب الخوانين ، فإنها لا تسمن ولا تغنى من شىء ، وإنما هى عين الضلال والخسران فتنبه .

الآية الرابعة عشرة فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) .

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم بهذه الآية ، فنهاهم عن اتخاذهم الأحباب والأصدقاء والوزراء وأهل الشورى من غير المؤمنين ، من المشركين والوثنيين وأهل الكتاب والملحدين والزنادقة ، وعبدة الأرواح والقبور (لا يألونكم خبالاً) أى لا يوقعونكم فى الفساد ، أو يقصرون فى مصالحكم (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ) فى الحقيقة هم بمقتضى طبيعتهم ، يودون عنتكم ومشقتكم الشديدة ، ووقوعكم فى الضيق والضنك ، فبذلك يصلون إلى مقاصدهم (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ) وظهرت من كلماتهم الصادرة (من أفواههم وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ) من الحسد والعداوة وسوء القصد (أَكْبَرُ) وأشد ، فإنهم يتربصون بكم الدوائر ، وهذا قطعى لاشك فيه .

فحاصل المعنى أن الله تعالى نهى المؤمنين أن يتخذوا لأنفسهم بطانة وصاحب سرّ ومشورة من الكافرين ، لأنهم لا يألونهم ما استطاعوا خبالا و إفساداً لأمرهم إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، ولأنهم يتمنون عنتكم ووقوعكم فى الشدة والضرر الشديد والمشقة والضيق ، فبذلك يحصلون مرادهم ؛ وقد أقام الله تعالى العلامات الفارقة بين من يصلح أن يتخذ بطانة ، ومن لا يصلح أن يتخذ لخيانته ، وسوء عاقبة مباطنيته ، فاعتبروا إن كنتم تعقلون ، فالذى يصلح للبطانة صاحب عقل ودين وحزم وحذق ، ودراية وتجربة ؛ وأما الذى لا يصلح فأجنبى دخيل لا يتصل بصاحب الملك فى جنس ولا دين ، فمثله كمثل أجير فى بناء بيت لا يهمه إلا استيفاء أجرته إذا صدق فى العمل ،

فهو إذا فقد العيش فارقها وارتد إلى منبته الذى ينتسب إليه ، وهذا بمقتضى الطبيعة إذا خلا عن أغراض أخر .

ومن تتبع التواريخ التى تحكي لنا عن سنة الله فى خلقه ، وتصريفه لشئون عباده ، رأى أن الدول فى نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم ، وما كان شىء من أعمالها بيد أجنبي عنها ، وأن تلك الدول ما انخفض مكانها ، ولا سقطت فى هوّة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها ، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية فى أعمالها ، فإن ذلك كان فى كل دولة آية الخراب والدمار . انظر إلى سقوط الدولة الأموية ، ثم سقوط الدولة العباسية ، ثم سقوط الدولة التركية العثمانية .

ولهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق من المسلمين ، حيث سلموا أمورهم ، ووكلوا أعمالهم للأجانب عنهم ، بل زادوا فى موالاة الغرباء والثقة بهم ، وغفلوا أنهم إذا اؤتمنوا خانوا ، و إذا عززوا أهانوا ، يقابلون الإحسان بالإساءة آخراً ، والركون إليهم بالجفوة والثقة بهم بالخدعة ؛ أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا بأحكام الله التى لا تنقضُ ، ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسهم ووجدانهم ، ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدهم كتاب الله ، و يتنورون بنوره ؛ ألم تنبههم الحوادث ؟ فيا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم ؟ قد علمتم شأنهم مكارون غدارون ، وعليكم أيها المسلمون أن تعلموا أولادكم معانى كتاب ربكم ، فيفهموه ويعملوا به ، فى كل ما أرشد فى الدين والدنيا والتجارة والسياسة والصنعة والهندسة ، حتى يفوزوا بسعادة الدنيا ، ويعيشوا أحراراً كراماً إلى أن يفوزوا بسعادة الآخرة أيضاً ، ولا شك أن كلا من سعادة الدنيا والآخرة لا تحصل بالأمانى بلا عمل ، فعليكم بالعمل بالجد والاجتهاد .

الآية الخامسة عشرة فيها أيضاً : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا

obeikandi.com

مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

فيا أيها الإنسان المتصف بصفة الإيمان أعمل عقلك ، وافهم كلام ربك ، فلا تعامل بالربا ، ولا تأكله أضعافاً مضاعفة بمرور الأشهر والسنين ، ولا تظلم أخاك بأخذ ماله بغير حق ، لأن دين الإسلام مبنى على تهذيب النفوس ، و إصلاح حال المجتمع ، لاتوفير ثروة بعض الأفراد من أهل الأثرة ، والإسلام دين الإنسانية ، لادين القسوة والبخل واستغلال ضرورة المحتاج .

فيا أيها المؤمنون اتقوا الله فى أهل الحاجة والبؤس ، فلا تحملوهم من الدين ما يخرب بيوتهم (لعلكم تفلحون) فى دنيا كم بالتراحم والتعاون فتحابون ، والمحبة أس السعادة ؛ وأما الكافرون الذين قست قلوبهم ، واستحوذ عليهم الطمع والبخل فأعد الله تعالى لتعذيبهم نار جهنم (١) .

فأنتم أيها المؤمنون لاتكونوا مثلهم ، بل اتقوا الأعمال التى تصير سبباً لدخول فاعلها نار جهنم (وأطيعوا الله والرسول) فيما نهيا عنه من أكل الربا (لعلكم ترحمون) فى الدنيا بما تفيدكم الطاعة من صلاح مجتمعكم ، وفى الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم ، فإن الراحمين يرحمهم الرحمن جل جلاله .

الآية السادسة عشرة فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إياهم أنهم إذا أطاعوا الكفرة رغبة فيما عندهم من المال والمنال يردونهم عن دينهم ، و يهدمون إيمانهم ، وهم لايشعرون ، فينقلبون خاسرين ، كما هو شأن الكفار مع المسلمين فى كل زمان ومكان ، من وقعة أحد إلى الآن ، و إلى يوم الدين . يعنى إذا أطعتم الكفار ،

---

(١) جهنم البلاشفة فى الدنيا كما ابتلى بها أهل روسيا وبخارى . وأما فى الآخرة فنار جهنم الدائمة ، أعاذنا الله تعالى منها .

وطلبتم منهم الأمان ، وكانت حالكم معهم كحال المغلوب مع الغالب يتولون عليكم حتى يردوكم عن دينكم استدراجا ، فتنقلبوا خاسرين للدنيا والآخرة ، كما صارت حال أمير فرغانة « خُدايا رخان » ، وأمير بخارى وخوارزم عبد الأحد خان ، وعالم خان واسفنديارخان ، وكما نشاهد اليوم أن كثيراً ممن يدعى الإسلام ، يطيع الكفار ويميل إليهم ويخدعهم لما عندهم من المال ، فينخلعون عن الدين باسم المدنية ، ويسلّمون أولادهم إلى مدارسهم ، فهم يعلمونهم اللادينية والدهرية وهم لا يشعرون ، وإنما يكتفون بالاسم الخالى عن المسمى ، فيهدمون الدين هدما ، كما هو مشاهد فى أكثر البلدان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ، ناهياً إياهم أن لا يكونوا كالكافرين فى الاعتقاد الفاسد ، والإفساد بين العباد ؛ والكافرون يقولون : لو لم يسافر فلان لم يمت ، ولكن سافروا للتجارة أو للكسب أو للغزو فماتوا أو قتلوا ، وقد قرن الله تعالى هذا القول بالكفر للإشعار بأن مثله لا ينبغى أن يصدر عن مؤمن ، لأنه إنما يصدر عن الكافرين ؛ وقولهم هذا باطل عقلا ودينا ؛ أما عقلا فإن هذا القول مخالف للمعقول ، مصادم للوجود ، فان من مات أو قتل فقد انتهى أمره ، وصار قول : لو كان كذا عبثاً ، لأن الواقع لا يرتفع ، والحسرة على الفائت لا تفيد ؛ ومن شأن المؤمن أن يكون صحيح العقل ، سليم الفطرة ، ولذلك قد وجه الله تعالى الخطاب إلى العقلاء ، و بين أن أولى الألباب هم يعقلونه و يتذكرون به ، و يقبلون هدايته .

وقال الله تعالى فيمن لا إيمان لهم : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

وأما ديناً فهذا القول يدل على جهل قائله بالدين أو جحوده ، فإن الدين يرشد إلى تحديد الآجال ، وكونها بإذن الله تعالى كما لا يخفى (وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) ، أي والحقيقة أن الله تعالى يحيي من يشاء بمقتضى سننه في بقاء أسباب الحياة وإن طوى بالأسفار بساط كل بر ، ونشر شراع كل بحر ، وخاض معامع الحرب ، وصارع الأهوال والخطوب ؛ ويميت من يشاء بمقتضى سننه في أسباب الموت ، وإن اعتصم في الحصون المشيدة ، وحُرِس بالجنود المجندة (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ، فلا يخفى عليه ما تكنّون في أنفسكم من الاعتقاد ، وما يؤثر في قلوبكم من الأقوال والأحوال ، فاحرصوا على أن يكون تركُكم لأقوال الكفار ناشئاً عن طهارة نفوسكم من وساوسهم .

فيا أيها المؤمنون اجتهدوا في سبيل فهم كلام ربكم الحكيم ، ولا تضيعوا عمركم وحياتكم في القيل والقال من مقالات أصحاب الجحيم .

الآية الثامنة عشرة فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم آمراً إياهم بالصبر والدوام على امتثال الأوامر ، والانتهاء عن المناهي مع تحمل ما يلحق من الأذى ، والمصابرة في مقابلة الأعداء الذين يقاومونهم ليغلبوا على أمرهم ، ورابطوا الخيل كما يرتبطونها ، استعداداً للجهاد بحسب كل وقت وزمان ، واتقوا الله أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ؛ يكثر الله تعالى من هذه الوصية ، ومع ذلك نرى المسلمين قد انصرفوا عنها البتة حتى صار التقيّ عند الناس هو الأهبل الذي لا يعقل مصلحته ولا مصلحة الناس ، والأبله الذي هو أجهل من حمار توما ؛ ولا شيء أشأم من فهم التقوى بهذا المعنى ؛ والتقوى أن تقي

نفسك من الله ، أى من غضبه وسخطه وعقوبته ، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ، ومعرفة مايرضيه وما يسخطه ، ولايعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى ، وعرف سنة نبيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة السلف الصالحين ، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله ، فمن صبر وصابر ورابط لأجل حماية الحق وأهله ، ونشر دعوته واتقى ربه فى سائر شؤونه ، فقد أعد نفسه بذلك للفلاح ، والفوز بالسعادة عند الله تعالى ، وإرادة الفلاح الدنيوى من هذه الآية ظاهرة ، فإن الصبر ومصابرة الأعداء والمرابطة والتقوى كلها من أسباب الفوز على الأعداء فى الدنيا ، كما أنها مع حسن النية ، وقصد إقامة الحق والعدل الذى هو شأن المؤمن من أسباب سعادة الآخرة ، وهذه الأعمال كلها اختيارية داخلة فى مقدور الإنسان ، ولذلك أمر الله تعالى بها المؤمنين ، فعمله إذاً هو سبب فلاحه ؛ فعليكم أيها المؤمنون سواء كنتم عرباً أو عجماً ، شرقيين أو غربيين أن تفهموا أوامر ربكم فامتثلوها لعلكم تفلحون .

وأما الذى يجهل هذه الأوامر ، ويقتصر على صور بعض العبادات ، ويقيم فى التكايا والزوايا فهو لايفلح أبداً ، ولاينال الخلافة أصلا ، بل ينخمل فى زوايا الحرمان خمولا كما هو المشاهد ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

الآية التاسعة عشرة فى سورة النساء : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) .

قد نادى الله تعالى المؤمنين ، وخاطبهم بهذه الآية عامة من غير فرق بين عالم وجاهل ، وعربى وعجمى ، ناهياً إياهم عن العادات الجاهلية ، والمعاملات الحيوانية ، فقال (لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا) أى لايحل لكم أيها المؤمنون بالله وبما أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن تستمروا على سنة الجاهلية فى هضم حقوق النساء ، فتجعلوهن ميراثاً لكم كالأموال والعروض والعبيد ، وتتصرفوا فيهن كيف

تشاءون ، فإن شاء أحدكم تزوّج امرأة من مات من أقاربه تزوج ، وإن شاء زوّجها غيره ، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج ، وهذا هو العضل ، والعضل التضييق والتشديد : أي لا يحل لكم إرث النساء ولا عضلهن ، (لأجل أن تَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) من ميراث أو صداق أو غير ذلك .

والخطاب لجميع المؤمنين لتكافلهم ، فيصدق بما أعطوه للنساء من ميراث ومهر زواج وغير ذلك (إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) أي ظاهرة معلومة كالزنا والنشوز وسوء الخلق الفاحش ، فإذا أتين بالفاحشة المبينة دون الظنة والشبهة ، وكذا إذا نشزن عن طاعتكم بالمعروف المشروع ، ولم ينفع معهن التأديب ، وساءت عشرتهن ، فلكم حينئذ أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) أي يجب عليكم أيها المؤمنون أن تحسنوا عشرة نسائكم ، وهن يعاشرنكم كذلك ، فيا أيها المؤمن أنت المخاطب بهذه الأوامر ، وأنت الملزوم بالعمل بهذه الفضائل ، ومكارم الأخلاق ؛ فعليك السعي للتعلم حتى تفهم أوامر ربك ، فترتقي من حيز الحيوانية إلى أعلى درجات الإنسانية ، فتعيش سعيداً ، وتصير عائلتك سعيدة ، ويصير أولادك سعداء .

الآية العشرون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) .

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم مخصصاً إياهم بالنهي عن أكل أموال إخوانهم المؤمنين بالباطل : أي لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق ؛ وإنما أضاف الأموال للجميع للتنبيه على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها ، كأنه تعالى يقول : إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم ؛ فإذا استباح أحدكم أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أكل ماله وهضم حقوقه ، لأن المرء كما يدين يدان ؛ فيجب على صاحب المال الحائز له بذله أو البذل منه للمحتاج ؛ فكما لا يجوز

للمحتاج أن يأخذ شيئاً من مال غيره بالباطل ، كالسرقة والغصب والنهب والغدر والغش ، لايجوز لصاحب المال أن يبخل عليه بما يحتاج إليه .

والإسلام لم يبح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدى أصحاب الأموال بدون إذنهم و بدون رضاهم ، لأن فى ذلك مفسدة عظيمة ، واتكال الكسالى على كسب غيرهم ؛ ففيه فساد نظام الاجتماع ، وانحطاط البشر، فيؤدى إلى الفوضى فى الأموال، والضعف والتوانى فى الأعمال ، والفساد فى الأخلاق والآداب ، كما لايخفى على أولى الألباب ؛ فوجب أن لا يأخذ أحد مال أحد إلا بحق ، أو يبذل صاحب المال ماشاء عن كرم وفضل ؛ فمتى يعود المسلمون إلى دينهم ، ويكونون حجة له على جميع الملل ، كما كان سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضى الله عنهم ، فيقيموا المدنية الصحيحة فى هذا العصر ، كما أقامها أولئك الأبرار فى عصورهم .

ويدخل فى الباطل : الغصب والسرقة والغش والخداع والربا والغبن والتغرير ونحوها (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) أى لاتقصدوا إلى أكل أموال الناس بالباطل ؛ ولكن اقصدوا أن تربحوا بالتجارة التى تكون صادرة عن التراضى منكم ؛ وتخصيص التجارة بالذكر دون سائر أسباب الملك لكونها أكثر وقوعاً ، وأوفق لذوى المروءات (ولا تقتلوا أنفسكم) ظاهر الآية أن النهى إنما هو عن قتل الإنسان لنفسه وهو الانتحار ، والمتبادر من الأسلوب أن المراد لايقتل بعضكم بعضاً وهو الأقوى ، واختير هذا التعبير للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها ، فلاتقتلوا أنفسكم حقيقة بالانتحار ، ولا مجازاً بقتل بعضكم لبعض ؛ فيرشدنا الله تعالى إلى أنه يجب علينا أن نحترم نفوس الناس بجعلها كنفوسنا ؛ فاحترامنا لنفوسنا يجب أن يكون أولى ، فلايباح بحال من الأحوال أن يقتل أحد نفسه كأن يبخعها ليستريح من الغم وشقاء الحياة ، فمهما اشتدت المصائب على المؤمن فإنه يصبر ويحتسب ، ولاينقطع رجاؤه من الفرج الإلهى ، ولذا نرى بخع النفس والانتحار يكثر فيما بين الكفار حيث يقلّ الإيمان ، ويفشو الكفر والإلحاد .

ومن فوائد الإيمان مدافعة المصائب والأكدار ؛ فالمؤمن لايتألم من بؤس الحياة كما يتألم الكافر (إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) لأن فيما نهاكم عنه حفظ دمائكم وأموالكم التي هي قوام مصالحكم ومنافعكم ؛ فيجب أن تتراحموا فيما بينكم ، ويكون كل منكم عوناً للآخرين على حفظ النفس ، ومدافعة رزايا الدهر ومن يرتكب تلك المنهيات عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً .

ولا يشك ذو عقل وإيمان وله خبرة بمعاني كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من جملة أكل أموال الناس بالباطل مايأخذه مشايخ الطرق من مريديهم ، ومايأخذه سدنة القبور من زائريها وناذريها ، ومايأخذه ويأكله أصحاب التكايا والزوايا أصحاب البطالة والكسالى ، ومايأخذه قراء القرآن لأجل قراءتهم بشرط إهداء ثواب القراءة لمن يريد المستأجر ، كما هو مبين مشروح في كتب العلماء الأعلام .

الآية الحادية والعشرون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَاتَقُولُونَ ، وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْلاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) .

قد خاطب الله تعالى عباده المؤمنين عرباً كانوا أوعجماً ، ناهياً إياهم عن قربان الصلاة وهم سكارى لايعلمون مايقولون ، وهذا التعليل للنهي يفيد أن العلم بما يقوله الإنسان في الصلاة من تلاوة وذكر واجب أوشرط ، والعلم فهمه ؛ وهذا يدل على وجوب معرفة اللغة العربية على كل مسلم لفهم مايقول في الصلاة .

فتنبه أيها المسلم وتدبر أيها المؤمن هل لك نصيب من فهم كلام ربك الحكيم ، فإن كنت ذانصيب فاحمد ربك ، واستزد من ذلك . وأما إذا لم يكن لك نصيب منه فأنت من المحرومين ، فتب إلى الله توبة صحيحة ، واجتهد في تعلم كلام ربك

وفهمه بغاية جهدك ، عسى الله تعالى أن يرزقك علماً نافعاً ، وفهماً مستقيما ، وأما إذا لم تتب ، وأصررت على ما أنت عليه من الجهل ، فأنت من الخاسرين فى الدارين ، ولا ينفعك ماتعلمت من الفلسفة ، أو ماضيعت فيه عمرك من دواوين الأشعار ، كما كثر البخاريين الذين ضيعوا أعمارهم فى ديوان ميرزابيدل ، الذى يقرر فى ديوانه أن أصل الإنسان كان قرداً ، وأن اللحية للرجال ليس لها شيء غير التشويش ؛ فلهذا ترى وتشاهد أكثرهم فى أول حزب الشيوعية دخولا ، حينما أعلنت الروسيا الشيوعية ، لأن لهم قابلية تامة لقبولها ، كما لايخفى على الخبير ؛ وأما باقى مسائل الجنابة والاغتسال منها ، والتيمم فى حال المرض والسفر ، وعند عدم وجود الماء وكيفيته ، فمعلومة ومبينة فى كتب الفروع .

الآية الثانية والعشرون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) .

قد نادى الله تعالى عباده المؤمنين وخاطبهم عموماً ، آمراً إياهم بأن يطيعوا الله تعالى ، والطاعة هى العمل بكتابه العزيز ، ويطيعوا الرسول ، وهى العمل بسنته ، لأنه هو الذى يبين للناس ما أنزل الله تعالى إلى الناس من الكتاب ، وقد أعاد الله تعالى لفظ الطاعة لتأكيد طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن دين الإسلام دين توحيد محض ، لايجعل لغير الله أمراً ولا نهياً ولا تشريعاً ولا تأثيراً ، والرسول صلى الله عليه وسلم إنما يبين ماشرعه الله تعالى لنا من الدين والشرع .

مثال ذلك أن الله تعالى هو الذى شرع لنا عبادة الصلاة وأمرنا بها ، ولكنه لم يبين لنا فى الكتاب كيفيتها ، وعدد ركعاتها ولا ركوعها وسجودها ، ولا تحديد أوقاتها ، فبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره تعالى إياه بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » .

واعلم أن أهل الجاهلية وأهل الكتاب كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت ،

فينتهما كمون إلى الكهان والأحبار ، ويجعلونهم شارعا ، وطواغيتهم رؤساؤهم الذين يحكمون فيهم بأهوائهم ، وكانوا يقولون إن هؤلاء الرؤساء أعلم منا بالتوراة و بمصلحتنا؛ فالله تعالى قد بيّن لنا حالهم ، وقرنه ببيان مايجب أن نسير عليه فى الدين والشريعة والأحكام ، حتى لانضل كما ضل المشركون وأهل الكتاب الذين اتخذوا أفراداً منهم أرباباً إذ جعلوهم شارعين فقال الله تعالى : (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) .

وقد اختلف المفسرون فى أولى الأمر ، فمنهم من قال هم الأمراء من المسلمين بشرط أن لايأمروا بمعصية ومحرّم ، ومنهم من قال هم العلماء ، لأن العلماء هم الذين يمكنهم أن يستنبطوا الأحكام غير المنصوصة من الأحكام المنصوصة ، ومنهم من قال هم الذين يناط بهم النظر فى أمر إصلاح الناس ومصالحهم . والأقرب إلى الصواب أن أولى الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين وهم العلماء والأمراء والحكام ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة ، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه ، بشرط أن يكونوا منا ، وأن لايخالفوا أمر الله ولاسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى عرفت بالتواتر ، وأن يكون مايتفقون عليه من المصالح العامة ؛ وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الدينى فلايتعلق به أمر أهل الحل والعقد ، بل هو مما يؤخذ عن الله ورسوله فقط ، ليس لأحد فيه رأى إلا أن يكون فى فهمه .

و إذا لم يكن الأمر منصوصاً فى كتاب الله ولاسنة رسوله ، فينظر فيه أولو الأمر إذا كان من المصالح ، فيتشاورون فى تقرير ماينبغى العمل به ، فإذا اتفقوا وأجمعوا وجب العمل به ، و إن اختلفوا وتنازعوا ، فقوله تعالى : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) ذلك بأن يعرض على كتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من القواعد العامة ، والسيرة المطّردة ، فما كان موافقاً لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به ، وما كان منافياً علم أنه غير صالح ووجب تركه ، وبذلك يزول التنازع

وتجتمع الكلمة ؛ والغرض من هذا الرد أن لايقع خلاف ولانزاع فى الدين والشرع فلا يفضى إلى التفرق الذى يجعل المسلمين شيعاً ومذاهب ، ويذيق بعضهم بأس بعض ؛ ولكن الأسف أن المسلمين لم يعملوا بالآية ، بل استبدوا فتفرقوا واختلفوا إلى أن تمزقوا وصاروا محكومين تحت سيطرة الإفرنج ، ومرذولين أسراء تحت أرجل المستعمرين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

واعلم أن المسائل الدينية لاينبغى أن يكون فيها تفرق ولا خلاف ، لأن الله رب العالمين يقول : (أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) لأن العمل فيها بالنص لابالرأى ؛ وقد قال الله تعالى : (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) فبين أن ماينظر فيه أولو الأمر هو المسائل العامة ، كمسائل الأمن والخوف ، وأن العامة لاينبغى لها الخوض فى ذلك ، بل عليها أن ترده إلى الرسول وإلى أولى الأمر ، فهؤلاء يتولون استنباطه ، وإقناع الآخرين به ، فأولو الأمر لايختص بالأمراء والفقهاء فقط ، بل هم العارفون بمصالح الأمة حسب اختلاف الزمان والمكان ، ولا يكفى فيه معرفة أصول الفقه وفروعه .

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وردوا الشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله ، بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر صدقا ، فان المؤمن لايؤثر على حكم الله شيئاً ، والمؤمن باليوم الآخر يهتم بجزاء الآخرة أشد من اهتمامه بحظ الدنيا ؛ وفيه دليل على أن من لايؤثر اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه ، ولاسيما فى مسائل المصالح العامة فيه لا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر إيماناً يعتدّ به (ذلك خير وأحسن تأويلا) ، والله العظيم لو جرى المسلمون عليه لما أصابهم ما أصابهم من الشقاء والتفرق والانخذال ، فقد رأينا كيف سعد المهتدون به كالخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم ، وكيف شقى الذين أعرضوا عنه واستبدوا بالأمر كأمراء بخارى ؟.

وحمل بعضهم أولى الأمر على أفراد الأمراء والسلاطين مطلقاً حتى الجاهلين الجائرين والفساق الظالمين ، وبعضهم على الأئمة المجتهدين فى الفقه ، ثم قالوا إنهم قد انقرضوا ، وأنه لايجوز أن يخلفهم أحد ؛ فلا يجوز للمسلمين عرض المسائل على الكتاب والسنة ، والعمل بما يهديان إليه ، بل يجب أن يقلد أحداً من المجتهدين ، وإن اختلفت آراؤهم حتى فى العبادات والعقائد ، حتى صار الحنفى يمكث حاضراً فى المسجد ، وتقوم الجماعة فى صلاة الصبح مثلا والإمام شافعى أومالكى أوحنبلى ، فلا يقتدى هذا الحنفى الحاضر معهم ، لزعمه أنه لايصح اقتداؤه خلفه ، فينتظر حتى يجىء إمام مذهبه فيأتم به .

يا أسفا على حال المسلمين إنهم قد وقفوا فى دينهم وشريعتهم عند الكتب التى ألفها المقلدون فى القرون الوسطى ومابعدها ، حتى صار الناس ينسبون كل ماهم عليه من الضعف والوهن والجهل والفقر إلى دينهم وشريعتهم ؛ وقد سرى هذا الاعتقاد إلى الذين يتعلمون علوم أوروبا وقوانينها ؛ فمنهم من مرق من الإسلام ، وفضل تلك القوانين على الشريعة ، اعتقاداً منهم أن الشريعة هى مايعرفه من كتب الفقه ، ولايعرف من القرآن ولا من السنة المحمدية شيئاً ، كأكثر الأتراك الكماليين ، والتاتار الروسيين والأوزبكيين التركستانيين ؛ فما دام المسلمون تاركين العمل بكتاب الله ربهم ، وسنة رسوله ، وراضين بهذا الجهل المركب ، فان حالتهم لاتتغير عما هم عليه من الاختلاف والانشقاق والإسارة ، فإن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فتنبه .

وقد خاطب الله تعالى أمة الإسلام كلها بإقامة القواعد الأربع المنصوصة فى هذه الآية : إطاعة كتاب الله ، وإطاعة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإطاعة أولى الأمر من أنفسهم ، وردّ الأمر عند التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فالواجب على مجموع الأمة الإسلامية مطالبتهم بذلك ولا يترك الأمر فوضى ؛ ويجب أن يكون لأولى الأمر مجمع عند الأمة ، لأن الله تعالى ذكرهم بصيغة الجمع فى الآيتين

فلا يستبد واحد بالرأى ، وإنما الخطاب فى الآية لأمة الإجابة فى الإسلام ، وهى المذعنة لأمر الإسلام ونهيه ، العالمة بما لابد من علمه فيه ؛ فيا أمة الإسلام متى تفيقون من سكرتكم ؟ ومتى تفتح أعينكم ؟ ومتى تفهمون خطاب ربكم فتعملون به ؟ فإنكم أنتم المخاطبون ، وأنتم المكلفون ، أما تخجلون من جهالتكم ؟ وأما تستحون من إضاعتكم أهليتكم ؟ إلى متى تكونون تحت حكم المستعمرين محكومون ؟ وإلى متى تكونون عبيداً وإماء لعبيد مثلكم ، بل تفوّضون من نهاية جهلكم أموركم إلى أرواح أموات لاتدرون حالها أهى فى أعلى عليين ، أم فى أسفل السافلين ، فأف عليكم فأف عليكم ، إن لم تتوبوا مما أنتم عليه .

الآية الثالثة والعشرون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا) .

قد نادى الله تعالى المؤمنين جميعاً وخاطبهم كلهم عربهم وعجمهم ، آمراً إياهم أن يحتاطوا فى أوطانهم من كيد الأعداء ، فيأخذوا ويهيئوا ماينقذهم من شر الأعداء عند كيدهم وهجومهم ، فيحافظوا على أمنهم الداخلى والخارجى ، والأعداء الخارجيون هم المخالفون لنا فى الدين؛ وأما الداخليون فهم أصحاب الأغراض الفاسدة من عشاق الجاه والرياسة ، وأسراء الشهوة والهوى منا ، وكذا أصحاب البدع والطرق ، والمذاهب المختلفة فإنهم الأدواء المفسدة فى الملة الإسلامية .

وأما أخذ الحذر فإما بالمعاهدات مؤقتة ، وإما باتقاء شرهم بالقوة والأسلحة والاحتراس ؛ ولا شك أن العدو إذا أنس غرة منا هاجمنا وهددنا ، وإذا دعوناهم إلى ديننا عارضونا فيه ، كما قال الله عز وجل : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ) الآية .

فعلى أهل النفوس المستعدة للفهم أن تبحث عن كل ما يتوقف عليه امتثال الأمر من علم وعمل ، ويدخل فى الاستعداد والحذر معرفة الأسلحة واتخاذها

واستعمالها ، وذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجرّ الأثقال ؛ فيجب تحصيل كل ذلك وإتقانه ، كما هو الشأن فى هذه الأيام .

وذلك أنه تعالى أطلق الحذر ، ولا يتحقق الامتثال إلا بما تتحقق به الوقاية والاحتراز فى كل زمن بحسبه ، من المدافع بأنواعها ، والبنادق والبوارج المدرعة ، وحاملة الطيارات ، وأنواع السلاح ، وآلات الهدم ، والطيارات والدبابات ، والقنبلة الذرية المهلكة ؛ وأنه يجب تحصيل العلم بصنع هذه الأسلحة ومايلزمها ، وسائر الفنون الحربية ، والمسلمون صاروا أقل الناس حذراً من الأعداء باعتقاد القدر من غير علم بمعناه ، حتى إن أكثر بلادهم ذهبت من أيديهم وهم لايتوبون ولا يذّكرون ، ولايتدبرون أمر الله فى هذه الآية ومافى معناها ، ولايمتثلون إياه ، وإنك إذا ذكّرتهم يقولون القدر هكذا ، فبذلك يبطلون الشرائع والأوامر الإلهية .

(فانفروا ثبات أوانفروا جميعاً) أى انفروا جماعة فى إثر جماعة ، بأن تكونوا فصائل وفرقا ، وهو الذى يتعين إذا كان الجيش كثيراً ، أوكان موقع العدو يقتضى ذلك وهو الغالب ؛ أوانفروا كلكم مجتمعين إذا قضت الحال بذلك ، ويتوقف امتثال هذا الأمر على أن تكون الأمة كلها مستعدة دائما للجهاد ، بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ، ويتمرنوا عليها بالعمل ، ويدخل فيه اقتناء السلاح مع العلم بكيفية استعماله ، والتمرن على الرمى بالمدافع وبندق الرصاص فى هذا الزمان ، كما كانوا يتمرنون على رمى السهام فى الأزمنة السابقة ، وقد قصّر المسلمون فى هذا جدا جدًّا ، وقد سبقهم إليه غيرهم ؛ فيجب على الحكومات الإسلامية أن تقيم هذا الواجب بنفسها ، لاأن تبقى فيه عالة على غيرها ؛ ويجب على الأمة الإسلامية أن تواتيها وتساعدها عليه ، وأن تلزمها إياه إذا هى قصرت فيه ، والذين يتبطئون عن الجهاد والدفاع هم منافقون ، وليسوا بمؤمنين صادقين ، لأنه لاهمّ لهم ولا عناية بأمر الدين ، وإنما أكبر همهم شهواتهم ، فليحاسب المسلمون أنفسهم فى هذا الزمان ، وليزنوا بهذه الآية وماشابهها إيمانهم .

والعجب أن بعض الأمم التى لاتدين بالقرآن كأوربا وأمريكا والبلاشفة أقرب إلى أحكامه فى ذلك ممن يدّعون اتباعه من أصحاب التكايا والزوايا والطرق والمذاهب، وإنما الغلبة والعزة لمن يكون أقرب إلى هداية القرآن بالعمل على من يكون أبعد عنها وإن انتسب إليه بالقول ؛ كالذين جعلوا القرآن مأكلا ومكسباً وهم غافلون عن معناه والعمل به ، فالقرآن حجة عليهم .

الآية الرابعة والعشرون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين مرشداً إياهم أنهم إذا دخلوا فى بلاد الكفر لايحسبوا كل من يجدونه هناك كافراً فيقتلوه ، بل عليهم أن يتبينوا ويتثبتوا فيمن تظهر منهم علامات الإيمان والإسلام ؛ كالشهادة أو السلام الذى هو تحية المؤمنين وعلامة الأمن والاستئمان ، وأن لايحملوا مثل هذا على المخادعة ، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب ، وإن لم يكن تمكن فيها . فنهى الله تعالى عن إنكار إسلام من يدعى الإسلام ولو بإلقاء تحيته ، فكيف بمن ينطق بالشهادتين ؟ .

ثم ذكر الله تعالى ما من شأنه أن يقوّى الشبهة فى نفس من يظن أن إظهار الإسلام لأجل التقية ، وهو ابتغاء عرض الحياة الدنيا ، فهدى الله تعالى المؤمن بهذا إلى أن يتهم نفسه ، ويفتش عن قلبه ، ولا يبنى الظن على ميله وهواه ، بل أوجب عليه أن يبنى على الظاهر ويقبله حتى يتبين له خلافه .

قال ابن جرير قوله جل جلاله : (يا أيها الذين آمنوا) يا أيها الذين صدّقوا الله وصدقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم (إذا ضربتم فى سبيل الله) إذا سرتم مسيراً لله فى جهاد أعدائكم (فتبينوا) فتأنوا فى قتل من أشكل عليكم أمره فلم تعلموا

حقيقة إسلامه ولا كفره ، ولا تستعجلوا على قتل أحد ، إلا على قتل من علمتموه يقيناً حرباً لكم ولله ولرسوله ، ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم مظهراً لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم (لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا) فتقتلوه طلباً لمال الدنيا الزائل ، وإنما أذن الله تعالى لكم في قتال الذين يقاتلونكم : للدفاع عن الحق وإعلاء كلمته ، ونشر هدايته (فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل) جاهلين وكفاراً (فمن الله عليكم) بالهداية إلى الإسلام ، فمنكم من أسلم لظهور حقيقة الإسلام له من أول وهلة كأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، ومنكم من أسلم تقية أو لسبب آخر ، ثم حسن إسلامه عند ما خبر الإسلام وعرف محاسنه ، فظاهر حكم الآية أن كل من أظهر الإسلام يُقبل منه ويعدّ مسلماً ، ولا يُبحث عن الباعث له على ذلك ، ولا يُتهم في صدقه وإخلاصه إلا إذا ظهر منه ما ينافيه من الكفريات والشركيات والزندقة والإلحاد ، ولم يتب منها بعد التعليم والتفهيم ، بل عاند وأصرّ عليها ، فحينئذ يقتل .

الآية الخامسة والعشرون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين عموما شرقيّهم وغربيهم ، آمراً إياهم أن يكونوا في جميع معاملاتهم قائمين بالعدل ، ويعاملوا غيرهم كما يعاملون أنفسهم ، فيحبون لهم مايحبون لأنفسهم . والقوّامون بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أتمّ الوجوه وأكملها وأدومها ، فإن قوّامين جمع قوّام ، وهو المبالغ في القيام بالشيء ، والقيام بالشيء هو الإتيان به مستوياً تامًّا لا نقص فيه ولا عوج ، ولذلك أمر الله تعالى بإقامة الصلاة ، وإقامة الشهادة ، وإقامة الوزن بالقسط ، لتأكيد العناية بهذه الأشياء ، وهذه العبارة أبلغ ما يمكن أن يقال في تأكيد أمر العدل

والعناية به ؛ أى لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم ، بأن تتحروه بالدقة التامة حتى يكون ملكة راسخة فى نفوسكم . والقسط يكون فى العمل ؛ كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد ، ويكون فى الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان ، أو يحكمه الناس فيما بينهم ؛ وكان ينبغى أن يكون المسلمون بمثل هذه الهداية أعدل الأمم ، وأقومهم بالقسط ، وكذلك كانوا عند ما كانوا مهتدين بالقرآن ، وصدق على سلفهم الصالح قوله تعالى : (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) ثم خلف من بعد أولئك السلف خلف نبذوا هداية القرآن وراء ظهورهم ، حتى صارت جميع الأمم تضرب المثل بظلم حكامهم ، وسوء حالهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

والله تعالى عمم الأمر بالقسط ، لأن العدل حفظ النظام ، وقوام أمر الاجتماع وعدم محاباة أحد فى ذلك لغناه أوفقره أوقرابته ، لأن العدل والحق مقدمان على الحقوق الشخصية ، وحقوق القرابة وغيرها . وكانت محاباة الأقربين معهودة فى الجاهلية ، لأن أمرهم قائم بالعصبية ، فنهى الله تعالى عن ذلك كله ، وأمر بالعدل فى كل حال ، وأن يكونوا شهداء لله ، وأن يتحروا فيها الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة ولا محاباة لأحد ، ولا يكونوا كبعض البخاريين الذين يقيمون الآن فى الحرمين وغيرهما من البلدان ، فإنهم وإن كانوا فى الظاهر مسلمين ، ولكنهم بالعصبية الجاهلية متلبسون ؛ حتى إنهم يشهدون زوراً لجماعتهم ، ولا يتحاشون عن ذلك ، بل يفتخرون بذلك كما هو مشاهد ومعلوم ؛ فهم مشاقون لله والرسول ، والناس عنهم غافلون (ولو على أنفسكم أوالوالدين والأقربين) أى أيها المؤمنون كونوا شهداء بالحق لوجه الله ، وامتثال أمره ، واتباع شرعه ، الذى تنال به مرضاته ومثوبته ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، بأن يثبت بها الحق عليكم ، ومن أقرّ على نفسه بحق فقد شهد عليها ، لأن الشهادة إظهار الحق ، كما أقرّ ماعز رضى الله عنه بالزنا فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال يارسول الله طهرنى ، أو على والديكم

وأقرب الناس إليكم ، كأولادكم و إخوتكم ؛ فإنه ليس من بر الوالدين ولا من صلة رحم الأقربين أن يعانوا على ماليس لهم بحق بالإعراض عن الشهادة عليهم ، أوليّها وتحريفها لأجلهم ؛ و إنما البر والصلة فى الحق والمعروف ، والحق أحق أن يُتبع ، ولا تحابوا الغنىّ طمعاً فى بره ، ولا خوفا من شره ، كما هو شأن أكثر الناس اليوم ، فهم محادون ومشاقون لله والرسول ، ولا الفقير عطفاً عليه ورحمة به . فهل يتدبر المسلمون هذه الآية كما أمرهم الله تعالى بتدبر القرآن ، فيقيموا العدل والشهادة بالحق ؟ أم يعملون برأى أهل الحيل ، فيرتكبون الظلم والعدوان ، إلى أن يستحقوا غضب الله الديان ، فيسلط عليهم البلاشفة ، والطائفة الطاغية الدهرية ، فتسومهم سوء العذاب فى هذه الحياة الدنيا ، كما سلط الله تعالى تلك الطائفة على بلاد الروس و بخارى وكابكازيا والتركستان ، و بعض بلاد الصين والهند لمّا غيروا و بدلوا أمر الله عز وجل؟ (وَلعذابُ الآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْقَى) .

الآية السادسة والعشرون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين كافة ، آمراً إياهم أن يجمعوا بين الإيمان به و برسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، و بين جميع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى سابقاً ، والقرآن الذى نزّله عليه ، و بين الإيمان بجميع الكتب التى نزلها على رسله من قبل بعثة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، بأن يعلموا أن الله تعالى قد بعث قبله رسلا ، وأنزل عليهم كتباً ، وأنه لم يترك عباده فى الأزمنة الماضية سدى ، محرومين من البينات والهدى ، وأمرهم أن يدوموا ويثبتوا على هذا الإيمان ثبوتاً دائميا ، ولا يكفروا ولا ينكروا شيئا من ذلك أصلا ؛ وأما من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً .

فالإيمان بالله هو الركن الأول ، والإيمان بجنس الملائكة الذين يحملون الوحى إلى الرسل هو الركن الثانى ، والإيمان بجنس الكتب التى نزل بها الملائكة على الرسل هو الركن الثالث ، والإيمان بجنس الرسل الذين بلّغتهم الملائكة تلك الكتب إليهم وهم بلغوها الناس هو الركن الرابع ، والإيمان باليوم الآخر الذى يُجزى فيه المكلفون على عملهم بتلك الكتب مع الإيمان بما ذكر ، كلٌّ بحسب كتابه هو الركن الخامس ؛ ومن فرق بين كتب الله ورسله ، فآمن ببعض وكفر ببعض ، كاليهود والنصارى لايعتد بإيمانه ، لأنه متبع للهوى فيه ، أو للتقليد الذى هو عين الجهل ؛ وقد وصف الله تعالى خاتم رسله وأمته ، التى هى خير الأمم بقوله تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) ؛ فمن كفر بواحد من المذكورات فقد ضل عن الصراط المستقيم ، وبَعُد عن طريق الهداية ومحجة السلامة بعداً فاحشاً ، ويقرب من هذا من يؤمن ببعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعظمه ، ويكفر ببعض ويبغضه ، فيحب البعض ويبغض البعض ، كالرافضة والشيعة ، ويقرب منهم أيضاً من يؤمن ببعض الأئمة المجتهدين ، ويحبه ويعظمه ويتبعه ، ويبغض البعض بل يكفر به ، كأكثر الأحناف من البخاريين والهنود والأتراك ، فإنهم يعظمون الإمام أبا حنيفة وأصحابه فيتبعونهم ويحبونهم ويقلدونهم ، وأما الأئمة الباقون كالإمام مالك والشافعى وأحمد وغيرهم من أئمة السنة فيبغضونهم ، ويبغضون من يقلدونهم ، فيقولون فى كتبهم : لنا ولهم ، وعندنا وعندهم ، ولنا كذا وكذا ، وللخصم كذا وكذا ، كما بينت ذلك فى كتابى : [البرهان الساطع فى تبرؤ المتبوع من التابع] . فعليك بمطالعته إن كنت طالباً للحق والحقيقة ، فإنه مطبوع فى مصر ، ومنشور فى العالم الإسلامى بحول الله وقوته .

الآية السابعة والعشرون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ؟) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عامة ناهياً إياهم عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فإن هذا من فعل المنافقين فإنهم يوالون الكفار ، وينصرونهم من دون المؤمنين ، ليستفيدوا منهم المال ، وينالوا بسببهم الجاه والرياسة ؛ فحذر الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ابتغاء العزة عندهم ، أو رجاء المنفعة منهم ، فإنه ربما يخطر ببال صاحب الحاجة أن ذلك لا يضر . والمراد من الولاية هنا النصرة بالقول أو الفعل فيما ينافي مصلحة المسلمين (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) . يعني أنكم إذا واليتم الكفار وناصرتموهم ، كما والى شريف مكة حسين الإنكليز ، وناصروه على حكومة الترك الإسلامية ؛ فقد أقمتم الحجة على أنفسكم باستحقاق عذاب الله في الدنيا والآخرة ، واستحقيتم أيضاً أن يسلطهم الله تعالى عليكم بذنوبكم ، فتُخذلوا بدل أن تنصروا ، وتُحقَّروا مكان أن تعزوا .

ولا شك أن المسلمين ما اضمحلت دولهم وسلطنتهم إلا باتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فإنهم لما اتخذوا الوزراء والبطانة من دون المؤمنين الصادقين ، واعتمدوا على دول غير إسلامية ، ففي النتيجة صاروا من المحرومين .

فيا أيها المؤمنون أما تُفيقون من غفلتكم ، وأما تصحون من سكرتكم ، وأما تفتحون عيونكم وتستعملون عقولكم ، وتعتبرون بما جرى في ماضيكم وحاضركم ، فتفهموا كلام ربكم العليم الحكيم فتعملوا بمقتضاه ، لأنكم أنتم المخاطبون والمكلفون بذلك لا الكفار ، وأنتم المأمورون بذلك لا الإفرنج ، أتريدون أن تقيموا حجج الله على أنفسكم ، بل قد أقمتم حجة الله عليكم ، فلهذا سلطهم عليكم وأنتم سكارى أو حيارى ومفتونون ، تأكلون وتتمتعون ، فبئس ماتفعلون .

* وما لجرح بميت إيلام *

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

أرى ألف بانٍ لايقوم بهادم   فكيف ببان خلفه ألف هادم

الآية الثامنة والعشرون فى سورة المائدة : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين عامة عربهم وعجمهم، عالمهم وجاهلهم ، ولم يخص أحداً دون أحد ؛ فالمؤمنون هم المخاطبون المكلفون بفهمه والعمل به . قال ابن عباس رضى الله عنهما: إن المراد بالعقود عهود الله التى عهد إلى عباده ، وما أحل الله وما حرم ، ومافرض وما حدّ فى القرآن كله : لاتغدروا ولا تنكثوا ؛ والظاهر أن الله تعالى أمرنا بالوفاء بجميع العقود الصحيحة التى عقدها علينا والتى نتعاقد عليها فيما بيننا إذا لم تكن مخالفة للنص . وأساس العقود الثابت فى الإسلام هو هذه الجملة البليغة (أوفوا بالعقود) وهى تفيد أنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به ، وليس لأحد أن يقيد ما أطلقه الشارع إلا ببينة منه ، فالتراضى من المتعاقدين شرط فى صحة العقد ، فكل قول أوفعل يعده الناس عقداً فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله تعالى مالم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام مما فى الشرع كالعقد بالإكراه ، أوعلى إحراق دار أحد ، أو الإكراه على بيعها أو إيجارها ، أو على الفاحشة ، أوأكل شىء من أموال الناس بالباطل ، كالربا والميسر والرشوة . والأصل الإباحة فى الأشياء ، ومن جملتها العقود والشروط فى أمور الدنيا ، والحظر لايثبت إلا بدليل ، ويؤيد إطلاق الآية حديث : « الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِلاَّ صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا ، أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً » .

وحديث : « الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ » رواه الترمذى ، وأبوداود « إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلاً أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا » ؛ ولكن الأسف أن المسلمين لما جهلوا معانى خطاب ربهم ، وأمر مولاهم الرحمن العليم الحكيم ، صاروا غدّارين وغشاشين وخداعين ومكارين لايوفون بعهودهم ، ولاهم صادقين وناصحين فى أقوالهم وأعمالهم وخصوصاً

فى مكة ، فإن أكثر سكانها موصوفون بتلك الصفات الشنيعة ، تجارهم ومطوّفوهم ، وكان اللازم المحتم عليهم أن يكونوا صادقين وأمناء وناصحين ، حتى يكونوا قدوة المسلمين فى أنحاء العالم الإسلامى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الآية التاسعة والعشرون فيها أيضاً : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْىَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ناهياً إياهم أن لايجعلوا شعائر دين الله حلالاً يتصرفون فيها كيف يشاءون ، وهى معالمه التى جعلها أماراتٍ يعلمون بها الهدى من الضلال ، كمناسك الحج وسائر فرائضه ، وحدوده وحلاله وحرامه ، بل اعملوا فيها بما بيّنه لكم ، ثم بين الله تعالى ما يتعلق بأعمال الحج ، ثم قال تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) ؛ فالأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية فى القرآن ، لأنه يوجب على الناس إيجابا دينيا أن يُعين بعضهم بعضاً على كل عمل من أعمال البر التى تنفع الناس أفرادًا وأقواما فى دينهم ودنياهم ، وكل عمل من أعمال التقوى التى يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم ، وأكد هذا الأمر بالنهى عن ضده ، وهو التعاون على الإثم بالمعاصى والعصبية وكل مايعوق عن البر والخير ، وعلى العدوان الذى يُغرى الناس بعضهم ببعض ؛ وكان المسلمون فى الصدر الأول جماعة واحدة يتعاونون على البر والتقوى ، من غير ارتباط ونظام بشرى ، كما هو شأن الجمعيات اليوم ، فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره لإيمانهم به إيمانًا كاملاً ، وفهمهم كلام ربهم فهما صحيحا ، وقد شهد الله تعالى لهم بذلك (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) و (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) ولكن لما انتشر بأيدى الخلف ذلك العقد ، ونكث ذلك

العهد ، صرنا محتاجين إلى تأليف جمعيات خاصة بنظام خاص لأجل جمع طوائف من المسلمين ، وحملهم على إقامة هذا الواجب فى التعاون على البر والتقوى ؛ فلابد لنا من تأليف الجمعيات الدينية والخيرية والعلمية إذا كنا نريد أن نحيا حياة عزيزة (وَاتَّقُوا اللهَ) أى اتقوا الله أيها المؤمنون بالسير على سننه التى بيّنها لكم فى كتابه ، وفى نظام خلقه ، لئلا تستحقوا عقابه الذى يصيب من أعرض عن هدايته (إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) لمن لم يتقه بعدم اتباع شرعه ، ومراعاة سننه فى خلقه ، فانه لا هوادة ولا محاباة فى عقابه ، لأنه لم يأمر بشىء إلا وفعله نافع وتركه ضار ، ولم ينه عن شىء إلا وفعله ضار وتركه نافع ؛ وفى معنى المأمور به كل مارغّب فيه ، وفى معنى المنهىّ عنه كل ما رغب عنه وحذّر منه ؛ فلهذا كان ترك هدايته مفضياً بطبعه إلى الحرمان من المنافع والوقوع فى المضار ، التى منها فساد الفطرة وعمى البصيرة ؛ وإنما يظلم الإنسان نفسه ، ولا عُتب له إلا عليها ؛ فيأيها المؤمن لاتضيع أهليتك ، ولاتظلم نفسك ، بل اجتهد لفهم كلام ربك والعمل بموجبه تكن عبداً مؤمناً ، وتنل رحمة الله فى الدنيا والأخرى ، وإلا تكن خاسراً ، فتنبه .

الآية الثلاثون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَايُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بعد أن أمرهم بالوفاء بعهد الربوبية وعهد العبودية : أن يقوموا بما عاهدوا والتزموا من السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيقوموا بطاعته مخلصين طاهرين ، فقال : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) أى إذا

أردتم القيام إلى أداء الصلاة فاغسلوا هذه الأعضاء إذا كنتم محدثين ، ففرض الوضوء أربع : الأول غسل الوجه ، الثانى غسل اليدين إلى المرفقين ، الثالث المسح بالرأس ، الرابع غسل الرجلين إلى الكعبين ، أومسح الساتر عليهما (وإن كنتم جنباً فاطهروا) أى اغتسلوا غسلاً كاملا . والجنابة الموجبة للغسل معروفة عند جميع المسلمين ، هذا إذا وجدتم الماء ، ولم يمنعه من استعماله مانع ؛ وأما إذا حدث حادث فحكمه : قوله تعالى (وإن كنتم مرضى أوعلى سفر ، أوجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) . على فضله ورأفته وتطهيره وتيسيره ، لأنه تعالى رءوف رحيم بكم ، وهو لا يشرع لكم إلا مافيه الخير والنفع لكم ، و يطهركم من القذر والأذى ، ومن الرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة ، فتكونوا أنظف الناس أبدانا ، وأزكاهم نفوسا ، وأصحهم أجساما ، وأرقاهم أرواحا ، وليتم نعمته عليكم بالجمع بين طهارة الأرواح وتزكيتها ، وطهارة الأجساد وصحتها ، فإن الإنسان روح وجسد ، لا تكمل إنسانيته إلا بكمالهما معا ؛ فالصلاة تطهر الروح ، وتزكى النفس ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ؛ فما أعظم نعمة الله تعالى على الناس بهذا الدين القويم ، ولهذا قال (لعلكم تشكرون) فتقوموا بشكر النعم الظاهرة والباطنة ؛ فدين الإسلام دين اليسر ، ودين النظافة ، ودين الحياء ، ودين الصدق ، ودين الأمانة ، ودين الصيانة ، ودين العفة ، ودين العقل ، ودين الفهم ، كما أنه دين التوحيد ، ودين الإخلاص .

فيا أيها المؤمنون هل عرفتم هذه الأوصاف ، وهل اتصفتم بها ؟ أو أنتم جاهلون بها ، لاتعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ومن القرآن إلا رسمه ، تقرءونه فى المحافل والمآتم والختمات ، وعلى رؤوس القبور ، وعلى ما كينة راديون ، أو لأن تهبوا ثوابه لمن يعطى لكم الدريهمات ، كما نشاهدكم فى شرق الأرض وغربها . أما تتوبون إلى الله وتتقونه ، وأما تستحيون من الله ومن الإنسانية ، وقد جاءت أشراط الساعة ،

وقامت علامات القيامة ، فتُسألون يومئذ عن التوحيد ، وعن القرآن ، وعن العمل به .

الآية الحادية والثلاثون فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

قد نادى الله تعالى المؤمنين عامة ، وخاطبهم آمراً إياهم بأن يكونوا قوّامين لله شهداء بالقسط . القوّام : هو المبالغ فى القيام بالشئ ، وهو الإتيان به مقوّماً تاما ، لانقص فيه ولا عوج ، وهذا عام شامل لجميع ما أخذ علينا الميثاق به من التكاليف حتى المباحات ؛ أى كونوا من أصحاب الهمم العالية ، وأهل الإتقان والإخلاص لله تعالى فى كل عمل تعملونه من أمر دينكم ودنياكم . ومعنى الإخلاص لله فى أعمال الدنيا أن تكون بنية صالحة ، بأن يريد العامل بعمله الخير ، والتزام الحق من غير شائبة اعتداء على حق أحد ، أو إيقاع ضرر به . والشهادة بالقسط معروفة ، وهى أن تكون بالعدل بدون محاباة المشهود له ولا المشهود عليه ، لقرابته وولائه ، ولا لماله وجاهه ، ولا لفقره ومسكنته ؛ فالشهادة عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، والإقرار به لصاحبه ، والقسط هو ميزان الحقوق ؛ فإذا خولف انتشرت المفاسد ، وضروب العدوان بينهم ، وتقطعت روابطهم الاجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديداً ، فلا يلبثون أن يسلط الله تعالى عليهم بعض عباده الذين هم أقرب إلى إقامة العدل منهم ، فيزيلون استقلالهم ويذيقونهم وبالهم . وتلك سنة الله التى شاهدناها فى الأمم الحاضرة ، وشهد بها تاريخ الأمم الغابرة ؛ ولكن الجاهلين الغافلين لا يسمعون ولا يبصرون ، فأنّى يبصرون ويتعظون ؟ .

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) أى لايحملنكم بغض قوم وعداوتهم لكم ، أو بغضكم وعداوتكم لهم على عدم العدل فى أمرهم بالشهادة لهم أوالحكم لهم ، فلاعذر لمؤمن فى ترك العدل وإيثاره على الجور والمحاباة ، فلايتوهمنّ متوهم أنه يجوز

ترك العدل فى الشهادة للكافر ، أوالحكم له بحقه على المؤمن ، ولم يكتف الله تعالى بالتحذير من عدم العدل مهما كان سببه والنية فيه ، بل أكده تأكيداً بقوله : (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى قد فرضت عليكم العدل فرضاً لاهوادة فيه ، فاعدلوا هو أقرب لتقوى الله ؛ أى لاتقاء عذابه وسخطه باتقاء معصيته ، وهى الجور الذى هو من أكبرالمعاصى ، لما يتولد منه من المفاسد (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) لايخفى عليه تعالى شئ من أعمالكم ظاهرها وباطنها ، ولا من نياتكم وحيلكم فيها ، وهو تعالى الحكم العدل القائم بالقسط ، فاحذروا أن يجازيكم بالعدل على تركم العدل ، وقد مضت سنة الله العادلة فى خلقه بأن جزاء ترك العدل ، وعدم إقامة القسط فى الدنيا هو ذل الأمة وهوانها ، واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها ، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى ، وأشد وأبقى ، كأهل بخارى وما وراء النهر والتركستان لما فشا فيهم الظلم ومعاصى الله وارتكاب المناهى ، سلط الله تعالى عليهم الروس ، ثم البلاشفة فساموهم سوء العذاب ، وكذا أهل الأندلس والمغرب ، وقد ثبت فى الحديث القدسى . قال الله عز وجل : « إِذَا عَصَانِى مَنْ يَعْرِفُنِى سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَعْرِفُنِى » ولكن الناس لايعتبرون ، حتى إن أكثر الذين هجروا منهم بلادهم ، وسكنوا فى الحرمين ، منغمسون فى ردغة الضلال من الظلم والشرك بدعاء غير الله ، والنفاق والحسد ، والكذب والفسوق والعصيان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الآية الثانية والثلاثون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

روى غير واحد من أئمة التفسير أن الآية نزلت فى رجل همّ بقتل النبى صلى الله عليه وسلم أرسله قومه لذلك ، وكان بيده السيف وليس مع النبى صلى الله عليه وسلم سلاح وكان منفرداً كما روى الحاكم وصححه من حديث جابر رضى الله عنه

« أن غورث بن حارث المحاربى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : منْ يَمنعكَ ؟ قال: اللهُ ، فوقع السيفُ من يده ؛ فأخذهُ النبىُّ صلى اللهُ عليه وسلم وقال : مَنْ يَمْنَعُكَ ؟ قال : كُنْ خيرَ آخذ ، قال : تَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللهِ . قال : أعاهدكَ أن لاأُقَاتِلَكَ ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلّى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال جئتكم من عند خير الناس » .

وفى رواية نزلت فى قصة النبى صلى الله عليه وسلم مع بنى النضير ، إذ ذهب إليهم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف رضى الله عنهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم عاهد بنى النضير على أن لا يحاربوه ، وأن يعينوه على الديات ، فلما طلب منهم ذلك وهو بينهم ، أظهروا له القبول وقالوا اقعد حتى نجمع لك ونطعمك ؛ فلما جلس بجانب جدار دار لهم ، وجدوا أن الفرصة قد سنحت لهم للغدر به ، فأرادوا أن يطرحوا عليه حجارة و يقتلوه ، وإنما اعتلّوا بصنع الطعام ليكون لهم فيه وقت ينقلون فيه الصخرة إلى سطح الدار ؛ ولاشك أنهم كانوا يريدون قتل من معه أيضاً ، فأعلم جبريلُ النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فانطلق وتركهم ، فنزلت الآية فى ذلك مذكّرة بهذه القصة و بقصة المحاربى وأمثالها من وقائع الاعتداء التى كانت كثيرة حتى بعد قوة الإسلام بكثرة المسلمين ، فهو سبحانه يذكّر المؤمنين بذلك كله ، والمنةُ له جل جلاله فى ذلك ليست قاصرة على من وقعت لهم تلك الوقائع من النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، بل هى منّة عامة يجب أن يشكرها له عز وجل كل مؤمن إلى يوم القيامة .

كما وقع للعبد الضعيف راقم هذه الكلمات فى بلاد فرغانة حينما حبستنى البلاشفة الدهرية ، وحكمت علىّ بالإعدام رمياً بالرصاص ، فنجانى الله تعالى من كيدهم وحبسهم ، وأوصلنى إلى حرمه وجوار بيته الحرام ، واستعملنى لتعليم عباده معالمَ دينهم وكان ذلك عام ١٣٤٦ ، كما بينت الواقعة فى كتابى المطبوع بمصر بمطبعة عيسى الحلبى المنشور فى أنحاء الدنيا [حكم الله الواحد الصمد فى حكم الطالب من الميت المدد] ،

والآن عام ١٣٦٦ أنا حيّ فى بلد الله الأمين ، معلم للناس معالم الدين ، والحمد لله رب العالمين (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ، (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) .

واعلم أن من فوائد هذا التذكير للمتأخرين ترغيبهم فى التأسّى بسلفهم الصالح فى القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر والإحسان ، واحتمال الجهد والمشاقّ والصبر على ذلك فى سبيل الله ، وهذا هو المعنى العام للجهاد فى سبيل الله ؛ والعبد المؤمن إذا يئس من نفسه بتقطع الأسباب وتغليق الأبواب ، وتقلّب الأعداء ، وتقلّب الأولياء ، يتذكر أن الله تعالى وليُّه ووكيله ، وأنه هو الذى بيده ملكوت كل شئ ، وأنه هو الذى يجير ولا يجار عليه ، فيقوى إيمانه ، وتتجدّد قوته ، فينصره الله تعالى بما يستفيد من الإيمان والذكرى والتوكل ، فحسبنا الله ونعم الوكيل ، إذا توكلنا عليه حق التوكل ، فيارب بنا وفقنا لفهم معانى كتابك ، والعمل بمقتضاه بفضلك ومنّك آمين .

الآية الثالثة والثلاثون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عامة وأمرهم بأن يتقوه ويبتغوا إليه وحده الوسيلة بالعمل الصالح ، ولا يكونوا كأهل الكتاب مغرورين بآبائهم وساداتهم . اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه ، ومخالفة سننه ودينه وشرعه . والوسيلة إليه هى مايُتوسل به إليه ، أى مايُرجى أن يتوصل به إلى مرضاته ، والقرب منه تعالى ، واستحقاق المثوبة فى دار كرامته ، ولا يُعرف ذلك على الوجه الصحيح إلا بتعريفه تعالى ، وقد تفضل علينا بهذا التعريف بوحيه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وحقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحرّى مكارم الأخلاق والشريعة فهى كالقربة . وقال حذيفة وعطاء ومجاهد والحسن رضى الله عنهم : تقرّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . ومن جملة الوسيلة إليه تعالى الجهاد فى سبيله (وجاهدوا فى سبيله)

أى جاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء ، وحملها على التزام الحق فى جميع الأحوال ، وجاهدوا أعداء الإسلام الذين يقاومون دعوته وهدايته للناس ، والجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب . وسبيل الله هى طريق الحق والخير والفضيلة ، فكل جهد يحمله الإنسان فى الدفاع عن الحق والخير والفضيلة ، أو فى تقريرها وحمل الناس عليها ، فهو جهاد فى سبيل الله (لعلكم تفلحون) أى اتقوا الله لعلكم تفوزون .

وابتغوا مايجب فعله على رجاء الفوز والفلاح ، واحتملوا الجهد والمشقة فى سبيله رجاء للفوز والفلاح والسعادة فى المعاش والمعاد ، هذا هو التفسير المأثور عن السلف الصالحين ؛ ولم يؤثر عن صحابى ولا تابعى ، ولا أحد من علماء السلف أو عامتهم أن الوسيلة إلى الله تعالى تبتغى بغير ماشرعه الله للناس من الإيمان والعمل بموجبه ، ولكن قد حدث فى القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء والأولياء ، وتسميتهم وسائل إلى الله تعالى ، والإقسام على الله بهم ، وطلب قضاء الحاجات ، ودفع الضر ، وجلب النفع منهم عند قبورهم أو فى حال البعد عنها ، وشاع هذا وكثر حتى صار كثير من الناس يدعون أصحاب القبور فى حاجاتهم مع الله تعالى ، أو يدعونهم من دون الله تعالى ، والدعاء هو العبادة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ » وفى رواية : « الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ » ، والله تعالى يقول : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) و (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) ، ولكن بعض المصنفين يزعم أنهم يُدعَون ، والعوام يأخذون بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم لعموم الجهل .

والعبد الضعيف قد حققت هذه المسئلة حق التحقيق ، فى مؤلفاتى المطبوعة المنشورة : [كحكم الله الواحد الصمد فى حكم الطالب من الميت المدد] و [أوضح البرهان فى تفسير أم القرآن] المطبوع فى مكة و [مفتاح الجنة لا إله إلا الله] ، و [البرهان الساطع فى تبرؤ المتبوع من التابع] و [العقود الدرية السلطانية ، فيما ينسب إلى الأيام النيروزية] المطبوع فى مصر و [تحفة الأبرار فى فضائل سيد

الاستغفار] المطبوع فى الصين ، وغيرها ؛ ولشيخ الإسلام أحمد بن تيمية رسالة : [قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة] ؛ فعلى كل مؤمن طالب للحق بمطالعة تلك الكتب ، ولا يكن كأكثر البخاريين والهنديين والأتراك والإفريقيين عبّاداً لأهل القبور والأرواح ، فإنهم بهذا الاعتقاد مشركون ، ولا ينفعهم عند الله دعوى الإسلام ، أو المجاورة فى الحرمين إلا إذا تابوا وأصلحوا و بينوا ؛ فالله تعالى قابل التوب وغافر الذنب . وأما إذا لم يتوبوا بل أصروا على ماهم عليه من الاعتقاد الشركى ؛ فالله عز وجل شديد العقاب ذو الطول والقدرة والقوة ، لا إله إلا هو ، ولا معبود بحق سواه .

الآية الرابعة والثلاثون فيها أيضا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم ناهياً إياهم أن لا يتخذوا اليهود والنصارى أولياء لأنفسهم يناصرونهم ، وإن كان سبب النزول خاصاً ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فلا يجوز لمسلم موالاة الكفار موالاةَ النصر والمظاهرة ، لأن موالاتهم علامة على مرض القلب والرغبة إليهم ، ولهذا نهى الله تعالى عن موالاة الكفار والمشركين عامة فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) الآية.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى إن الله تعالى قد نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذو اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً ووليّاً من دون الله ورسوله فإنه منهم ، وأن الله ورسوله منه بريئان . قال البيضاوى:أى فلا تعتمدوا عليهم ، ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب ، (بعضهم أولياء بعض) ، ولاشك أنهم متفقون على خلافكم ، يوالى بعضهم بعضاً لاتحادهم فى الدين ، فمن والاهم منكم فانه من جملتهم ، وهذا التشديد فى وجوب

مجانبتهم ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَتَرَاءَى آثَارَاهُمَا » ، ولكن المنافقين فى كل زمان ومكان يوالون الأعداء ليتخذوا عندهم الأيادى إذا دالت الدولة لهم ، وهذا هو الذى خرّب الدولة التركية الإسلامية وأبادها ، فإن كثيراً من وزرائها منذ قرن أوقرنين فى سياسته ما بين روسى و إنكليزى وألمانى وأمريكانى ، حتى تغلغل نفوذ هذه الدول فى أحشاء هذه الدولة فأضعف استقلالها فى بلادها ، و يخشى أكبر منه ، ألا وهو قيام قيامتها ومحوها واضمحلالها وقد وقعت .

وأما الذين استعمرت الأجانب بلادهم بأى صورة من صور الاستعمار ، فأمر منافقيهم أظهر ، يتقرّبون إلى الأجانب بما يضر أمتهم حتى فيما لم يكلفوهم إياه .

فيا أيها المسلمون أما تعتبرون بآيات رب العالمين ، وما جرى عليكم من الأمور فترجعوا إلى الإنصاف ، والتحلى بأحسن الأوصاف ، فتكونوا مؤمنين صادقين ، ولسعادة الدارين نائلين .

الآية الخامسة والثلاثون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إياهم بأن منهم من يرتد عن الدين ، والعياذ بالله تعالى ، كالمنافقين المرضى القلوب ، وارتدادهم لا يضر الإسلام وأهله ، و إنما يُقيم الله الدين ، ويؤيده بالمؤمنين الصادقين ؛ فمن يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، فيؤثرون ما يحبه الله من إقامة الحق والعدل .

وهذا إخبار من الله تعالى بالغيب ، فإنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد عامة العرب عن الإسلام ، وقال المرتدون نصلى ولا نزكى ، فكلمهم أبو بكر

رضى الله عنه فلم يقبلوا نصحه ، فقاتلهم أبو بكر رضى الله عنه ، فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أبو بكر وأصحابه رضى الله تعالى عنهم .

وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين بست صفات : الأولى أنه تعالى يحبهم قال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) فجعل اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم سبباً لمحبة الله تعالى .

الثانية : أنهم يحبون الله تعالى كما فى الآية المذكورة وآيات كثيرة ، وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه مرفوعا : « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » الحديث ، والحب يستلزم الطاعة ويقتضيها بسنة الفطرة كما قيل :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

الصفة الثالثة والرابعة : الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين ، كقوله تعالى : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) يعنى أنهم عاطفون عليهم على وجه التذلل والتواضع ، وأنهم مع شرفهم وفضلهم على المؤمنين حافظون لهم أجنحتهم .

الصفة الخامسة : الجهاد فى سبيل الله ، وهذا من أخص صفات المؤمنين الصادقين ؛ وأعظم الجهاد بذل النفس والمال فى قتال أعداء الحق ، وضعاف الإيمان قد يجاهدون ولكن فى سبيل منفعتهم دون سبيل الله .

الصفة السادسة : كونهم لا يخافون لومة لائم ، بخلاف المنافقين فإنهم يخافون لومة لائم ، أى أنهم لتمكنهم فى الدين ، ورسوخهم فى الإيمان لا يخافون لومة ممن أفراد اللوم ، كان اللائم كائنا من كان ، لأنهم لا يعملون العمل رغبة فى جزاء أو ثناء من الناس ، ولا خوفاً من مكروه يصيبهم منهم ، فيخافون لومة هذا أو ذاك ، وإنما يعملون العمل لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وتقرير المعروف ، وإزالة المنكر ، ابتغاء مرضاة الله تعالى بتزكية أنفسهم وترقيتها (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)

أى الصفات الست فضل الله يعطيه من يشاء من عباده (والله واسع عليم) فلا ينبغى للمؤمن أن يغفل عن فضل الله الكريم عز وجل .

الآية السادسة والثلاثون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن اتخاذ أعداء الدين أولياء وأحباء ، لأنهم يتخذون دينكم الإسلام هزوًا ولعباً ، أى شيئاً يمزح به ويسخر منه ويعبث به ، فلا توالوا أهل الشرك والكفر والإلحاد (واتقوا الله) أى اتقوا الله فى أمر الموالاة فلا تضعوها فى غير موضعها (إن كنتم مؤمنين) صادقين فى إيمانكم تحفظون كرامته ، وتتجنبون مهانته ، لأن هؤلاء الأعداء إذا ناديتم إلى الصلاة ، ودعوتم إلى التوحيد اتخذوها هزواً ولعباً .

والحاصل أن الاستهزاء والسخرية بالعبادات الإسلامية من شأن الكفار والمشركين أعداء الدين ؛ فلهذا قد صرح العلماء فى عامة كتب الفقه والعقائد أن من استهزأ أوتسخر بالعبادات الإسلامية فقد كفر ، كما يفعل أكثر جهلة البخاريين فى حفلاتهم وولائمهم ، والمولويون والرفاعيون فى حلقات أذكارهم وعبادتهم من الغناء والرقص والدوران والتخنث ، فهم قد سلكوا مسلك اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين وهم لايشعرون .

فيا أيها المسلمون أفيقوا من سكرتكم ، وارجعوا إلى دينكم الذى جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتقوا غضب الله وعقابه .

الآية السابعة والثلاثون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن تحريم ما أحل لهم من المأكولات والمشروبات والمنكوحات ، كما كان يفعل أهل الجاهلية ، و بعض الجهلة من هذه الأمة ، ومن النصارى والوثنيين ، لأن بعض المتقشفين منهم كانوا يظنون أن بتحريم التمتع بالطيبات طبعاً من اللحوم والأدهان والنساء يحصل الكمال والقرب الإلهى ، كامتناع الرهبان من التزوج ، أوأنواع الصيام المبتدع ، فأزال الله تعالى هذا الظن بقوله : (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم) أى لا تحرّموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات المستلذة ، بأن تتعمدوا ترك التمتع بها تنسكاً وتقرباً إليه تعالى (ولا تعتدوا) فيها بتجاوز حد الاعتدال إلى الإسراف الضارّ بالجسد ، كالزيادة على الشبع والرىّ ، أو كجعل التمتع بلذتها أكبرهمكم ، وعلى هذا المعنى قوله تعالى : (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا) ولاتعتدوا الطيبات المحللة بتجاوزها إلى الخبائث المحرمة ، فالاعتداء يشمل الأمرين : اعتداء الطيبات نفسها إلى الخبائث ، والاعتداء فيها بالإسراف ، لأن حذف المفعول يفيد العموم (إن الله لايحب المعتدين) الذين يتجاوزون حدود شريعته ، وسنن فطرته ، ولو بقصد عبادته ؛ وتحريم الطيبات المحللة قد يكون بالفعل من غير التزام بيمين ولانذر ، وقد يكون بالتزام ، وكلاهما غير جائز ، ولا يحرم على أحد شىء يحرمه على نفسه بهذه الأقوال . وأما ترك الطيبات كالمحرمات تنسكاً وتعبداً لله تعالى بتعذيب النفس وحرمانها فقد فتن به كثير من العباد والمتصوفة ، فكان من بدعهم التركية ، التى تضاهى بدعهم العملية ، وقد اتبعوا فيها سنن من قبلهم شبراً بشبر ، وهؤلاء أخذوها عن بعض الوثنيين ، كالبراهمة الذين يحرمون جميع اللحوم ، ويزعمون أن النفس لا تزكو ولا تكمل إلا بحرمان الجسد من اللذات .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله تعالى عنها : « أنَّ ناساً من أصحابِ النبىِّ صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجَ النبىِّ صلى الله عليه وسلم عن عملهِ وعبادتهِ فى السرِّ

فقال بعضهم : إنى لا آكلُ اللحم وأصومُ دائماً ؛ وقال بعضهم : لا أتزوّج النساء ؛ وقال بعضهم : أقومُ الليل ولا أنامُ عَلَى فراش ؛ فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا ، وَلٰكِنِّى أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ ، وَآكُلُ اللَّحْمَ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّى » .

وقد ورد فى الباب أحاديث كثيرة كلها تدل على سماحة دين الإسلام ، وأن الغلوّ والتشديد ليس منه ألبتة ، بل من دين المجوس والوثنيين .

(وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً) هذا تصريح بالأمر بضد مقتضى النهى قبله (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) فى الأكل وغيره ، ولا تفتروا عليه تعالى فى تحليل ولا تحريم ، ولا تعتدوا حدوده فيما أحل وفيما حرّم ، فإن اتقاء سخطه فى ذلك من لوازم إيمانكم به ، ومن اعتداء حدوده فى الأكل والشرب الإسراف فيهما ؛ فمن جعل شهوة بطنه أكبرهمه فهو من المعتدين المسرفين ، ومن بالغ فى الشبع فهو من المعتدين المسرفين ، ومن أنفق فى ذلك أكثر من طاقته ، وعرّض نفسه لذل الدَّين ، أو أكل أموال الناس بالباطل فهو من المعتدين المسرفين ، وما كان المعتدى المسرف من المتقين .

فيا أيها المؤمنون أنتم المخاطبون المكلفون بهذه الخطابات والأوامر والنواهى ، فاعرفوها وافهموها واعملوا بها تكونوا متقين ؛ وأما إذا جهلتم وخالفتم فتجاوزتم واعتديتم فأنتم المعتدون ، وأنتم الظالمون ، فبه تهلكون أنفسكم وأمتكم فى هذه الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ؛ فياخسارة من يجهل أمر ربه فيكون من المحرومين الخاسرين الهالكين .

الآية الثامنة والثلاثون فيها أيضاً : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إياهم بأن الخمر والقمار والأنصاب والأزلام كلها رجس وخبيث من عمل الشيطان لإضلال بنى الإنسان ، والخمر كل شراب مسكر من أى شئ كان ، والميسر القمار والمقامرة ، سواء كان بالأزلام والأقلام والسهام ، فكل قمار ميْسر محرم بالنص ، وحتى لعب الصبيان بالجوز والبيض والكعاب ؛ وكان أهل الجاهلية يتقامرون فى جاهليتهم حتى جاءهم الإسلام ، فنهاهم الله تعالى عن هذه الأخلاق الذميمة .

وأما الأنصاب فهى حجارة كان أهل الجاهلية يذبحون قرابينهم عندها ، ويعظّمون تلك الحجارة فيعبدونها ويتقربون إليها ، فيدخل فيها المشاهد والقبور المبنية عليها القبب ، والأشجار التى يعظمونها ، ويعلّقون عليها الخِرَق .

وأما الأزلام فهى قداح وقطع من الخشب كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية ، لأجل التفاؤل أوالتشاؤم .

وأما الرجس فهو المستقذر حسّا أومعنى كلحم الخنزير أوالدم المسفوح أو الميتة ، وكذا الكفر والشرك رجس معنوىّ ، وهو محمول على جميع ماذكر من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، كما قال جل جلاله : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) ، وكانت الأنصاب والأزلام من لوازم الأوثان ، والشيطان يزين لأعدائه بنى آدم ابتداعها وإيجادها ، ثم يوسوس لهم بأن يعكفوا عليها ، ويزينها لهم لما فيها من شدة الضرر بهم (فاجتنبوه لعلكم تفلحون) وإذا كان الأمر كذلك فاجتنبوا هذا الرجس كله ، وابعدوا عنه رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم ، وتحليتها بذكر ربكم ، ومراعاة سلامة أبدانكم ، والتوادّ والتآخى بينكم .

وأما تعاطى ماذكر من الأشياء فإنه يصد عن ذلك ويحول دونه كما بيّنه الله تعالى بقوله : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر

و يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) والخطاب هنا للمؤمنين الذين طهّرهم التوحيد من خرافات الشرك كلها ، و إحداث السكر العداوة والبغضاء معروف ومشهود ، لأن السكر يفقد العقل ، فينشأ عنه القتل والضرب والعدوان ، والسلب والفسق والفحش ، و إفشاء السر ، وهتك الأسرار ، وخيانة الحكومات والأوطان فى كل زمان ومكان ؛ وأما الميسر فهو مثار للعدوان والبغضاء أيضاً ، ولكن بين المتقامرين ومن يتصل بهما .

ولما بين الله تعالى علتين لتحريم الخمر والميسر ، إحداهما اجتماعية ، والأخرى دينية ، والدينية تصدق على الألعاب التى اشتد ولوع كثير من الناس بها كالشطرنج ، فالظاهر أن تعدّ بذلك محرمة كالميسر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، و إن كان اللعب بها على غير مال كما شاهدنا كثيراً منهم فى الطائف فى أيام الاصطياف ، فإنهم ينهمكون فى اللعب حتى تفوتهم الصلاة ، أو يؤخرونها عن أوقاتها ، وإن يصلوا فيصلون بالعجلة بلا طمأنينة ولا تعديل أركان ولا خشوع لئلا يفوته اللعب (فهل أنتم منتهون) استفهام يتضمن الأمر بالانتهاء ، وهذا أبلغ ما يُنهى به ، وقد أكد الله تعالى تحريم الخمر والميسر من تسعة وجوه :

أحدها : أنه تعالى جعل الخمر والميسر رجساً ، وكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث ، ولذلك أطلقت على الأوثان .

الثانى : أنه تعالى صدّر الجملة بإنما الدالة على الحصر للمبالغة فى ذمهما .

الثالث : أنه تعالى قرنهما بالأنصاب والأزلام ، التى هى من أعمال الوثنية وخرافات الشرك ، وقد ورد فى الحديث : « مُدْمِنُ الخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ » ، رواه ابن ماجه .

الرابع : أنه تعالى جعلهما من عمل الشيطان ، لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان .

الخامس : أنه تعالى جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب ، وهو أبلغ من الترك .

السادس : أنه تعالى جعل اجتنابهما معدًّا للفلاح ومرجاة له، فارتكابهما موجب للخسران والخيبة .

السابع : أنه تعالى أخبر أنهما صادان عن ذكر الله وعن الصلاة .

الثامن : أنه تعالى جعلهما مثاراً للعدوان والعداوة والبغضاء ، وهى من أشر المفاسد .

التاسع : أنه تعالى أمر بالانتهاء عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية ، فيا أيها المؤمنون هل تفهمون هذه الخطابات الموجهة إليكم ، وتنتهون عما أنتم عليه من المنكرات والجهالات والخرافات والترّهات .

الآية التاسعة والثلاثون فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ، لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إياهم أنه تعالى يختبرهم فى حال إحرامهم للحج والعمرة ، بإرسال شىء كثير من الصيد يسهل عليهم أخذه بأيديهم و برماحهم (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى يبتليكم به وأنتم محرمون ، ليعلم من يخاف الله غائباً عن نظر الناس غير مراء لهم ، ولا خائف من إنكارهم ، فيترك أخذ شىء من الصيد ، و يختار شظف العيش على لذة اللحم خوفاً من الله تعالى ، وطاعة له فى سره (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) وجه الابتلاء بذلك أن الصيد ألذ الطعام وأطيبه ، وخصوصاً فى السفر الطويل كالسفر إلى الحرمين و بين الحرمين ، وسهولة تناول اللذيذ تُغرى به ، فترك مالاينال إلا بمشقة لايدل على التقوى والخوف من الله تعالى ، كما يدل عليه ترك ماينال بسهولة .

وهل يعد ترك الزنا مما لا يصل إليه إلا بسعى ، و بذل مال ، وتوقع فضيحة ،

كترك يوسف الصديق عليه السلام له ، إذ غلقت امرأة العزيز الأبواب دونه ، وقالت هيت لك ؛ وكقصة أحد الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة .

فالحاصل أيها المؤمنون أنتم المختبرون المبتلون فى نياتكم وأعمالكم ، فهل تمتثلون أمر ربكم فى سركم وجهركم ، أو تعتدون ذلك ، وتظهرون الامتثال فى الظاهر ومرأى الناس ، وتركبون المنهى المحظور فى السر ، كالمنافقين الذين هم فى الدرك الأسفل من النار .

الآية الأربعون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين الذين قصدوا حج بيت الله الحرام ، ناهياً إياهم عن قتل الصيد فى حال إحرامهم ، فاصطياد المحرم وقتله الصيد حرام عليه ، وإذا صدر عنه الاصطياد وقتله عامداً فعليه الجزاء فى الدنيا ، وهو أنه يتصدق بمثل ماقتل من النعم الخ .

فعلى هذا يجب على من أراد الحج من المؤمنين أن يعلم ويتعلم ما يتعلق بالحج من الفرائض والسنن والمحرمات والمكروهات حتى يكون آتياً بالحج على وجه الكمال فيكون حجه مبروراً ، ولكن الأسف ألف أسف على جهل المسلمين وعدم مبالاتهم بأمور دينهم ، وأوامر مولاهم رب العالمين ، وسنن سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتدبر.

الآية الحادية والأربعون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللهُ عَنْهَا ، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ، ناهياً إياهم عن السؤال عما لم يؤمروا باعتقاده أوفعله أوتركه ، لأن الدين قد كمل فلا يحتاج إلى التكميل ، حتى يحتاج إلى السؤال ، وإنما عليكم الأخذ والعمل بما بلّغه الرسول صلى الله عليه وسلم إليكم ، فكونوا منقادين له صلى الله عليه وسلم ، ومالم يُبلّغه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليكم فلا تسألوا عنه ، ولا تخوضوا فيه ، فإنكم إن خضتم فيما لا تكليف فيه عليكم ، فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض الغير اللازم من التكاليف ما يثقل عليكم ويشق .

وقد ذكر المفسرون فى تفسير هذه الآية أحاديث كثيرة ، فمنها مارواه ابن جرير وأصحاب الصحاح والسنن عن أبى هريرة رضى الله عنه فى سؤال الرجل : « مَنْ أَنا ومَنْ آبائى الخ » ؟ وفى الحج « أفى كُلِّ عامٍ يارسولَ اللهِ » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ذَرُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

وعن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا »

وفى رواية : « وَعَفَا عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا مُجْمَلَةً فَسَأَلْتُمْ عَنْ بَيَانِهَا بُيِّنَتْ لَكُمْ حِينَئِذٍ لِاحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهَا عَفَا اللهُ عَنْهَا » .

أى مالم يذكره فى كتابه فهو مما عفى عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها .

واعلم أن الله تعالى قد بيَّن لعباده بنص الخطاب ما لابد لهم منه لإصلاح أمر معادهم ومعاشهم ، و بفحوى الخطاب أوالإشارة مايفتح لهم باب الاجتهاد فى كل ماله علاقة بأمور مصالحهم ، فالواجب أن يُترك أمر التشريع إليه تعالى لأنه تعالى أعلم بمصالح العباد من أنفسهم .

وهذه الآية تدل على أنه لاتجوز الزيادة على نصوص الشارع ، والتنطع فى الدين باستعمال الرأى فى العبادات ، وأحكام الحلال والحرام ، لأن الله سبحانه قد أكمل الدين ، وأتمّ به نعمته على المؤمنين بما أنزله من القرآن على خاتم رسله ، و بما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم أكمل قيام من بيان مراد الله تعالى من تنزيله ، وهذه مسألة قطعية ثابتة بالنقل والعقل ، ولأن هذا الدين يُسر قد رفع الله تعالى منه الحرج كما نطق به النص ، ولذا سماه النبي صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هٰذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ » رواه البخارى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا » رواه الشيخان .

ومن الأسئلة المنهىّ عنها: البحث عن أمور غيبية ، وقد ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك البحث عن كيفيتها ، كسؤال الملكين فى القبر ، ووزن الأعمال ، والسؤال عن وقت قيام الساعة ، وعن الروح ، وعن مدة هذه الأمة ، والبحث فى صفات الله من: الاستواء على العرش ، ويد الله ، ونفس الله ، إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف .

الآية الثانية والأربعون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم آمراً إياهم بصيغة الإغراء بأن يهتموا

بإصلاح أنفسهم بالعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، وبيّن لهم أنهم إذا أصلحوا أنفسهم ، وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم وعمل وتعليم وإرشاد ، فلا يضرهم مَن ضل من الناس عن محجة العلم الصحيح بالجهل والتقليد ، وعن صراط العمل الصالح بالفسق والإفساد فى الأرض .

فيا أيها المؤمنون الزموا صلاح أنفسكم وتزكيتها بما شرعه الله لكم ، لا يضركم ضلال غيركم إذا اهتديتم ، إذ لا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ومن أصول الهداية الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فإذاً لا تكونون مهتدين إلا إذا بلّغتم دعوة الحق والخير ، وعلّمتم الجاهلين ما أعطاكم الله تعالى من العلم والدين ، فلا تكتموا الحق والعلم كما كتمه من كان قبلكم ، فلعنهم الله تعالى على لسان أنبيائهم ولسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم (إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم ويحاسبكم بما كنتم تعملون فى الدنيا ؛ وقد روى الحفاظ بسندهم عن قيس أنه قال : قام أبو بكر رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) الآية ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ . ويا أيُّها النَّاسُ إِيَّاكُمْ والكَذِبَ فإنَّ الكَذِبَ مُجانِبُ الإيمان » . رواه أصحاب السنن الأربعة .

وروى الترمذى بسنده عن أبى أمية الشيبانى قال : « أتيت أبا ثعلبة الخشنى رضى الله عنهُ فقلت له : ما تصنعُ فى هذهِ الآية ؟ قال أيَّةُ آية ؟ قلتُ قولُ الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) ؛ قال : أَمَا واللهِ لقدْ سألتَ عنها خبيرًا ، سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا

مُطَاعاً ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ » .

والحاصل أنه قد علم من هذه الروايات أن السلف اتفقوا على أن المؤمن لا يكون مهتدياً بمجرد إصلاحه لنفسه إذا لم يهتم بإصلاح غيره ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر ، ويفهم منه أن هذا فرض لازم دائم ، إلا إذا فسد أهل الزمان فساداً لا يُرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد ، والموفق هو الله عز وجل .

الآية الثالثة والأربعون فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) الآية .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين منبهاً إياهم أنه من حضره الموت ، وعنده مسلمون حاضرون يجب عليه أن يُشهد على وصيته عدلين من المسلمين ، وأما إذا لم يكن عنده مسلم حاضر فأمره بشهادة رجلين من غير المسلمين ، فإن ارتيب بشهادتهما ، أى الكافرين استُحْلفا بالله بعد الصلاة ، ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا ، وليس على شهود المسلمين إقسام ، وأما الإقسام على الشهود إذا كانا كافرين ، والآية تفيد الحث على الوصية وتأكيد أمرها ، وعدم التهاون فيها بشواغل السفر ، وتفيد الإشهاد على الوصية فى الحضر والسفر ليكون أمرها أثبت ، والرجاء فى تنفيذها أقوى ، وأن يكون الشاهدان من المؤمنين الموثوق بعدالتهم ، وأن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع عند فقد أهل الإيمان كالسفر ، وجواز تغليظ الإقسام بالأوقات التى تؤثر فى قلوب الشهود ؛ ولهذا قال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى : الأيمان تغلظ بالزمان والمكان ، وتفصيل تفسير الآية مذكور فى التفاسير عموما ، وتفسير المنار خصوصاً ، فارجع إليها أيها المؤمن الذى يهمه دينه .

الآية الرابعة والأربعون فى سورة الأنفال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إياهم : إذا لقيتم الكفار حال كونهم زاحفين زحفاً لقتالكم ، فلا تولوهم الأدبار ، أى فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم، وإن كانوا أكثر عَدداً منكم وعُدَداً، وإذا كان التزاحف من الفريقين، أو كان الزحف من المؤمنين ، فتحريم الفرار والهزيمة أولى ، ولفظ (إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) يصلح للأحوال الثلاثة (ومن يولهم يومئذ دبره) ويولى ظهره إلى العدو فارًّا منهم (إلا متحرفا لقتال) أى متحرفا لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه ، وأبلغ فى النكاية بالعدو (أومتحيزاً إلى فئة) أى منتقلا إلى فئة من المؤمنين فى حيز غير الذى كان فيه لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم (فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) لارتكابه معصية الفرار .

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبار المعاصى ، وقد جاء التصريح بذلك فى أحاديث صحيحة أصحها عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا عند الشيخين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » أى المهلكات ، «قالوا يارسولَ اللهِ وماهُنَّ ؟ قال: الشِّرْكُ باللهِ والسِّحْرُ وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » إلا إذا كان الكفار أزيد من الضعف ، أو لتدبير حربى ، وهو التحيز إلى فئة .

فيا أيها المؤمنون جاهدوا أعداء الله ، وأعداء الدين والتوحيد ، واثبتوا فيه ولا تتزلزلوا ، لأنكم إذا قُتلتم فأنتم الشهداء الفائزون بالرضا والرضوان ، وأنواع نعم الجنان من الحور والغلمان ، وإذا نُصرتم وغلبتم فأنتم الغانمون الفاتحون الفالحون ، نائلون السعادة والدولة برفع لواء الدين ؛ واعلموا أنه لايموت أحد إلا بانقضاء أجله

المقدّر ، فآمنوا بهذا القدر ، فإن القدر لا يتغير ، واحذروا عن الغدر ، فإن الغدر شين وعار ، وسبب للذلة فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة و بئس المصير .

الآية الخامسة والأربعون فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ، آمراً إياهم بإطاعته و إطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وامتثال أمره ، وناهياً إياهم عن أن يتولوا و يعرضوا عن الرسول تاركين إطاعته ، ومخالفين له ؛ والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصرح بوجوب طاعته ، وموالاته واتباعه ونصرته ، أى تسمعون سماع الفهم والتصديق والإذعان ، الذى هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ) والموصوفون بقوله عز وجل : (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) وأصحاب العقول السليمة .

ولاتكونوا أيها المؤمنون الصادقون كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ، أى لايسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل ؛ وهكذا كان المنافقون والكفار المعاندون ، والمقلدون الجامدون ، والمتعصّبون الضالون ، وقد سلك من هذه الأمة مسلكهم شبراً بشبر ، وذراعا بذراع ، فإن كثيراً منهم و إن قرأ القرآن وسمعه واستمعه ، ولكنهم لا يعملون به إلا ما وافق هواهم ، أووافق قول متبوعهم وأحبارهم ورهبانهم ، و يحملون ماخالف مذهب متبوعهم على النسخ أو التأويل ، كما تقوّل به أبوالحسن الكرخى الحنفى فى كتابه أصول الفقه ، وقد نبهت عليه فى كتابى المطبوع المنشور [البرهان الساطع فى تبرؤ المتبوع من التابع] .

فيا أيها المؤمنون كونوا مؤمنين صادقين ، وانتفعوا بالإيمان والقرآن متدبرين معناه ومتفكرين فحواه حتى تكونوا فالحين .

الآية السادسة والأربعون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عموماً ، عربهم وعجمهم ، وعالمهم وجاهلهم ، آمراً إياهم أن يستجيبوا لله والرسول بالعناية والاستعداد ، أى إذا علمتم مافرضنا عليكم من الطاعة ، وشأن سماع التفقه من الهداية ، وقد دعاكم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عن الله تعالى لما يحييكم من الأعمال الصالحة ، وأفضلها الجهاد فى سبيل الله ، والقيام بالدفاع عن المهاجمين .

ومنذ ترك المسلمون الجهاد والدفاع والاستعداد له ، تلاشت حياتهم القوميـة ، ومكانتهم الإسلامية كما لايخفى ؛ فيا أيها المؤمنون أجيبوا الدعوة بعناية وهمة وعزيمة وقوة ؛ ولاشك أن العمل بالقرآن ينبوع السعادة ، وأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خزينة الفلاح والنجاح ، وأن طاعته صلى الله عليه وسلم واجبة فى حياته و بعد مماته ، فيما عُلم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذى بعثه الله تعالى به ، كبيانه صلى الله عليه وسلم لصفة الصلاة وعددها ، والمناسك، ومقادير الزكاة ، وغير ذلك من السنن الدينية إلى يوم القيامة .

واعلموا أيها المؤمنون أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ، وهذا تنبيه لأمرين عظيمين أمرنا الله تعالى أن نعلمهما علما يقينيا :

الأول : أن من سنة الله فى البشر الحيلولة بين المرء وقلبه ، الذى هو مركز الوجدان والإدراك ، ذى السلطان على إرادته وعمله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقى على نفسه إذا غفل عنها ، وفرط فى جنب ربه ، كما أنه أرجى ما يرجوه المسرف على نفسه إذا لم ييأس من روح الله فيها ، ومعرفة هذه الجملة تثمر الخوف والرجاء ، فكم من متق مهتد يضل عن الصراط المستقيم ، ويميل إلى مهاوى الجحيم ، بسبب شبهة تزعزع الاعتقاد ، أوشهوة يغلب بها الغى على الرشاد ، فيطيع هواه ، ويتخذه

إلها من دون الله ، على أنه فيه مختار بلا جبر ولا اضطرار كما وقع فى هـذا العصر من بعض معاصرينا ، كعبد الله القصيمى فى كتابه : [هذى هى الأغلال] ، فإنه قد خالف النصوص الصريحة القرآنيـــة ، والأحاديث الصحيحة النبوية ، فى أحد وعشرين موضعا من هذا الـكتاب ، ظاهره الـكفر والزندقة ، بعد أن كان مؤمنا موحدًا يدافع عن الإيمـان والتوحيد وأهله ، و يصارع أهل الشرك والخرافات كما فى مؤلفاته السابقة ، كـكتابه : [الصراع بين الإسـلام والوثنية] و [البروق النجدية] و [شيوخ الأزهر] وغيرها ، ولـكن قد صدق الله العظيم : « أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » ومن جملة الأسباب الظاهرة مصاحبة المتفرنجين والزنادقة ، والطمع فيما عندهم من مال الدنيا .

اللهم ثبت قلوبنا على دينك « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

و يقابل هذا من الحيلولة ماحكى بعضهم عن نفسه : أنه كان منهمكا فى الشهوات والمنهيات ، تاركا لهداه وطاعة ربه ، فنزل يوما فى زورق مع خلان له فى نهر دجلة للتنزه ، ومعهم النبيذ والمعازف ، فبينما هم يعزفون و يشربون ، إذا التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة ، فاستمع له وأنصت حتى إذا بلغ (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) امتلأ قلبه خشية من الله وتدبراً ، لإطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذ العود من العازف فكسره وألقاه فى دجلة ، وثنى بنبذ قنان النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يردد الآية ، وعاد إلى منزله تائبا من كل معصية ، مجتهدًا فى كل مايستطيع من طاعة .

فيا أيها المؤمنون انتبهوا لتذكير الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شئون الإنسان وسنن الله تعالى فى الإرادات والأعمال . وأمره تعالى إيانا بأن نعلمها علم إيقان و إذعان يفيدنا فائدتين لايكمل بدونهما الإيمـان .

الفائدة الأولى : أن لايأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغتر بطاعته ، و يعجب

بنفسه ، وأن لا ييأس العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله وفضله وعنايته ، ومن لم يأمن من عقاب الله ، ولم ييأس من رحمة الله، يكون جديرا بأن يراقب قلبه ، ويحاسب نفسه على خواطره ، ليظل على صراط العدل المستقيم ، متجنبا الإفراط والتفريط ، ويتحرى دائما أن يكون بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات .

الفائدة الثانية : هو تذكر حشرنا إليه عز وجل ، ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا عليها ، إما بالعذاب الأليم ، وإما بالنعيم المقيم . فيا أيها المؤمنون لا تفتروا بظاهر طاعاتكم وعباداتكم ، بل اطلبوا من الله تعالى الدوام والثبات على الإيمان والتوفيق ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، وارزقنا حسن الختام .

الآية السابعة والأربعون فيها أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين الصادقين ناهيا إياهم عن ارتكاب خيانتين كما هو شأن المنافقين يخونون الله ويخونون رسول الله ويخونون المؤمنين ؛ فنهى الله تعالى المؤمنين عن هذه الفعلة القبيحة ، والخصلة الشنيعة ، ففيه عبرة لمنافقي هذا الزمان ، الذين يخدمون أعداء الدين والملة والأوطان ، مع كونهم أمراء في بلاد الإسلام .

وطالعوا يا أيها المؤمنون قصة أبي لبابة واعتبروا بها ، وقد ذكروا في نزول الآية أسبابا ؛ ومهما يكن سبب النزول فالآية عامة تشمل كل خيانة ، ولذلك فسر عبد الله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ما أتمن الله عليه العباد بأن ينقضها .

فيا أيها المؤمنون لا تخونوا الله تعالى بتعطيل فرائضه ، أو تعدي حدوده ، وانتهاك

محارمه التى بيّنها لكم فى كتابه ، ولا تخونوا الرسول بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم ، أوآراء مشايخكم أوآبائكم ، أوالمخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم ، بناء على زعمكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم ، ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم و بين أولياء أموركم من الشئون السياسية ، ولاسيما الحربية ، وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية ؛ فقد ورد فى الحديث : « المَجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ : سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ ، أَوْ فَرْجٍ حَرَامٍ ، أَوِ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ » رواه أبوداود والترمذى وأحمد ؛ وفى حديث جابر رضى الله عنه : « إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهُوَ أَمَانَةٌ » . فإفشاء السر خيانة محرّمة ، وآكد الأمانات السر ، وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين . والخيانة من صفات المنافقين ، والأمانة من صفات المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ » رواه أحمد وابن حبان . وفى المتفق عليه فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ » وزاد مسلم : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » .

فكل مايجب حفظه فهوأمانة ، وكل حق مادى أومعنوى يجب عليك أداؤه إلى أهله فهوأمانة . إن الأمانة من الصفات الدينية التى قام عليها بناء المدنية ، و بها حفظ العمران والإصلاح لحال الأمة ، ولا بقاء لدولة بدونها ، لأن عليها مدار الثقة فى جميع الحالات . قوله (وأنتم تعلمون) أى والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله تعالى إياها وسوء عاقبة تلك المفاسد فى الدنيا والآخرة ، أوتعلمون أن مافعلتموه خيانة لظهوره ، وأما ماخفى عنكم حكمه فالجهل به عذر إذا لم يكن مما عُلم من الدين بالضرورة كفعلة أبى لبابة التى كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد ، وسنذكر القصة فى آخر الباب إن شاء الله تعالى .

ولما كان حب الأموال والأولاد مرديا فى الخيانة ، أعلمنا الله تعالى به عقب النهى عنها فقال : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) الفتنة هى الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أوتركه أوقبوله أو إنكاره ، فتكون فى الاعتقاد والأقوال والأعمال ، يمتحن الله تعالى المؤمنين والكافرين والصادقين ويحاسبهم ويجازيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق أو الباطل ، وعمل الخير أو الشر : وفتنة الأموال والأولاد عظيمة ، لاتخفى على ذى فهم وعقل ؛ فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة فى الأموال بكسبها من الحلال ، وإنفاقها فى سبيل الله ، واتقاء الحرام فى الكسب والإنفاق .

واتقاء خطر الفتنة الثانية فى الأولاد بما أوجب الله تعالى على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدّين والفضائل ، وتجنيبهم أسباب المعاصى والرذائل (والله عنده أجر عظيم) وهذا تذكير من الله المؤمنين بما يُعينهم على مايجب عليهم من اتقاء الفتنتين ، وهو إيثار ماعند الله سبحانه من الأجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه فى الأموال والأولاد ووقف عند حدوده .

فيا أيها المؤمنون خافوا من الله ربكم ولا تخونوا الأمانات ، بل توبوا إلى الله توبة نصوحا ، ولكن من الأسف أننا نشاهد كثيراً ممن يدّعون الإيمان يخونون الله ورسوله فى انتهاك حرمات دينهم من الشركيات ، ودعاء الأرواح والأموات ، والاستغاثة بهم ، ومن الفواحش والفجور ، ويخونون أمتهم ودولتهم بثمن قليل أوكثير من المال يرجونه أو ينالونه من عدوّهم ، وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم ، أوخوفا على مالهم وولدهم ، وقد أسقطت الخيانة دولة كانت أعظم الدول فى الأرض قوة وبأساً بارتكاب رجالها الرشوة والخيانة من أهلها ومن الأجانب ، حتى مسخت من الدين إلى اللادينية ، فصارت دولة صغيرة قصيرة ، ألا وهى تركية اللادينية .

ولكن الخلف المغرور لذلك السلف المخرّب ، يدّعون أنما أسقطها تمالم

الإسلام القويمة لأنها صارت قديمة ، والله العظيم إنهم لو أقاموا واجباً واحداً أو أدباً واحداً من آداب القرآن لكان كافياً لوقايتها من الزوال ، وإنما سبب كل هذه الأمور الجهل بمعانى القرآن كما لايخفى فصاروا من المحرومين .

وأما قصة أبى لبابة رضى الله عنه كما ذكرها ابن كثير فى تفسيره وكذا البغوى وعامة المفسرين ، فقدروى عبد الرزاق وأبو قتادة والكلبى والزهرى أن هذه الآية نزلت فى شأن أبى لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصارى . وذلك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ماصالح عليه إخوانهم من بنى النضير ، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فأبوا ، وقالوا أرسل إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم ، لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم ؛ فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له يا أبا لبابة ما ترى ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ ، فأشار أبو لبابة بيده على حلقه إنه الذبح فلا تفعلوا ، قال أبو لبابة : والله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل المسجد وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد ، وقال والله لاأبرح ولا أذوق طعاما ولاشرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ ؛ فلما بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خبره ، قال أما لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذا فعل مافعل فإنى لا أطلقه حتى يتوب الله عليه ، فمكث سبعة أيام لايذوق فيها طعاماً ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه ؛ فقيل له يا أبا لُبابة قد تاب الله عليك ، فقال لا والله لا أحلّ نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هوالذى يحلنى بيده ، فجاءه فحله بيده ، ثم قال أبولبابة : يارسول الله إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى كله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث فتصدق به » .

وتصدق الآية أيضاً على قصة حاطب بن أبي بلتعة ، وإنما صدر منهما هاتان الخيانتان حبا المال والأولاد ، وعن هذا قال تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها : « أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بِصَبِيٍّ فَقَبَّلَهُ وَقَالَ أَمَا إِنَّهُمْ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ وَإِنَّهُمْ لَمِنْ رَيْحَانِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

وبالجملة وإن رووا فى السبب قصصاً ، فالصحيح أن الآية عامة ، لأنه يؤخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند أهل الحق ، والخيانة تعم الصغار والكبار واللازمة والمتعدية ؛ والأهمّ مايتعلق بالمملكة وحفظ الوطن ، وصيانة كيان الإسلام والمسلمين ، وأهم منها مايتعلق بالدين والإيمان ، كإدخال الشرك والوثنية فى الدين باسم التصوف ، وباسم الولاية ، وباسم الحال ، ورجال الغيب فتنبه .

الآية السابعة والأربعون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إياهم وموصياً بهم أن يتقوا الله فى كل مايجب أن يُتقى بمقتضى دينه وشرعه وبمقتضى سننه فى نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة ، تفرّقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيلون بين الحجة والشبهة ، ويحصل لكم نور البصيرة الذى يفرّق بين الحق والباطل ، وهو الفرقان الحكمى العلمى ، والفرقان العملى الذى هو ثمرة العلمى ، وهذا النور لايحصل ولايصل إليه طالبه إلا بالتقوى ، وقد أمر الله تعالى بالتقوى فى مواضع من كتابه باتقائه ، وباتقاء النار ، وباتقاء الشرك والمعاصى ، وباتقاء الفتن العامة فى الدول والأمم وباتقاء الفشل والخذلان فى الحرب ، وباتقاء ظلم النساء ، وبيّن أن العاقبة فى إرث الأرض للمتقين ، كما أن أرض الجنة فى الآخرة للمتقين ، والتقوى أجرها كثير ، وعاقبتها حميدة ، والتقوى حصولها موقوف على العلم الواسع بمعانى الكتاب والسنة ،

وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى فى الإنسان منفرداً ومجتمعاً ؛ كما أرشد الله تعالى فى آيات كثيرة من كتابه .

ولكن لما دخل الأعاجم فى الإسلام ، وغلبوا على أمور المسلمين ، كأبى مسلم الخراسانى وأمثاله ، وهم جاهلون بمعانى كلام ربهم ، خرجوا عن التقوى الواجبة ، وهم لا يفرّقون بين الحق والباطل ، فأدخلوا فى الدين والإسلام ماليس منه ، فأفسدوا السياسة ، وفرّقوا بين المسلمين ، وجعلوهم مذاهب وفرقا ، وصاروا سبباً لضعفهم وزوال ملكهم ودولهم .

فيا أيها المؤمنون اتقوا الله وتوبوا إليه ، وارجعوا عما أنتم عليه من الشركيات والجهالات والترّهات والتعصبات ، ليكفر الله عنكم سيئاتكم الماضية ويغفر لكم ، والله ذوالفضل العظيم ، فإن تبتم تاب الله عليكم ، ويوفقكم ويعطيكم السعادة والدولة فى الدنيا والآخرة .

الآية التاسعة والأربعون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ، آمراً إياهم بالثبوت عند لقاء العدو وإكثار ذكر الله تعالى قلباً ولساناً ؛ ولاشك أن الثبات يفيد فى كل أعمال البشر ، فهو وسيلة النجاح فى كل شئ ، فأكثروا من ذكر الله فى أثناء القتال وتضاعيفه ، اذكروه فى قلوبكم بذكر قدرته ، ووعده بنصر رسله والمؤمنين ، وكل من يبتغى سنتهم بنصر دينه وإقامة سننه ، وبذكر نهيه لكم عن اليأس مهما اشتد البأس ، وبأن النصر بيده ومن عنده ، ينصر من يشاء وهو القوى العزيز ، فمن ذكر هذا وتأمل فيه لاتهوله قوة عدوه واستعداده لإيمانه بأن الله تعالى أقوى منه ، واذكروه أيضا بألسنتكم موافقة لقلوبكم بمثل التكبير الذى تصغرون بملاحظة معناه كل ماعداه ، والدعاء والتضرع إليه عز وجل مع اليقين بأنه لايعجزه شئ (لعلكم تفلحون) فهذا الفلاح وهذا الرجاء

منوط بالأمرين كليهما ، أى الثبات وذكر الله تعالى ، هما السببان المعنويان للفلاح والفوز فى القتال فى الدنيا ، ثم فى نيل الثواب فى الآخرة ، وكان جنود المسلمين حينما كانوا يسمعون الأذان فى ميدان القتال يبكون بنشيج عال ، ويكرون على الأعداء الكفار ، فكانوا ينصرون ، ولاشك أن تأثير الإيمان فى قلوب الشعب الإسلامى ينفذ إلى أعماق القلوب باستحسان الموت فى سبيل الدفاع عن الدين وعن الوطن ولو لم يكن هناك أمل فى المكافأة ، وهذا هو الشعور الإيمانى ، والوجدان الإسلامى ؛ وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره وحثهم عليه ، ووصف الصادقين به فى آيات أخرى ، كما وصف المنافقين بقلّته ، لأن الذكر غذاء الإيمان فلا يكمل إلا بكثرته ، فمن غفل عن ذكر الله تعالى استحوذ الشيطان على قلبه ، وزين له الشرور والمعاصى .

فيأيها المؤمنون أطيعوا الله ربكم فى هذه الأوامر المرشدة إلى أسباب الفلاح فى القتال وغيره ، وأطيعوا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وينهى عنه من شئون القتال وغيرها ، من حيث إنه صلى الله عليه وسلم هو المبين لكلام الله الذى أنزله إليه على ما يريده الله تعالى منه ، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم ، (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) هذا النهى مساوق للأمر بالثبات وكثرة الذكر وبطاعة الله والرسول ، ومتمم للغرض منه ؛ فإن الاختلاف والتنازع مدعاة الفشل ، وهو الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر ، وتذهب ريحكم وقوتكم فيظهر عدوكم عليكم (واصبروا إن الله مع الصابرين) بالمعونة والتأييد ، ومن كان الله معه فلا يغلبه شىء .

فيا أيها المسلمون كونوا مؤمنين عاملين بهذه الإرشادات الربانية ، ولا تغتروا بسفاسف الفلاسفة ، وترّهات الملاحدة ، واجتهدوا فى العمل بالأوامر الإلهية ، وكونوا صابرين عليها حتى تنالوا الدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، والمسلمون منذ تنازعوا واختلفوا ، وصاروا مذاهب وطرقا يتعصب بعضهم لبعض ، صاروا يعادى بعضهم بعضاً ، ويضلل بعضهم بعضاً ، قد ذهبت ريحهم ، وتلاشت قوتهم ، وصاروا طعمة

لكلاب الإنكليز ، وخنازير الروس والبلاشفة ، وذئاب الطليان والفرنسيس ، ولكن العجب أنهم لاينتبهون ، وعن سكرتهم لايفيقون ، بل فى غيهم وطغيانهم يعمهون ، قد أعماهم الجهل ، وأضلهم الفكر الفاسد ، والخيال الكاسد .

فيأيها المسلمون اتركوا المذاهب المبتدعة ، والطرق الوثنية كلياً ، وا كتفوا كلكم جميعاً بالتمذهب بمذهب الإمام الأعظم على الإطلاق بالاتفاق سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة وعملا ، فحينئذ تتحدون وتتفقون فتفوزون وتسعدون ، وتقوون وتنصرون ، وتؤيدون بالنصر الإلهى وهذا هو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

الآية الخمسون فى سورة التوبة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهيا إياهم عن اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء إن هم أصروا على كفرهم ، وآثروه على الإيمان ، لأن باختلاف الدين تنقطع العلاقة ؛ فلا ينبغى للمؤمن أن يوصل هذه العلاقة المقطوعة ، والكافر من حيث إنه كافر لايحب المؤمن من حيث إنه مؤمن ، فلهذا إذا تولى وأحب العبد المؤمنُ الكافرَ ولو أباه أوأخاه فقد ظلم نفسه بوضع الحب فى غير موضعه ، والمؤمن يحب الله ورسوله أشد من حبه نفسه ، فضلا عن حب أبيه وأخيه ، فلهذا يجاهد فى الله ويقاتل ولو مع أبيه وأخيه وأقربائه الكافرين ؛ فمن ترك الجهاد فى سبيل الله لأجل رعاية آبائه وأبنائه وإخوانه وأزواجه وعشيرته ، أولأجل حفظ أمواله وأملاكه وتجارته وكسبه ، أومساكنه العالية ، وقصوره الفاخرة ، وبساتينه الزاهرة ، وقدم حب هذه الأشياء على حب الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فليتربصوا ولينتظروا حتى يأتى الله بأمره .

وهذا وعيد لهم ، لتذهب أنفسهم فيه كل مذهب ؛ ولا شك أن الذين يؤثرون

حب أهلهم وأموالهم على حب الله ورسوله وجهاد فى سبيله منافقون ، ولا يصدر هذا إلا عن المنافقين ؛ ولا ريب أن الذين اتصفوا بتلك الصفات غير تامى الإيمان أو غير صحيحه ؛ ومن آثر حب هذه الأشياء على حب الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فهو من المحرومين من الهداية الفطرية التى يعرفها الإنسان بالعقل السليم ، والوجدان الصحيح ، وهم من المحرومين من الصلاح والإصلاح ، والفوز بسعادة الدارين ، الحاصل من حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، وبه يحصل الولاء والاتحاد بين المؤمنين ، فتزول خرافات الشرك ومفاسده ، ويقام الحق والعدل كما لايخفى .

فيأيها المؤمنون ارجعوا إلى حب ربكم ، واجتهدوا فى فهم كلامه وخطابه ، لأنه خاطبكم وأمركم ونهاكم ، فلا تكفروا هذه النعمة العظمى ، والدولة الكبرى ، ولاتضيعوا أعماركم وأنفاسكم بسفاسف الهوى وترّهات الآراء ، وخذوا حظكم من نعم ربكم ولا تكونوا من المحرومين ، والمردودين الخاسرين ، فلا ينفعكم آباؤكم ولا أبناؤكم ولا أموالكم وجاهكم ، ولاساداتكم وشيوخكم ، ولا مذهبكم وطريقتكم ، (يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أى سليم من الشرك ، وسليم من الكفر ، وسليم من النفاق ، وسليم من الشك ، وسليم من الزندقة ، وسليم من الرياء . اللهم ارزقنا قلباً سليما ، وإيماناً ثابتاً ، وتوحيداً خالصاً ، ولساناً ذاكراً آمين .

الآية الحادية والخمسون فى سورة التوبة أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

قدنادى الله تعالى وخاطب المؤمنين منبهاً إياهم بأن المشركين أنجاس فلاتتركوهم يقربون المسجد الحرام ويقيمون فيه ، ولفظ النجس إذا وصف به الإنسان ، فالمراد به أنه شرير خبيث النفس ، وإن كان طاهر البدن والثوب حسا ، فى المثل : الناس أجناس ، وأكثرهم أنجاس ، نجستهم الذنوب ، فلاترى أنجس من المشرك والكافر ؛ فمعنى الآية يأيها المؤمنون اعلموا أن المشركين ليسوا كما تعلمون من ظاهر حالهم

بل هم أنجاس فاسدو الاعتقاد ، يشركون بالله مالا ينفع ولا يضر، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام ، ويدينون بالخرافات والأوهام ، ولا يتنزهون عن النجاسات والآثام ، ويأكلون الميتة والدم ولحم الخنزير ، ويستحلون القمار والزنا من الأرجاس ؛ وقد تمكنت صفات النجس منهم حسا ومعنى حتى كأنهم عينه وحقيقته فلا تمكنوهم بعد هذا العام ، عام تسع من الهجرة ، وثانى عام الفتح ، أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم ، فضلا عن دخول البيت نفسه، وطوافهم عراة فيه ، يشركون بربهم فى التلبية ، وإذا صلوا عند البيت لم تكن صلاتهم إلا مكاء وتصدية .

وقد روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَلَا أَتْرُكُ فِيهَا إِلَّا مُسْلِمًا » وفى رواية : « أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ » ولم يتفرّغ لذلك أبو بكر رضى الله عنه ، وأجلاهم عمر رضى الله عنه فى خلافته ، وأجّل لمن يقدم تاجراً ثلاثاً . وعن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ » أخرجه مالك فى الموطأ ؛ لأن إقامتهم لاتخلو عن إيقاع فتنة ، وإفساد عقيدة وأخلاق ، وهذا ظاهر بيّن .

ويأيها المؤمنون إن خطر ببالكم أنكم إذا منعتم المشركين تنقطع عنكم الأرزاق فتقعون فى الضيق والفقر ، فاعلموا أن الله الكريم الرزاق يغنيكم من فضله ، وفضله تعالى كثير ؛ والمنافقون فى كل عصر وزمان يُلقون الشبهة فى قلوب الناس ، فحيث إن أكثر الناس ضعيفو الإيمان يميلون إلى الكفار ويعتمدون عليهم ، ويرضون بدخولهم فى أرض الحرمين ، فهم يفسدون دينهم وعقيدتهم شيئاً فشيئا ، كما هو معروف فى الشريف حسين وأحزابه .

إن الله تعالى عليم بحقائق الأمور ، وما فى الصدور ، وحاجات عباده ، وحكيم فيما شرعه من الأمر والنهى . فآمنوا بالله وامتثلوا أمره صدقاً وإخلاصاً تروا فضل

الله دارًا عليكم بتسخير عباده لكم وتمهيد سبيل المِلك والمُلك ، وبسط الرزق ، ويزيدكم نصراً وغنى إذا وفيتم بما شرطه عليكم بمثل قوله : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ) اللهم اهدنا فيمن هديت يارب العالمين .

الآية الثانية والخمسون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهًا إياهم بأن كثيرًا من العلماء والعبّاد والمشايخ والسادات ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويمنعونهم عن السلوك فى سبيل الله وسبيل الحق والطاعة . وحيث إن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ورفعوهم فوق قدرهم ، وافتتن هؤلاء العلماء والعبّاد واغتروا ففسدوا ، فأراد الله تعالى أن يبيّن لنا شيئاً من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء الدينيين العلمية والعملية ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ، والأسباب التى تحملهم على محاولة الصدّ عن سبيل الله تعالى وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم ، واستعمل أكل الأموال بمعنى أخذها والتصرف فيها بوجوه الانتفاع ، وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثير منهم دون جميعهم من دقائق تحرّى الحق فى عبارات الكتاب العزيز ، فهو تعالى لايحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أوظلمهم ، بل يُسند ذلك إلى الكثير أو للأكثر . والمعنى العام لأكل أموال الناس بالباطل هو أخذها بغير وجه شرعىّ : فمنها مايبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله زاهد فى الدنيا ، ليدعو لهم ويشفع لهم عند الله فى قضاء حاجاتهم ، وشفاء مرضاهم ، لاعتقادهم أن الله تعالى يستجيب دعاءه ولا يردّ شفاعته .

الدعاء مشروع دون أخذ المال به أو عليه ، والرجاء باستجابته حسن ، واعتقاده بالجزم جهل ، أو لظنهم أن الله تعالى أعطاه سلطانا وتصرفاً فى الكون ، فهو يقضى الحاجات من دفع الضر عمن شاء وجلب الخير لمن يشاء متى شاء ، وهذا هو اعتقاد الوثنيين فى أوثانهم ومعبوداتهم ، قد طرأت على أتباع الأنبياء عليهم السلام بدسائس الدخيل فيهم ، وتأوّلها لهم الرؤساء الدينيون المضلون ، بأنها لاتنافى التوحيد الذى جاء به الرسل عليهم السلام .

ومنها ما يأخذه سَدَنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التى بُنيت بأسمائهم من الهدايا والنذور التى يحملها إلى تلك الأماكن أمثال من ذكرنا ممن لايعقلون معنى التوحيد الخالص ، والنصارى يبنون الكنائس والأديار بأسماء القديسين والقديسات فتُحبس عليها الأراضى والعقارات ، وتُقدّم لها النذور والهدايا تقرباً إلى تلك الأسماء والمسميات . وهذا وما قبله مما اتبع المسلمون فيه سننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، ويدعون تلك الأسماء مع الله تارة ، ومن دونه تارة ، وينذر له وحده تارة ، ومع الله تارة . فهذه البدع الشركية تتبرأ منها أديان الأنبياء الموحاة إليهم من الله عز وجل ، والنفقة فيها كلها من الباطل ، وآكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

ومنها مايأخذه بعض قسوس نصارى الكاثوليك جُعلا على مغفرة الذنوب أو ثمنا لها ، وكذا مايأخذه دجاجلة من يدعى الإسلام على بعض التمائم ، وذلك أنه إذا اشتراها الزانى أو الزانية بثمن كذا وعلقه على نفسه يُغفر كل ذنوبه ، ومنها مايأخذه العلماء الدجالون على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال . فأولو المطامع والأهواء يفتون الملوك والأمراء والأغنياء بما يُساعدهم على إرضاء شهواتهم ، والانتقام من أعدائهم بضروب من الحيل والتأويل .

ومنها الرشوة وهو مايأخذه صاحب السلطة الدينية أوالمدنية رسمية أو غير رسمية

من المال وغيره لأجل الحكم ، أوالمساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل ، ومنها الربا خصوصاً الفاحش منه ، وهو فاشٍ عند اليهود والنصارى ، وقد تعامل بمعاملتهم بعض فقهاء المسلمين ، وخصوصاً فى بخارى وماوراء النهر فإن أكثرهم يعاملون بالربا مع حيلتهم الشرعية الشرّية الملعونة ، وأكثر هؤلاء لايعطون الزكاة المفروضة بل يأخذونها ، ويتعللون بعلل شيطانية ، وفتاوى إبليسية ، كأنهم خارجون عن خطاب (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) ، ومنها قراءتهم القرآن لأجل المال ، وإهداء ثوابها إلى روح من يريده المستأجر ، وغيرها من الأمور التى لاتخفى على العالم بالدين ، فإنا لله و إنا إليه راجعون .

وأما صدُّهم عن سبيل الله ، فهو منعهم الناس عن الإسلام ، فإن سبيل الله فى الدين هى طريق معرفته الصحيحة ، وعبادته القويمة التى ترضيه ، ورأس معرفته التوحيد والتنزيه ؛ وأما أكثر الأحبار والرهبان فمشركون غير موحدين ، ومشبّهون غير منزّهين ، كما علم من الآيات السابقة ؛ وأما عبادته القويمة فهى أن يُعبد وحده بما شرعه هو دون البشر ، وهم قد غيَّرُوا و بدّلوا وأحدثوا ؛ فمعرفة الله تعالى وعبادته على الوجه الحق المرضى له تعالى محصورة فى الإسلام الذى حفظه الله تعالى بكتابه المنزل ، وما بيّنه من سنة نبيه المرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

وكل ما ابتدعه جهلة المسلمين والكائدون له من غيرهم ، فالقرآن الحكيم والسنة الصحيحة حجة على بطلانه ، وحفّاظ السنة وأنصارها ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وأما طرق صدهم عن الإسلام والتوحيد الصحيح فهى تختلف باختلاف الزمان والمكان والإمكان ، وقد انفرد النصارى بالعناية بهذا الصد من طريق السياسة والدعوة معا ، وقد أتى الله تعالى بصيغة المضارع الذى يدل على الحال والاستقبال ، وهم لايقنعون بصد أهل ملتهم عن الإسلام ، بل يصدون أهله عنه ، كما صدوا الأتراك الكماليين ، ودعوهم إلى دينهم الملفق من الأديان الوثنية والدهرية ، وقد

اشتدت ضراوتهم بعد الحرب العامة عام ١٩١٦ بسلب البلاد الإسلامية ما بقى من استقلالها ، وتعميم النصرانية فى جميع أهلها حتى جزيرة العرب ، وقد سخّروا بعض أمراء المسلمين المستعبدين ، وشيوخ الطرق والفقه المنافقين الدجالين لشد أزرهم ، فماذا نقول بعد هذا من تسخيرنا زنادقتهم وملاحدتهم ، وماذا يفيد المسلم من قراءة مثل هذه الآية ، ومن تفسير علماء الألفاظ والروايات لها إذا لم يعرف مضمونها التفصيلى العملى فى عصره ، ويسعى لتدارك خَطْبه ، فلا يكون القرآن إلا حجة عليه .

واشتد طريق الصد عن الإسلام ، وأشرّه وأضرّه تعليم المدارس التى يفسدون عقائد النشء الذى يتعلم ويتربى فيها ، ولكن أكثر مسلمى زماننا لا يعقلون كنه مفاسدها وسوء عاقبتها فى الدين والأدب ، وسياسة الأمة واستقلالها ، ومن الصادين عن الإسلام الصحيح والدين الحق شيوخ الطرق ، وأصحاب الدجل ، وسدنة المشاهد والقبور ، فإنهم لانغراقهم فى ظلمات الشرك والجهل والغباوة والترّهات ، يصدون الناس عن الحق ، وعن التوحيد الصحيح ، وعن العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والجهال يظنون فيهم الصلاح والدين والخير ؛ والحال أنهم صاروا من شياطين الإنس ، كما هو المشاهد فى جميع أنحاء العالم الإسلامى حتى فى الحرمين ، وهؤلاء العلماء والشيوخ والسادات وإن ادعوا أنهم ورثة الأنبياء ، وقدوة الأنام ، ولكن لسان حالهم ، وشاهد فعالهم يترنم بهذا البيت :

وكنتُ فتًى من جند إبليس فارتقى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

أعاذنا الله تعالى من شرهم ، ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن شر كل ذى شر .

وإن هؤلاء الرؤساء السوء من العلماء والمشايخ الذين يجمعون الأموال ويكنزون الذهب والفضة والجواهر ، ويبنون القصور ، أخبر الله عنهم فقال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) مقتضى السياق أن تكون هذه الجملة فى الكثير من الأحبار والرهبان ، الذين

يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، كما نص عليه معاوية رضى الله عنه ، فكل من اتصف بهذه الصفة فهو داخل فى الوعيد من الأمم السابقة أو من هذه الأمة ، كما قال أبو ذر رضى الله عنه : نزلت الآية فينا وفيهم جميعاً وهو الحق ، لأن اللفظ مطلق فيجب جريانه على إطلاقه وعمومه . ولا شك أن أكبر أسباب ضعف المسلمين وذهاب دولتهم ، وتمكّن أعدائهم من سلب ملكهم ، ومحاولة تحويلهم عن دينهم ، هو حرص علمائهم ومشايخهم على الدنيا وبخل أغنيائهم ، وجبن ملوكهم وأمرائهم وقوادهم وزعمائهم ، وكونهم جاهلين بمعانى كلام ربهم ، ولقد صدق الذى قال : حب الدنيا رأس كل خطيئة .

فيأيها المؤمنون افهموا كلام ربكم ، ومواعظ مولاكم ، واعتبروا بما جرى وما يجرى واجتهدوا فى إصلاح أنفسكم لتنالوا رضى ربكم ، فتفوزوا بسعادة الدنيا وإلا تكونوا من المحرومين الخاسرين فى الدارين ، كما هو شأن أكثر المغرورين فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الآية الثالثة والخمسون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بالاستفهام الإنكارى والتوبيخ ، وإن كان سبب النزول فى واقعة تبوك ، ولكن الخطاب عام لعامة المؤمنين أجمعين ، تربيةً لهم وتنبيهاً إياهم أن لا يقعدوا عن الجهاد ؛ لأن القعود عن الجهاد من شأن المنافقين .

وحاصل المعنى : يأيها الذين دخلوا فى الإيمان واتصفوا به ماذا عرض لكم مما ينافى صحة الإيمان أو كماله المقتضى للإذعان والطاعة ، حين قال لكم الرسول : انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ، والقضاء على دينكم الحق ، الذى هو السبيل الموصل إلى معرفة الله وعبادته ، وإقامة شرعه وسننه ، فأنتم تثاقلتم عن النهوض بالنشاط وعلو الهمة ، مخلدين إلى أرض الراحة واللذة ؛

والحال أن آية الإيمان بذل الجهد بالمال والنفس فى سبيل الله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

أرضيتم أيها المؤمنون بالحياة الدنيا من الآخرة ، أى براحة الحياة الفانية الدنيئة ولذتها الناقصة ، بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية الدائمة ، إن كان الأمر كذلك فقد استبدلتم الذى هو أدنى وأدنى بالذى هو خير وأبقى ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، فلا يرضاه عاقل بدلا منه ، وإنما يؤثره عليه من لا يؤمن به ، وقد مضت سنة الله تعالى بأنه لا بقاء للأمم التى تتثاقل عن الدفاع عن نفسها ، وحفظ حقيقتها وسيادتها .

فيأيها المؤمنون استعدوا للدفاع والجهاد كما أمر الله تعالى الحكيم ، ولا تعتمدوا على الأرواح الخاليات ، والأجساد البالیات ، ولا قراءة دلائل الخيرات ، أو حزب النصر والبحر ، أو قراءة صحيح البخارى بدون فهم ولا عمل بما فيه ، فإن كلها من دسائس شياطين الإنس ليجعلوكم محرومين من الدولتين والسعادتين الدنيوية والأخروية ؛ فانتبهوا وارجعوا إلى أصل دينكم وكلام ربكم ، وهداية رسوله الأمين سيدنا محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

الآية الرابعة والخمسون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ، آمراً إياهم بأن يتقوه ، ويكونوا مع الصادقين ، وإنما إمام الصادقين هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكونوا معه ملازمين إياه ، وممتثلين أمره فى غزواته وكل حالاته ، وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه « وكونوا من الصادقين » وعلى أى حال أيها المؤمنون اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل الله لكم فرجا ومخرجا فى كل أموركم

(وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ ، وَلاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا » رواه الشيخان وأصحاب السنن وأحمد .

والصادقون حقيقة هم الذين صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم وأعمالهم ، وامتثلوا أمر ربهم عن صميم قلوبهم ، والصادق هو الفالح فى الدارين ، والكاذب هو الخاسر فى الدارين ، وساقط الاعتبار فى الخافقين ، وممحوق البركة ، ولكن الأسف أن كثيراً من المسلمين ، بل من هم على زىّ العلماء والأئمة والمدرسين قد اتخذوا الكذب شعارهم ، والنفاق دثارهم ، لا يستحيون لا من الله ولا من بنى نوعهم ؛ حتى إن الكفار يطعنون عليهم و يعيبونهم .

فيأيها المسلمون أنتم المخاطبون المأمورون بالتقوى والصدق ، فلماذا صرتم من المحرومين من هذه الصفة الكريمة ، وصرتم أسارى النفس والشيطان والهوى ، ولوّثتم أنفسكم بصفات أهل الخبث والجفاء ؛ فأفيقوا ياإخوانى من سكرتكم ، وتوبوا إلى الله جميعاً توبة نصوحا ، وكونوا من الصادقين ومع الصادقين .

الآية الخامسة والخمسون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم بقتال من يليهم من الكفار إذا غدروا أوتعدّوا ، وآمرًا أيضاً بأن يعاملوهم معاملة غليظة بالشدة والبطولة والشجاعة

دون الرعونة والجبن والكسل ؛ فيأيها المؤمنون قد أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أوّلا فأولا ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ؛ ولهذا قد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين فى جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم — وقد فتح الله تعالى عليه مكة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر ، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر العرب فى دين الله أفواجا — شرع فى قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ، ثم رجع لأجل جهد الناس ، وجدب البلاد ، وضيق الحال الخ .

ثم قام بعده صلى الله عليه وسلم خليفتاه أبو بكر ثم عمر رضى الله تعالى عنهما ، فغزوا الروم عبدة الأوثان والصلبان ، والفرس عبدة النيران ، ففتح الله تعالى البلاد ببركة خلوص نية هؤلاء المخلصين وهكذا (وليجدوا فيكم غلظة) فإن المؤمن الكامل الإيمان هو الذى يكون رفيقاً لأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر ؛ قال الله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، و (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) . وفى الحديث : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أَنَا الضَّحُوكُ الْقَتَّالُ » الضحوك فى وجه المؤمن ، والقتّال لعامة عدوّه الكافر .

ولكن الأسف أن المسلمين لما جهلوا أمر ربهم ، وحقيقة دينهم وشرعهم ، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، انعكسوا فعكسوا الأمر ، بحيث صاروا خاضعين متواضعين للكفار والمنافقين ، وغليظى المعاملة ، وعبوسى الوجوه للمؤمنين ، فلهذا أذلهم الله تعالى تحت سيطرة الكافرين والمنافقين (واعلموا أن الله مع المتقين) فأنتم أيها المؤمنون إذا اتقيتم الله تعالى وأطعتموه وامتثلتم أمره فالله معكم فتكونون منصورين وغالبين مفلحين وناجحين وفائزين فى الدنيا والآخرة .

ولما كان أهل القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة فى غاية الاستقامة ،

والقيام بطاعة الله تعالى ، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء فى سفال وخسار . ولما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات ، وغلب الجهل على العلم ، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ، طمع الأعداء فى أطراف البلاد ، وتقدموا إليها حتى أخذوا بلداناً كثيرة ، ولايزالون يستحوذون على كثير من بلاد الإسلام .

وكلما قام ملك من ملوك المسلمين وأطاع أوامر الله وتوكل على الله ، فتح الله عليه من البلاد ماشاء بقدر مافيه من ولاية الله ، كما هو المشاهد المعلوم ؛ كما فتح الله تعالى للسعوديين الوهابيين ولايات الحجاز والحرمين وعامة جزيرة العرب لنصرهم دين الله ، وقيامهم بتوحيد الله حق القيام ؛ فاللهم ثبتهم على الحق ، وأيدهم بتوفيقك ، وأيد دولتهم إلى الأبد على الصراط المستقيم آمين .

وأما إذا انحرفوا عن الصراط المستقيم الذى ميزانه القرآن وسنة المصطفى ، سلب الله تعالى عنهم الدولة ، وسلط عليهم غيرهم حتى يذوقوا الذل ، ويحقروهم تحقيرا ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ — وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

فيأيها المسلمون اتقوا غضب الله وعذابه وانتقامه ، أنتم المأمورون بالتقوى ، وأنتم المأمورون بأن تعلموا وتفهموا أوامر الله ، ولكنكم ضيعتم أهليتكم ، واكتفيتم من كتاب الله بتلاوته ، وتزيين حروفه وخطوطه ، من غير فهم معناه ، وتدبر ما فيه من الحكم والمواعظ والعبر ؛ فاتقوا الله ، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ومن الصادقين عسى الله تعالى أن يفتح عليكم باب فضله بفضله ومنه ، إنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

الآية السادسة والخمسون فى سورة إبراهيم : ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ .

قد أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلّغ لعباد الله المؤمنين أن يقوموا لله بطاعته وأداء حقه ، والإحسان إلى خلقه مما أعطاهم الله تعالى بأن يقيموا الصلوات الخمس مع المحافظة على أدائها فى وقتها وحدودها وركوعها وسجودها وخشوعها ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، و بأن ينفقوا مما رزقهم الله تعالى بأداء الزكاة ، والنفقة على القرابات ، والإحسان إلى الأجانب فى السر والعلانيـة ، وليبادروا إلى ذلك فى حياتهم لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتى يوم الجزاء ، وليعلم أنه لا بيع فى ذلك اليوم ولا خلال ، بل هناك العدل والقسط ، إن الله تعالى قد علم أن فى الدنيا بيوعا وأموالا وخلالا يتخالون بها ؛ فلينظر الرجل من يخالل ، وعلام يصاحب ؟ فإن كان لله فليداوم ، و إن كان لغير الله فسيقطع عنه ، فلا ينفع هناك أحدا بيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده ، ولا تنفعه صداقة أحد ، ولا شفاعة أحد ، إن لقى الله كافرا .

فيأيها المؤمنون وحدوا ربكم واعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، ولا تغتروا بترّهات الدجالين ، ووساوس الشياطين ، وخرافات شيوخ الطرق ، وعلماء السوء ، بل اجتهدوا فى فهم كلام ربكم الحكيم الرحيم ، وسنة نبيكم المبعوث رحمة للعالمين لتفوزوا .

الآية السابعة والخمسون فى سورة الإسراء : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً) .

يأمر الله تعالى عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك ، نزغ الشيطان بينهـم ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته ، ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده ، أى فربما أصابه بها ؛ وقد روى أحمد فى مسنده بسنده عن الحسن رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى أرفلة

من الناس ، فسمعته يقول : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هٰهُنَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ، وَمَا تَوَادَّ رَجُلاَنِ فِي اللهِ فَتَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا إِلاَّ حَدَثٌ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا ، وَالْحَدِيثُ شَرٌّ ، وَالْمُحْدِثُ شَرٌّ ، وَالْمُحْدِثُ شَرٌّ » .

وكان الكفار يؤذون المسلمين فأمرهم الله تعالى أن يقولوا : التى هى أحسن ولو للكافرين ، ولا يكافئوهم بسفههم ؛ ولهذا قد قال صلى الله عليه وسلم : « قُلِ الْخَيْرَ وَإِلاَّ فَاسْكُتْ» و«مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ» . وقال الله تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) . وقال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) ؛ فالإسلام كله حسن ، ولكن الأسف أن أكثر المسلمين مبتلون باستعمال الأقوال الشنيعة والألفاظ القبيحة، لجهلهم بمعانى كلام ربهم، وآداب رسولهم ، وأخلاق نبيهم ، بل جهلهم بالحقوق الإنسانية المميزة عن الأفعال الحيوانية والدرجات البهيمية ، فساءت تربيتهم ، وفسدت أخلاقهم كما لايخفى .

الآية الثامنة والخمسون فى سورة الحج : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم بثمانية أشياء : الأول الركوع والثانى السجود ، والثالث العبادة ، والرابع فعل الخير ، والخامس الجهاد فى سبيل الله حق جهاده ، والسادس إقامة الصلاة ، والسابع إيتاء الزكاة ، والثامن الاعتصام

بالله و بكتابه ؛ فالواجب المحتم على العبد المؤمن أن يقوم بهذه الأشياء حق القيام ، و يؤديها لله تعالى مراعياً شرائطها وأركانها وآدابها فى أوقاتها .

فالركوع عبادة فلا يركع إلا لله ؛ فمن ركع لغير الله فقد كفر ، وأشرك فى عبادة الله غيره ، كما يفعله أهل الصين المجوس عند ملاقاة ملوكهم وأمرائهم وكبرائهم وأغنيائهم وعلمائهم ، فإنهم ينحنون لهم انحناء فاحشاً ، وكذا مسلمو تلك البلاد ينحنون و يركعون لأكابرهم ، و يسمون من لا ينحنى ولا يركع ، بل يسلم سلام السنة متكبراً لا يعرف الأدب ؛ وكذا السجود عبادة فلا يسجد إلا لله وحده ، فمن سجد لغير الله من مَلَك أو مَلِك أو قبر أو وثن فقد كفر وأشرك بالله غيره فى العبادة ، كما يفعله غلاة البُهرة لسيدهم ، وجهلة الصين والهند واليابان لملوكهم ، وجهلة المسلمين لقبور أوليائهم ومشايخهم ؛ والعبادة بأنواعها حق لله وحده من دعاء ونذر واستغاثة وغيرها من أنواع العبادات ، فمن عبد غير الله فقد كفر وأشرك ، كالذين يدعون عبد القادر الجيلانى و يستغيثون به مثلا ؛ وفعل الخير لله تعالى ، والخير كل ما أمر الله تعالى بفعله ، بصريح آياته أو بسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن فعل خيرا لغير الله فقد راءى وأشرك ، وكذا الجهاد فى الله تعالى حق جهاده بالمال والنفس واللسان ، لأنه عز وجل قد اجتبى المسلمين لهذه الدولة العظيمة من بين سائر الناس ، وشرّفهم بدينه الإسلام وملة خليله إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وجعل هذا الدين سهلا سمحاً لا حرج فيه أصلا ، فشكرًا لله تعالى أقيموا الصلاة لله ، وآتوا الزكاة لله إلى فقراء المسلمين من غير حيلة ، واعتصموا أيها المسلمون كلكم بالله ، وتوكلوا عليه حق التوكل ، واعملوا بما أمر فى كتابه ، و بيّنه رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم ، وهو تعالى مولاكم ، وحافظكم وناصركم على الأعداء ، فنعم المولى ونعم النصير .

واعلم أن كل ما أمر الله تعالى بفعله فهو العبادة والطاعة ، ففيه الثواب والأجر عند الله ، وكل ما نهى عنه فهو المعصية ، فعليك أيها العبد المؤمن بامتثال ما أمر ،

والانتهاء عما نهى ، فإذا فعلت هكذا فأنت العبد المؤمن حقا ، جعلنى الله تعالى و إياك من عباده المؤمنين الصادقين .

الآية التاسعة والخمسون فى سورة النور : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ، وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن اتباع خطوات الشيطان : أى ما زيّنه الشيطان من طرق الكفر والشرك والمعاصى، لأن من يتبع طرق الشيطان ويذهب مذاهبها فإنه يأمر البتة بالفحشاء والمنكر، ومنه القول على الله بغير علم، ومن الوسائل الشركية ، والاعتقادات الوثنية ، فكل معصية من خطوات الشيطان ، والنذر للمخلوق من خطوات الشيطان ، ونذر المعصية من خطوات الشيطان ، وتحريم الحلال من خطوات الشيطان ، واليمين الفاجر الغموس من خطوات الشيطان ودعاء غير الله من الأموات ، والأرواح من خطوات الشيطان ، والاستعانة من الملائكة والأرواح والأموات من خطوات الشيطان .

فيأيها المسلمون لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم ، ولا اهتدى إلى الإيمان والحق من أحد أبدا ، بل لكان ابتلى وتلوّث بدنس الشرك والمعاصى كبيرها وصغيرها ، كما ابتلى بها كثير ممن يدعى الإسلام ، بل لم يتصف بالزهد والتصوف والتقوى أحد من المسلمين الجغرافيين من أهل الهند والترك والتركستان والصين، ولكن الله يزكى من يشاء من خلقه، فيزكى نفوسهم و يطهرها، فيحفظها من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من عقائد زائفة ، وأخلاق رديئة ، (والله سميع) لأقوال عباده ، و(عليم) بمن يستحق منهم الهداية والتوفيق والضلال والردى، فيعطى كلا استحقاقه .

فيأيها المسلمون لاحظوا هذه الآيات وتفكروا فى معانيها ، وتدبروا فى أسرارها ، فإنكم أنتم المخاطبون المكلفون بهذه الأوامر ، فإذا تساهلتم وتجاهلتم كما أنتم عليه

اكتفاء بأقوال الناس وترّهاتهم ، فالخسار والبوار نازل بكم لا محالة .

الآية الستون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ، ناهياً إياهم عن دخول بيت الغير بلا إذن و بلا سلام ، ومنع من الدخول بلا إذن ، فانظر يأيها المسلم إلى هذه الآداب الشرعية الإلهية ، التى أدّب الله تعالى بها عباده المؤمنين ، أمرهم الله تعالى أن لايدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا : أى يستأذنوا قبل الدخول و يسلموا بعده ؛ و ينبغى أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له دخل و إلا انصرف ، كما ورد بهذا المعنى أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

وروى أبوداود فى سننه بسنده عن عبد الله بن بشر رضى الله عنه قال : « كانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بابَ قوم لم يستقبل البابَ من تلقاء وجهِهِ ، ولكنْ منْ رُكنهِ الأيمنِ أوالأيسرِ ، و يقول: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، السَّلامُ عَلَيكُمْ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّما جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنَ أَجْلِ النَّظَرِ » وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ مِنْكَ فَحَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ » .

وعن جابر رضى الله عنه قال : « أَتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى دَينٍ كانَ على أبى ، فدقَقْتُ البابَ ، فقالَ مَنْ ذَا ؟ فقلت أنا ، قال : أَنَا أَنَا ؛ كأنه كرهه » ، و إنما كره ذلك ، لأن هذه اللفظة لايُعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها ، و إلا لايحصل المقصود من الاستئذان الذى هو الاستئناس المأمور به وروى أبوداود عن صفوان بن أمية رضى الله عنه قال . « دخلتُ عَلَى النبيِّ صلى الله

عليه وسلم ولمْ أُسلِّم ولم أستأذِن ، فقال صلى الله عليه وسلم : ارْجِعْ فَقُلِ السَّلَامُ عَلَيكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ »

فيأيها المؤمن تأدب بالأدب الذى أدبك الله به تكن إنساناً كاملا ، لأن ربك رءوف رحيم جل جلاله .

الآية الحادية والستون فى هذه السورة أيضاً : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) .

وهذا خطاب وأمر للمؤمنين بواسطة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يغضوا من أبصارهم عما حرَّم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغمضوا أنظارهم وأبصارهم عن المحرمات والأجنبيات ، فإن اتفق أن وقع النظر على محرّم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما رواه مسلم فى صحيحه عن جرير ابن عبد الله البَجلى رضى الله عنه قال : « سألت النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة ؟ فأمرَنى أنْ أصرِفَ بصرِى » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : « يَا عَلِيُّ لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَ لَكَ الْآخِرَةُ » رواه الترمذى .

ولاشك أن النظرة وخصوصاً إلى المرأة الحسناء ، والأمرد الجميل الوجه ، داعية إلى فساد القلب ، ومحرّكة للشهوة ، ولذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بحفظ الأبصار ، كما أمرهم بحفظ الفروج ، لأن النظر باعث إلى ذلك (ذلك أزكى لهم) أى غض البصر وحفظ الفرج أزكى وأطهر لقلوبهم ، وأنقى لدينهم ؛ ولهذا كان السلف الصالحون ينهون أن يُحدّ الرجل نظره إلى الأمرد الصبيح الوجه ، وهذا هو سر احتجاب النساء عن الأجانب ، ولكن الأسف أن كثيراً ممن فى قلوبهم مرض أباحوا النظر إلى الأجنبيات والمردان الحسان الوجوه ، وأباحوا لهن كشف وجوههن وإظهارهن زينتهن للأجانب وعندهم ، فلهذا قد كثر الزنا واللواط فيما بين الناس ، وخصوصاً فيما وراء النهر ، فإنهم صاروا يفتخرون بهذا الفعل القبيح ، وحتى بعض

العلماء والمدرسين يخصصون لأنفسهم أماردة حسان الوجوه و يسمونهم باسم «مَحْرَمْ» فإنا لله و إنا إليه راجعون .

الآية الثانية والستون فيها أيضاً : (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ) إلى أن قال : (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

هذا أمر من الله تعالى بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم للنساء المؤمنات وغيرة منه تعالى على أزواج عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية ، وفعال المشركات والفاسقات العاهرات ، عديمات الدين والحياء ، أن يغمضن أبصارهن عن الرجال الأجانب ، ولا ينظرن إليهم بشهوة ، يعنى كما أنه حرم نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية ، حرم أيضاً نظرهن إلى الرجال الأجانب ، لأن الفساد ينشأ من كل واحد من النظرين .

و يوضح هذا مارواه أبوداود والترمذى عن أم سلمة رضى الله عنها «أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة ، إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احْتَجِبَا مِنْهُ ، فقلت يارسول الله : أليس هو أعمى لايبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَفَعَمِيَاوَانِ أَنْتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ » حديث حسن صحيح .

(ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها) أى لايظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه . قال ابن مسعود رضى الله عنه كالرداء والثياب لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ، ولا يشك ذو عقل ودين أن أرغب زينة النساء وجهها الجميل ، وطرفها الكحيل ، فبدنها السمين (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أى تستر

بخمرها صدرها لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ، ليخالفن بذلك شعار نساء أهل الجاهلية ، لأنهن كنّ يمشين بين الرجال بصدورهن المكشوفات لايواريها شيء ، وربما أظهرت عنقها ، وذوائب شعرها ، وأقرطة آذانها ، فأمر الله تعالى المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) والخمار مايغطى به الرأس ، وقد أمر الله تعالى بأن يضربن و يسترن بخمرهن على النحر والصدر فلايرى منهما شيء .

والحاصل أن المرأة لاتظهر عند الرجال الأجانب من زينتها التى تحرك الشهوة ، سواء بضرب الرجل و إظهار الوجه والخلخال ، أو التعطر عند خروجها من بيتها ، ولايتبرجن تبرّج الجاهلية ، كما هو الشائع الذائع فى نساء أوروبا ومصر وغيرها ، فإنهن فاسقات عاهرات ، فاجرات عاصيات ، قد فسدن وأفسدن ، وألقين جلباب الحياء بل الإيمان ، تقليداً للأوروبيات والدهريات .

فأنتم أيها المؤمنون توبوا إلى الله جميعاً ، وافعلوا ما أمركم الله به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق الرذيلة والصفات الخبيثة ، فإن الفلاح كل الفلاح ، والسعادة كل السعادة فى فعل ما أمر الله تعالى الحكيم به ، وأرشد إليه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وترك ما نهى الله ورسوله عنه ، والله تعالى هو المستعان .

الآية الثالثة والستون فيها أيضاً : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم أن يأمروا خدمهم أن لايدخلوا عليهم إلا بعد الاستئذان ، وكذا الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحلم كل يوم ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات :

الأول : قبل صلاة الفجر ، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياما فى فرشهم .

والثانى : حين يضعون ثيابهم من الظهيرة ، أى وقت القيلولة ، لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله .

والثالث : من بعد صلاة العشاء ، لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لايهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى أن يكون على أهله ، أو نحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال : ثلاث عورات لكم ؛ وأما فى غير هذه الأحوال فلا بأس فى دخولهم عليكم ، لأنهم طوّافون عليكم فى الخدمة وغير ذلك ، ويُغتفر فى الطوافين مالا يُغتفر فى غيرهم .

فيأيها المسلمون حافظوا على هذه الآداب الربانية، والأخلاق الإنسانية الكاملة المتممة للايمان والحياء والإحسان ؛ ولاشك أن شرع الإسلام شرع الكمال والجمال ، وفقنا الله تعالى للتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه .

الآية الرابعة والستون فى سورة العنكبوت : (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم بالهجرة من البلد الذى لايقدرون فيه على إقامة الدين ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ؛ وحيث إن كثيرا من الناس يتركون الهجرة إلى ديار الإسلام خوفا من الموت، أوخوفا من ضيق الرزق والمعيشة ، فقدأزال الله تعالى هذا الخوف بقوله : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) فكل إنسان لابد يموت عند انقضاء أجله

المقدر ، سواء فى الحضر أوالسفر ، وإنما يكون تارك الهجرة ، محروماً من الرحمة والدرجات فى الجنة .

والمهاجر لحفظ دينه ينال كل فضل ورحمة ، ويرزقه الله تعالى رزقا كثيرًا وسعة مراغماً أعداءه ، وهذا لاشك فيه ولا ريب ، وقد أخبر الله الكريم عز وجل بقوله : (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

فياعباد الله المؤمنين إنما خلقكم الله تعالى لأجل عبادته وحده لا شريك له ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ، ولا تختاروا الإقامة فى دار الشرك والكفر والبدعة لأجل مال الدنيا الفانية الدنيئة .

وأنا هذا العبد الضعيف جامع هذه الوريقات أحمد الله حمدا كثيرا أنه عز وجل قد يسر لى الهجرة ، فهاجرت عن ديار الشرك والكفر والإلحاد ، والفسق والظلم والعناد ديار ماوراء النهر والتركستان ، ديار عبادة القبور والأرواح ، وديار العقائد الفاسدة ، وديار الشيوعية والدهرية واللادينية ، واخترت الإقامة بتوفيق الله تعالى فى بلد الله الأمين ، وقبلة المسلمين ؛ وقد وفقنى الله تعالى للاشتغال بعلم الكتاب والسنة ، وتدريسه وتعليمه لعامة المسلمين فى المسجد الحرام ، وساعدنى ملك المسلمين عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فجزاه الله تعالى خيرًا ، وأيده بنصره ، ووفقه لمرضاته ، وقد رزقنى الله تعالى أهلا وأولادا ودارا ودولة وعزة وخيرا كثيرا ، أحسن مما كان وفات بمرات ؛ فالحمد لله حمدا كثيرا ، سائلا منه تعالى أن يديم لى التوفيق ، ويثبتنى على القول الثابت ، والتوحيد الخالص ، «لا إله إلا الله» ، ويرزقنى حسن الختام آمين .

الآية الخامسة والستون فى سورة الأحزاب : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم بأن يذكروا نعمة الله التى أنعمها عليهم ، وهى كثيرة لاتعدّ ولا تحصى ، ومن جملتها صرفه تعالى ودفعه الأعداء الكفار ، وخصوصاً حين تألبوا عليهم وتحزّبوا عام الخندق سنة خمس من الهجرة ، إذ جاءوا فى حوالى المدينة ليهجموا على المسلمين (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا) فحاصروا المدينة وفيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قريباً من شهر ، ثم وقع القتال ، فأرسل الله تعالى على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية ، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيئاً ، ولا يُقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، فأنزل الله تعالى (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها) وهى الصَّبا ، وفى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ » ، وقد أرسل الله تعالى ملائكة زلزلتهم ، وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، وهكذا يفعل الله تعالى لعباده المؤمنين الصادقين ينصرهم وإن قلوا على الأعداء وإن كثروا ، لأن لله تعالى جنودا من الريح ، وجنودا من النار ، وجنودا من الصاعقة ، وجنودا من الطوفان ، وجنودا من الزلزال ، وجنودًا من الوباء وغيرها ؛ كما أن له تعالى جنودا من الملائكة وعباده الصالحين ، وحتى إن له جنودا من الطيور ، وجنودا من العسل ، وجنودا من الذباب والبعوض وغيرها (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » .

فأنتم أيها المؤمنون كونوا مؤمنين صادقين عاملين بما أمر ، ومنتهين عما نهى عنه ، فالله ينصركم على الأعداء ؛ وأما إذا كنتم فى إيمانكم كاذبين ، وفى دعائكم وعبادتكم مشركين ، ولأوامره تاركين ، ولنواهيه مرتكبين ، لاتتشبثون بالأسباب ، ولاتتفقون

فى الحركات والذهاب والإياب ، بل تعتمدون على الأرواح وعلى الروحانيات ، وتدعون من هو مثلكم من المخلوقات وأرواح الأموات ، فأنتم الخاسرون المحرومون ، والأذلاء المخذولون ؛ فانتبهوا من غفلاتكم ، واحترزوا من الخرافات والترّهات ، ودجل الدجالين ، وخيانة الضالين المضلين ، فيأيها الذين آمنوا آمنوا ، ولا تكونوا ممن قال الله فى حقهم (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

الآية السادسة والستون فيها أيضا : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمرًا إياهم بأن يذكروا الله ذكرًا كثيرا، لأنه المنعم عليهم بأنواع النعم الظاهرة والباطنة وصنوف المنن، ووعد الله لهم فى ذلك جزيل الثواب، وجميل المآب . وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (اذكروا الله ذكرًا كثيرًا) إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا ، وعذر أهلها فى حال العذر غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدًا فى تركه فقال : (اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) ، بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال (وسبحوه بكرة وأصيلا) فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ) هذا تهييج إلى الذكر ، (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ) فالله تعالى برحمته وفضله لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والضلال ، إلى نور الهدى واليقين (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) أى فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم ، من الدعاة إلى الكفر أو البدعة ، وأتباعهم من الطغام والدجالين المفسدين ، والمنافقين الكذابين ؛ وأما رحمته بهم فى الآخرة ، فآمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وماذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم .

واعلم أن الذكر ذكران : ذكر بالقلب والجنان ، وذكر باللسان . فذكر اللسان هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ونحوها ؛ وأما ذكر القلب فأن تذكر الله تعالى دائماً بقلبك أنه القادر العليم الخبير بكل شئونك ، فاللازم أن لاتنساه فى جميع حالاتك من حركاتك وسكناتك وظاهرك وباطنك وسرك وجهرك ، ولا تغفل عنه لحظة ، وهذا الذكر هو الذى يحجزك عن معاصيه ومخالفة أمره ، فتنبه أيها العبد المؤمن لهذه الأوامر الربانية ، فكن له تعالى ذاكراً بلسانك وقلبك . وأما ذكر اللسان مع غفلة القلب ، فلن يحجز هذا الذكر صاحبه عن المعاصى ، لأنه صورة بلا روح ؛ والذكر الحقيقى النافع إنما هو ذكر القلب وهو الذى يسميه الصوفية العارفون بالمراقبة ، يعنى يراقبون الله تعالى فى كل حالاتهم فى خلواتهم وجلواتهم ، فلا يغفلون عنه لحظة (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) .

ولكن لما غلب الجهل على كثير ممن يدعى الإسلام والتصوف حرّفوا هذه المراقبة و بدّلوها بمراقبة صورة الشيخ وسموها رابطة ، فصاروا يراقبون صور شيوخهم وهؤلاء الشيوخ يأمرونهم بذلك ، فوضعوا شيوخهم فوق موضع رب العالمين ، فصاروا بذلك مشركين بالشرك الأكبر وهم لايشعرون . وقد دخلوا فى دين الوثنية بأسم التصوف وهم لايعلمون ، ولهذا صاروا يتوجهون إلى القبور و إلى أصحاب القبور و يستمدون منهم و يستغيثون بهم ، و يبنون على قبور من يزعمونه صالحا قبة وعمارة عالية ويُزخرفونها ، و يتوجهون إليها و ينذرون لها ، كما هو حالهم المشاهد فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وقد صاروا عبّاد الأصنام والأوثان وهم لايفهمون ؛ ولهذا أذلهم الله تعالى فى هذه الحياة الدنيا تحت أرجل الكفرة من الإنكليز والطليان والفرنسيين والروس والبلاشفة والأمريكان (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) .

فيأيها المسلمون توبوا إلى الله ، وارجعوا إلى دراسة كتاب الله وأحاديث رسول الله ، واجتهدوا فى فهم أوامر الله وخطاباته لكم ، كى يعفو الله عنكم و يغفر ذنوبكم فيدفع عنكم البلاء .

الآية السابعة والستون فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين فيما يختص بهم من المعاملة بزوجاتهم من النكاح والطلاق ؛ فأعلم الله تعالى بأنه إذا تزوّج الإنسان امرأةً وطلقها قبل الدخول بها فليس عليها عدة ، لأن رحمها لم يشتغل بمائه فلا يحتاج إلى الاستبراء ، وإنما على الأزواج أن يُعطوهنّ ما يتمتعن به من المتعة ، أو نصف الصداق المسمى على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ؛ فالرب الرحيم جل جلاله بيَّن لعباده المؤمنين كل مايحتاجون إليه من مصالحهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية والأخروية ، فسبحان الرب الرءوف الرحيم .

الآية الثامنة والستون فيها أيضا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ، إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن أن يدخلوا بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا استئذان ولا إذن منه ، وخصوصاً فى وقت أكل الطعام ، فلا تدخلوا إلا بعد الإذن ، ولا تنظروا ولا تراقبوا وقت طبخ الطعام وحضوره ، ولكن إذا دُعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم وأكلتم فانتشروا ولا تطيلوا الجلوس بعده لأن طول الجلوس يصير سبباً للملال فيتأذى صاحبُ المنزل ، وإن كان

سبب النزول خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم ولكن الحكم عامّ، فلا يجوز دخول الغير بلا إذنه ، ولا يجوز الدخول على طعام الغير بلا إذنه فيحرم على الطفيلىّ التطفل .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ عُرْساً كَانَ أَوْ غَيْرَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ » فإذا فرغتم من الذى دُعيتم إليه فتفرّقوا عن أهل المنزل وانتشروا فى الأرض ؛ وأصل هذا الحديث فى الصحيحين. فيأيها العبد المؤمن تعلَّم كلام ربك وتفهم أوامره ، فإنه تعالى قد خاطبك وأمرك ونهاك ، فإن لم تعلم ولم تفهم فأنت لست بمؤمن ، بل قد ضيعت أهليتك فصرت كالأنعام بل أضل ، فاستحى أيها المسلم ولا ترض بالجهل فإنه يرديك إلى مهاوى الجحيم كما لايخفى على العاقل البصير .

الآية التاسعة والستون فيها أيضاً : (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

قد أخبر الله تعالى أنه عز وجل يصلى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذا ملائكته الكرام يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنتم يأيها المؤمنون بالله ورسوله صلوا على هذا الرسول وسلموا عليه تسليما ، صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند ملائكته ، وصلاة الملائكة الدعاء . وقال سفيان الثورى رحمه الله تعالى : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار .

والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده المؤمنين بمنزلة عبده ونبيِّه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم عنده فى الملأ الأعلى بأنه تعالى يُثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه ؛ ثم أمر الله تعالى العالَمَ السفلى المؤمنين منهم بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العُلوى والسفلى جميعا .

وقد أخبر الله تعالى بأنه عز وجل يُصلى على عباده المؤمنين فقال(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) وفى الحديث « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّفُوفِ » . وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصلاة عليه وكيفية الصلاة عليه . وقد روى البخارى فى صحيحه عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : « قِيلَ يارَسُولَ اللهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال : قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ . اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » . وهذا الحديث مخرّج فى جميع الكتب الستة والمسانيد المشهورة ، والسلام الذى كانوا يعرفونه مافى التشهد «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» وزادوا فى بعض الروايات فى السنن « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . وفى رواية « وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد» .

وروى أحمد وابن ماجه عن عامر بن ربيعة رضى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَاصَلَّى عَلَيَّ فَلْيُقِلَّ مِنْ ذَلِكَ عَبْدٌ أَوْ لِيُكْثِرْ » . وفى جامع الترمذى عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً » . وعن ابن مرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا» . وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ » وقد روى مسلم والأربعة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَايَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَاتَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » . وروى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَايَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم» فيأيها المؤمنون صلوا وسلموا على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل حالاتكم أينما كنتم ، ولا تسيئوا الأدب برفع أصواتكم فوق الحاجة ، كما تفعله الجهلة عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنهم يصيحون صياحاً ، و يرفعون أصواتهم رفعاً منكراً فاحشا ، فيأيها المسلمون عليكم بالأدب .

وقد روى أبو داود عن عليّ بن الحسين بن عليّ رضى الله عنهم : أنه بلغه أن رجلا يأتى كل غداة إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم و يصلى عليه رافعاً صوته ، فقال له عليّ بن الحسين رضى الله عنهما : مايحملك على هذا ؟ قال أحبُّ السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليّ بن الحسين رضى الله عنهما : أخبرنى أبى عن جدى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَاتَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا ؛ وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَتَبْلُغَنِي صَلَاتُكُمْ وَسَلَامُكُمْ » .

قال العماد بن كثير : لعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة فنهاهم. وأنه رضى الله عنه رأى رجلا ينتاب القبر ، فقال ياهذا ما أنت ومَن بالأندلس إلا سواء منه : أى الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ؛ فيأيها المؤمنون صلّوا وسلّموا على محمد رسول الله المبعوث رحمة للعالمين عليه الصلاة والسلام

وكرروا الصلاة والسلام عليه دائما ليلا ونهاراً صباحاً ومساء . وأفضل صيغها ماثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بيّنها ، وهى الصلاة التى يصلون بها فى تشهدات صلواتهم فرضها ونفلها ؛ واحترز أيها المؤمن عن الصيغ المحدثة المبتدعة ، والأحزاب المؤقتة التى فيها المنكرات بل الأكاذيب والكفريات كدلائل الخيرات للجزولى ، وصلوات الشناء للنبهانى ، فإنها من البدع المنكرة لايحل لمن يؤمن بالله وبكتابه ورسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وسنته أن يفعل ذلك ، أو يعتقد جوازه بإنه مما لم يأذن به الله ولا رسوله ولا أحد من أئمة المسلمين فالحذر الحذر .

الآية السبعون فيها أيضا : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم أن لايكونوا كالذين آذوا أنبياء الله ، ومنهم موسى عليه السلام ، فإنه كان رجلا حَيِيّا ستِّيراً لايُرى من جلده وبدنه شىء استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا مايستتر هذا التستر إلا من عيب فى جلده ، إما برص وإما أدرة وإما آفة ؛ فأراد الله تعالى أن يبرئه مما قالوا من الافتراء ، فَخَلَّى موسى يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ويلبسها ، ولكن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر ، حتى انتهى الحجر إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عُريانَ أحسن ماخلق الله عز وجل وبرّأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ موسى ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، هذا حديث صحيح فى الصحيحين .

والمقصود أن الله تعالى نهى المؤمنين أن يؤذوا أنبياء الله وأولياء الله وعباده الصالحين المؤمنين بأىّ طريق كان ، كما هو شأن الكفار والمنافقين يؤذون أنبياء الله وعباده المؤمنين ، وخصوصا ورثة الأنبياء الداعين إلى التوحيد وإلى الصراط المستقيم . وقد ثبت فى الحديث القدسى أن الله تعالى قال : « مَنْ عادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ

بِالْحَرْبِ ، وَمَنْ آذَيْتُهُ بِالْحَرْبِ أَدْخَلْتُهُ نَارِي » ونحن قد نشاهد الآن أن أهل البدعة يؤذون أهل السنة ، وأهل الشرك يؤذون أهل التوحيد ، وأهل الباطل يؤذون أهل الحق ، فيأيها المؤمنون لاتكونوا أنتم كهؤلاء السفهاء ، بل افهموا كلام ربكم ، ونصائح نبيكم ، نعضّوا عليهما بالنواجذ وبالله التوفيق .

الآية الحادية والسبعون فيها أيضاً : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين آمراً إياهم بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من يراه ، وأن يقولوا قولا سديداً ، أى مستقيما لااعوجاج فيه ولاانحراف ، ولا كذب فيه ولا اعتساف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ويوفقهم للأعمال الصالحة ، ويغفرلهم الذنوب الماضية ويلهمهم التوبة فى المستقبل (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما) وذلك بأن يجار من نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم المقيم. فنسألك اللهم أن تجعلنا من المتقين ، ونسألك اللهم أن تجعلنا من المطيعين الصادقين ، ونسألك اللهم أن تجعلنا من الصالحين المفلحين ، ونسألك اللهم أن تجعلنا من المغفور لهم المرحومين ، ونسألك اللهم أن تجعلنا من الفائزين فى الدارين برضاك والجنة آمين .

الآية الثانية والسبعون فى سورة الزمر: (قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ياعباد الله الذين اتصفتم بصفة الإيمان اتقوا ربكم ، واثبتوا على تقوى ربكم ، واتقوا الشرك والكفر ، واتقوا عذابه وغضبه ، واتقوا كل مايرديكم إلى نار جهنم فيأيها المؤمنون استمروا على طاعة ربكم واتقوه دائماً ، لأن (للذين أحسنوا فى هذه

الدنيا) أى عملوا الأعمال الحسنة بالإخلاص لله تعالى (حسنة) أى فى الدنيا عاجلا وفى دار الآخرة الباقية آجلا سرمداً الجنة والرضى والرضوان ؛ فالدنيا مزرعة الآخرة و إنما جزاء الإحسانِ الإحسانُ ، وحدُّ الإحسان أن تعبد الله تعالى كأنك تراه عياناً، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وهذا هو حقيقة الإخلاص ، وهذا فيه كمال الخشوع والخضوع والتذلل والانكسار ، فيأيها العبد المؤمن دُم واصبر على الإيمان وطاعة الله .

و إن منعك مانع وهجم عليك الأعداء من المشركين وعبّاد الأوثان والقبور وأهل البدعة فهاجر من هذا البلد الظالم أهلها لأن أرض الله واسعة ، فمن تعسر عليه التقوى والإحسان فى بلده فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الأنبياء والصالحين ، فإنه لاعذر لأحد فى الإقامة فى دار الشرك والبدعة ، لأن أرض الله واسعة ، والله هو الذى يرزق عباده ، و يُيسّر لهم أسباب الرزق ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

ففيه الحث على الهجرة من البلد الذى يظهر فيه الشرك والمعاصى والكفر والضلال كالتركستان وماوراء النهر والصين والهند والترك وما شابهها ، وقد ورد فى الحديث الصحيح « مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » و إنما قال بدينه احترازاً عن الفرار بسبب الدنيا ولأجلها ، كأكثر البخاريين الذين هاجروامن بلادهم فراراً من البلاشفة لأجل الدنيا لا لأجل الدين ، والدليل على هذا أنهم و إن جاءوا إلى الحرمَين وأقاموا فيهما فهم لايسألون عن معنى كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن الحق والحقيقة ، بل يعادون أهل الحق و ينفرون عن استماع تفسير القرآن والحديث و ينفّرون غيرهم أيضا ، وهم أعداء السلف والسلفيين ، وفى العقيدة جهميون ومُعطّلون ، و يعبدون مع الله الأولياء وأرواحهم فيدعونهم و ينذرون لهم و يستغيثون بهم و يستمدون منهم ، فهم ليسوا من المهاجرين لله والرسول ، بل من المهاجرين لدنيا يُصيبونها أو امرأة ينكحونها ،

كما لايخفى ، إلا من هداهم الله تعالى ، ووفّقهم منهم ، وهم قليلون .

فيأيها المسلمون آمنوا بالله و بكتابه و برسوله وسنته ، واعملوا بهما واتركوا ماخالفهما واحذروا عذاب الله وغضبه ، ولا تغتروا بالمذاهب والمشايخ الغير المعصومين فإنه لاينفعكم فى الدين ، ولا تنفعكم سكنى مكة وجوار الكعبة والمدينة الطيبة إذا لم تكونوا من المؤمنين الصادقين ، فإن أبا جهل وأبا لهب وأمثالهما كانوا من أهل هذا البلد الأمين فلم تنفعهم مجاورتهم ؛ لأنه لايُقدّس الإنسانَ إلا إيمانُه الصادق وأعماله الصالحة .

الآية الثالثة والسبعون فيها أيضا : (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

أمر الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يبلغ عباد الله تعالى عموماً ، والذين أسرفوا على أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصى أن يتوبوا إلى الله و يُنيبوا إليه ولا يقنطوا من رحمة الله ومغفرته ، فإنه تعالى يغفر الذنوب جميعاً لأنه هو الغفور الرحيم . فيأيها الناس أنيبوا إلى ربكم الذى خلقكم وأسلموا له جل جلاله فى هذه الحياة الدنيا من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون .

فيأيها المسلمون توبوا إلى الله تعالى الرءوف الغفار (إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً) لمن تاب منها ورجع عنها ، و إن كانت مهما كانت ، و إن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لايغفر لمن لم يتب منه ؛ فتوبوا أيها المسلمون من كل مانهى الله عنه من الشرك والكفر والنفاق والظلم والبدعة والفسق والفجور ، فإذا تبتم تاب الله عليكم ، وغفر ماتقدم من ذنوبكم ورحمكم بفضله ورحمته .

الآية الرابعة والسبعون فيها أيضا : (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ، فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) .

هذه الآية أمر من الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبشر عباد الله الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت : أى الأوثان والشيطان والقبور والأرواح ، بل أنابوا ورجعوا إلى عبادة الله الرحمن وحده لاشريك له ؛ فهؤلاء الموحدون هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بالمغفرة والجنة ، (فبشر) ياحمد (عباد)ى المؤمنين (الذين يستمعون القول) القرآن (فيتبعون أحسنه) ، أى يفهمونه ويعملون بما فيه .

و إذا استمعوا القرآن وغير القرآن فيتبعون القرآن ، (أولئك) هم الموحدون الذين يتبعون القرآن ، والمتصفون بهذه الصفة هم (الذين هداهم الله) فى الدنيا والآخرة ، (وأولئك هم أولوا الألباب) أى ذوو العقول السليمة والفطر المستقيمة . فيأيها المؤمنون تفهموا كلام ربكم واستمعوه لأنه أحسن الكلم فاعملوا به تفوزوا بالرَّوح والريحان والجنة والرضوان ؛ وأما إذا أعرضتم عنه واشتغلتم بالفلسفة والسفسطة والأشعار والمعميات ، والألغاز والأغلوطات ، وخرافات الصوفية كأهل بخارى والهند والعراق ، فستُبتلون بغضب الله الواحد القهار ، فيسلط عليكم البلاشفة الأشرار فيذيقونكم سوء العذاب و بئس القرار .

لأن من سنة الله المطردة أنه يُسلط بعض الظالمين على بعض ، و إذا عصوا الله مع دعواهم الإسلام سلط الله عليهم الدهريين كما ورد فى الحديث القدسى « إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَعْرِفُنِي » .

الآية الخامسة والسبعون فى سورة الزخرف (يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ . ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) .

قد نادى الله تعالى عباده المؤمنين نداء كرامة وتشريف ، فقال (ياعباد) المؤمنين المتقين الذين آمنت قلوبهم و بواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم (لاخوف عليكم اليوم) أى يوم القيامة من لقاء المكاره (ولا أنتم تحزنون) من فوت المقاصد كما يخاف ويحزن غير المؤمنين المتقين ، وهؤلاء (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا

مسلمين) صادقين مخلصين ، فيامن هذه صفتهم (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) أى تتنعّمون وتسعدون وتسرّون سروراً يظهر حباره : أى أثره على وجوهكم على أحسن الهيئة ؛ فيأيها المؤمنون آمنوا بآيات الله كلها وأسلموا لكل أوامر الله بالصدق والإخلاص ، وذلك موقوف على فهمكم كلامَ ربكم وتدبّر معانيه ؛ فتدبروا وتفكروا فى آيات الله وآلائه لأنكم أنتم المخاطبون بذلك وأنتم المكلفون بالعمل به .

الآية السادسة والسبعون فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ، وأعلمهم شارطاً عليهم أن يؤمنوا بالله إيماناً صحيحاً ، ويعملوا بما أمر من إحضار العدّة والأسلحة بما استطاعوا حسب زمانهم ومكانهم فاستعملوها متوكلين على الله تعالى بإخلاص النية لإعلاء كلمة الله تعالى؛ فالله تعالى ينصرهم على أعدائهم ، ويجعلهم غالبين بإلقاء الرّعب والخوف فى قلوب أعدائهم المشركين وأضدادهم الكافرين ، كما قال الله تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) فإن الجزاء من جنس العمل (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) : أى باستعمال أسلحة الحديد . (ويثبت أقدامكم) ويقوّى قلوبكم، وقد صدق الله العظيم. فإن المسلمين لما كانوا كاملى الإسلام كالخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين لهم بإحسان رضى الله عنهم نصرهم الله تعالى على الأعداء وفتح على أيديهم البلدان الكثيرة ، ودخل الناسُ فى دين الله أفواجا ، فجزاهم الله تعالى فى الدارين خير الجزاء .

وأما الخلف الذين خالفوا الله وخالفوا أمره ، وخالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالفوا سنته ، وخالفوا السلف الصالحين ، وتركوا العمل بكتاب الله الهادى إلى سعادة الدارين وجهلوا معانيه ، واتخذوا دينهم هزواً ولعباً ، واعتمدوا على الخرافات ودجل الدجالين ، واعتقدوا أن أرواح الأولياء تُعينُهم وتمدّهم ؛ وأن

الأقطاب والأوتاد تتصرّف فى العالم وتحفظه ، فبنوا الأربطة والخانقات واشتغلوا بالخرافات والخزعبلات ، بل الشركيات والبدعيات والضلالات وساعدهم السلاطين الجهلة والعلماء الدجاجلة ، فسلب الله تعالى عنهم الدولة ، وسلط عليهم الكفرة الخذلة. (ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

فيأيها المسلمون أفيقوا من سكرتكم ، واستعملوا عقولكم ، وارجعوا إلى دينكم ، ألا وهو العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتقاديا وعمليا وقوليا، والاحتراز عن كل ماخالفهما من التقليد الجامد للآباء ، والاعتماد على أقوال غير المعصومين من المؤلفين عسى الله تعالى أن يعفو عنكم . اللهم إنانسألك الهداية والتوفيق.

الآية السابعة والسبعون فيها أيضا : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم بأن يطيعوا الله تعالى و يطيعوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ونهاهم عن إبطال أعمالهم بالارتداد وردّ كلام الله وكلام رسوله ومخالفة أمر الله وأمر رسوله . يعنى أن الطاعات والعبادات والإيمانَ إنما تنفع صاحبها إذا استمر صاحبها وداوم عليها حتى مات عليها. وأما إذا تغيّر فى آخر عمره،والعياذ بالله ، وارتد عن دينه أو شك فى شىء من أمر ربه ، أو أشرك بالله فى عبادته أو ربوبيته أو صفاته فقد حبط عمله ، فصار من الخاسرين كمن يدعو غير الله من الملائكة أو الأنبياء والأولياء أو الأرواح على اعتقاد أنه يسمع و يقضى حاجته ، أو يقدر على شىء من النفع والضر ، أو كمن ينذر لغير الله على اعتقاد أنه جائز أو قربة ، أو كمن يدعو عبد القادر الجيلانى مثلا و يقول ياغوث الأعظم المدد أو أغثنى فكل هذا شرك كبير بل أكبر ، لاتنفع معه طاعة ولا عبادة ولا صلاة ولا طواف ولا قراءة قرآن ولا غيرها ، إلا إذا تاب توبة صحيحة فالله تواب رحيم .

فيأيها المسلمون داوموا على طاعة الله وطاعة رسوله، ولا تبطلوا عباداتكم و إيمانكم بالشرك والكفر والارتداد ، وتفكروا وتدبروا فى فهم معانى كلام ربكم ، فإنه تعالى يقول : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) وهذا أمر من الله تعالى بتدبّر القرآن وتفهمه ، ناهياً عن الإعراض عنه . فعلى قلوب الكفار أقفالها فهى مقفلة لايخلص إليها شىء من معانيه ، فلا يفهمون مواعظ القرآن وأحكامه ، والفتّاح هو الله تعالى ، فاسئلوا من الله تعالى أن يفتح قلوبكم لفهم معانى كتابه ، ويُنوّر بصركم و بصيرتكم به بفضله ومنّه ، وجوده وكرمه آمين .

و يأيها المؤمنون أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فى العقائد والشرائع كلها ، فلا تشاقّوا الله ورسوله فى شىء منها ، ولا تبطلوا إيمانكم وأعمالكم بالشرك والكفر والنفاق والرياء والمنّ والأذى والعُجب وغيرها ؛ وفى الآية إشارة إلى أن كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله فهو باطل لم تكن له ثمرة ، لأنه صدر عن الهوى والطبيعة ؛ فعليك أيها المؤمن بالإطاعة واستعمال الشريعة ، و إياك والمخالفة والإهمال ، ومن جملة الذين بطلت أعمالهم الذين يصدون الناس عن سبيل الله وعن استماع كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأكثر البخاريين الذين هم مقيمون فى الحرمين يمنعون مجالسيهم عن استماع تفسير كلام رب العالمين وعن استماع أحاديث رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، و ينفّرون النامر عن استماع التوحيد الصحيح وأهله فهم إن ماتوا على هذا الحال قبل التوبة فقد حبطت أعمالهم فبئس الحال حالهم ، وهم و إن ظنوا أنهم يقرءون دلائل الخيرات ، ولكنهم بعيدون ومحرومون عن كل الخيرات ، أعاذنا الله تعالى من العمى والضلال .

الآية الثامنة والسبعون فى سورة الحجرات : ((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ناهياً إياهم عن التقدم بين يدى الله ورسوله، وهذا أدب أدّب الله تعالى به عباده المؤمنين ، وهو أن لا يشرعوا فى أمر من الأمور

قبل صدور أمر الله ورسوله ، ولايسرعوا فيه بهواهم أو تقليداً لغير المعصوم من المؤلفين ، بل لابد أن يكونوا تبعاً له فى جميع الأمور .

وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن معاذ رضى الله عنه أنه حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال لهُ « بِمَ تَحْكُمُ ؟ قال بِكِتَابِ اللهِ تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ قال بِسُنَّةِ رسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، قالَ صلى اللهُ عليه وسلم : فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ قالَ أَجْتَهِدُ رَأْيِي ، فضَرَبَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى صَدْرِهِ ، وقال:الحمدُ لِلهِ الَّذِى وَفَّقَ رسُولَ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِمَا يُرْضِى رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم »فالغرض منه أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده إلى مابعد الكتاب والسنة ، ولو قدّمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله ، قال ابن عباس رضى الله عنهما (لاتقدّموا بين يدَىِ الله ورسوله) ، لاتقولوا خلاف الكتاب والسنة ، ولا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، ولهذا قد أجمعوا على أن مبنى الدين والإيمان والعبادات على الاتباع لاعلى الابتداع (واتقوا الله) فيما أمركم به (إن الله سميع عليم) لأقوالكم ونياتكم وأعمالكم وحركاتكم وسكناتكم .

فيأيها المؤمنون لاتقدّموا أمراً من الأمور بين الله ورسوله ، ولا تقطعوه إلا بعد أن يحكما به ويأذنا فيه فتكونوا عاملين بالوحى المنزل ومقتدين بالنبى المرسل صلى الله عليه وسلم ، واتقوا فى كل ماتأتون وما تذرون من الأقوال والأعمال ؛ لأن الله تعالى سميع عليم ، فمن حقه أن يُتَّقى ويراقَب ، ولا شك أن التقدم خروج عن صفة المتابعة واستقلال فى الأمر فيكون منافياً للإيمان ، وعموم اللفظ يشمل النهى عن الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة ، كأنه قيل لاتذبحوا قبل أن يذبح النبى صلى الله عليه وسلم ، ويشمل النهى عن صوم يوم الشك ، أى لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم ، ولا شك أن ظاهر الآية عام فى كل قول وفعل ؛ ولذا حذف مفعول لاتقدّموا ليذهب ذهن السامع كل مذهب مما يمكن تقديمه من قول أو عمل ، مثلا إذا جرت

مسألة فى حضوره صلى الله عليه وسلم فلا تسبقوه فى الجواب ، وإذا حضر الطعام فلا تبتدأوا بالأكل قبله ، وإذا ذهبتم إلى موضع معه فلا تمشوا أمامه إلا لمصلحة دعت إليه ، ومن هذا قالوا لا يجوز تقديم الأصاغر على الأكابر إلا لمصلحة فيدخل فى النهى المشى بين العلماء لأنهم ورثة الأنبياء .

واعلم أن من شرط المؤمن أن لا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأى النبى صلى الله عليه وسلم ويكون مستسلماً لما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالذين يقدّمون قوانين البشر على أوامر الله ورسوله ليسوا مؤمنين كالأتراك الكماليين والعراقيين الجمهوريين .

الآية التاسعة والسبعون فيها أيضا: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن رفع أصواتهم فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم حينما يخاطبونه ويكلمونه فى حضوره ومجلسه صلى الله عليه وسلم ، وقد روى هنا أحاديث فى الصحاح فعليك بها إن إردت التفصيل .

قال ابن كثير : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى المسجد النبوى وقد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال من أين أنتما ؟ قالا من أهل الطائف ، فقال لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا ، وعن هذا قال العلماء يكره رفع الصوت عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم كما كان يكره فى حياته صلى الله عليه وسلم ، لأنه صلى الله عليه وسلم محترم حيًّا وميتاً وفى قبره صلى الله عليه وسلم دائماً ؛ وقد نهى الله تعالى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ، بل يخاطبه بسكينة ووقار وتعظيم ، فما يفعله الناس اليوم من الصياح والغوغاء عند قبره صلى الله عليه وسلم من المحرمات المنهىّ عنها التى

لا يرضى بها الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فالحذر الحذر، بل اللازم السلام عليه عليه الصلاة والسلام بالأدب والخشوع لدى الزيارة قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) فالناس اليوم ينادون عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم بالصياح الفاحش يارسول الله ونحوه فهم جهال لاعقل لهم ، فلاشك أنهم محرومون عن فضائل اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدخل فى هذا النهى الجهر والتكلم عند تحديث أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو رأى السلف مجالس هذا الزمان من مجلس الوعظ والدرس واجتماع فى المولد ونحوه لخرجوا من ساعتهم .

الآية الثمانون فيها أيضا : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين مرشداً إياهم أن يتأنّوا فى قبول أخبار الفاسقين ، ويتبينوا ويحققوا تحقيقاً ، لأن الفاسق من حيث إنه فاسق من شأنه الكذب ، ولأنهم إذا قبلوا قوله بلا تبين ربما حكموا بغير حق ، بناء على خبره الكاذب ، فيصبحون على مافعلوامن الحكم بالخطإنادمين ، حيث لاينفعهم الندم بعد الحكم ؛ كما وقع فى قصة الحارث بن ضرار الخزاعى رضى الله عنه ، حيث كذب عليه الوليد بنُ عقبة وقال إن الحارث قد منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحارث فأنزل الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) الآية . كما هو مبسوط فى كتب الأحاديث والتفاسير ، فلهذا قد أمر الله تعالى المؤمنين بالتثبت فى خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله ، فيكون فى نفس الأمر كاذبا أو مخطئاً ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى أثره وآراءه ، وقد نهى الله تعالى عن اتباع سبيل المفسدين والفاسقين والكاذبين ، وعن هذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « التَّثَبُّتُ مِنَ اللهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ» .

نكّر الفاسق ليدل على العموم : أى أىّ فاسق كان ، ونكر النبأ أيضاً : أى أىّ خبر كان ؛ ليحترز العبد المؤمن عن قبول خبر كل فاسق ، وخصوصا إذا كان الخبر خبراً يعظم وقعه فى القلوب ، فاللازم التعرّف والتفحّص حتى يتبين لكم ماجاء به أصدقٌ هو أم كذب ، ولا تعتمدوا على قوله المجرد لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذى هو نوع منه .

وفى الآية دلالة على أن الجاهل لابد أن يصير نادما على مافعله جهلا ، والذى يكذب عمداً فهو فى النار ؛ فيأيها المسلمون احترزوا من الفسق ، ومن قبول خبر الفاسق ، لأنه يكون سبباً لمفاسد لاتحصى ، ولكن الأسف ألف أسف على حال المسلمين اليوم أنه غلب عليهم الفسق والكذب ، ويعدّونه تدبيراً وعقلا ، فلهذا فسدوا وأفسدوا ، وخصوصا مجاورو الحرمين ، والسبب فى هذا كله إنما هو غفلتهم أو جهلهم بمعانى كلام ربهم ، وغفلتهم ونسيانهم كونهم مسئولين عنه يوم القيامة ويجازون بذلك ؛ فيأيها المسلمون أما تخافون من الله الخبير البصير وعذابه الأليم ؟ تخادعون المؤمنين وحجاج بيت الله الحرام ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الآية الحادية والثمانون فيها أيضا : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين آمراً إياهم أن يصلحوا بين إخوانهم المؤمنين إذا وقعت بينهم منازعة ومخاصمة ، لأن البشر من حيث إنه بشر قد يخطئ ، فقد تقع المقاتلة خطأ (واتقوا الله) فلا يظلم بعضكم بعضاً ولا يتعدّى بعضكم على بعض ، وأصلحوا فيما بينكم (لعلكم ترحمون) والعبد المؤمن لا يخرج بالمعصية عن الإيمان إذا لم يستحلها وإن كبرت .

والمؤمنون جميعهم عربهم وعجمهم ، وأبيضهم وأسودهم إخوة فى الدين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَإِذَا دَعَا

الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، قَالَ الْمَلَكُ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ . وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ . الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ صلى الله عليه وسلم » وقال صلى الله عليه وسلم « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَشْتِمُهُ ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

اعلم أن أخوّة الإسلام أقوى من أخوّة النسب ، بحيث لا تُعتبر أخوّة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام ؛ ألا ترى أنه إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ، لا لأخيه الكافر ، وكذا إذا مات أخوه الكافر لا يرثه المسلم ، وذلك لأن الجامع الفاسد لا يُفيد الأخوّة . ولما كان الجامع المعتبر هو الدين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آلُ مُحَمَّدٍ كُلُّ تَقِيٍّ » أى المؤمن التقى « وَسَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ » . كما قال الله عزّ وجل : (إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ـ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

وكما أنه من حق الأخوة فى الدين الإصلاح بين الإخوان المؤمنين ، كذلك أن تُحبّ لأخيك المؤمن ما تحب لنفسك ؛ فإن استعانك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ولكن الأسف أن المسلمين تركوا العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهلوا معناها فصاروا يبغض بعضهم بعضا ، حتى صار إخوان الزمان جواسيس العيوب . فالحذر الحذر من إخوان الزمان ؛ لأنهم محرومون من الوظائف الإسلامية الواجبة ، كما صاروا محرومين من العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن ادعوا أنهم أهل الحديث أو سلفيون ، ولكن أعمالهم تكذب دعواهم كما هو المشاهد ، فيا لغربة الإسلام من علمائه وأدعيائه ، ولهذا قد حرمهم الله تعالى

من خلافة الأرض ، وجعلهم محكومين أذلاّء تحت أرجل الكافرين ، إلاّ آل السعود وآل محمد بن عبد الوهاب وعلى رأسهم الملك عبد العزيز فإن الله تعالى وفّقهم للخيرات والمبرات فالحمد لله رب العالمين .

الآية الثانية والثمانون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) . .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن السخرية بالناس واحتقارهم والاستهزاء بهم ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ ، أَوْ غَمْطُ النَّاسِ » والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام قد نهى الله عنه فإنه قد يكون المحتَقَرُ أعظم قدراً عند الله تعالى وأحبّ إليه من الساخر منه المحتقِر له ؛ والسخرية أن يحقر الإنسان أخاه ويستخفه ويستهزئ به ، وعن التحقير يحدث الكبر ومنه ينشأ عدم قبول الحق فيصير الساخر كأنه من حزب الشيطان ومتصف بصفاته .

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ بِهِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ » فلا ينبغى لمسلم أن ينظر إلى مسلم بنظر الحقارة عسى أن يكون خيراً منه ، إلا إذا ظهر منه ما يوجب التحقير والسخرية كالشرك والنفاق والفسق والفجور (ولا تلمزوا أنفسكم) أى لا تلمزوا الناس فإن من لمز غيره كأنه لمز نفسه . اللمز : الطعن باللسان ، والهمز بالفعل ، والهمّاز اللمّاز من الناس مذموم ملعون ، كما قال الله تعالى : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) فلا يطعن بعضكم على بعض ، واللمز الإشارة بالعين واليد ونحوهما ، ولا يعب بعضكم على بعض فإن المؤمنين كنفس واحدة ، والأفراد المنتشرة

بمنزلة أعضاء تلك النفس ، فمن عاب مؤمناً فكأنما عاب نفسه كقوله تعالى : (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ) . وقال بعض المفسرين أى لا تفعلوا ما تلمزون به ، فإن من فعل مايستحق به اللمز فقد لمز نفسه أى تسبب للمز نفسه ؛ أو لاتلمزوا غيركم فإن ذلك يكون سبباً لأن يبحث الملموز عن عيوبكم فيلمزكم فتكونون لامزين لأنفسكم فيصير مثل ما ثبت فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم : « مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ ، قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قالَ نَعَمْ يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » ولا يدخل فى النهى ذكر الفاسق لقوله صلى الله عليه وسلم : « اذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ كَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ » .

(ولا تنابزوا بالألقاب) أى لا تدعوا بالألقاب التى يسىء الشخصَ سماعها (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس التوصيف بالألقاب السيّئة كما هو عادة أهل الجاهلية ، والمؤمن لا يُلقّب باللقب السيئ مثل ابن اليهودى أو النصرانى أو ياكلب ياابن الكلب . قال ابن عباس رضى الله عنهما: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها فنُهى أن يُعيّر بما سلف من عمله ، لأن الإيمان والإسلام يجبّ ويمحو ماقبله : و« التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ » فتوبوا أيها المؤمنون من كل ماجنيتم وارتكبتم من الأفعال القبيحة والأقوال الفاحشة (ومن لم يتب) عما نهى عنه (فأولئك هم الظالمون) .

الآية الثالثة والثمانون فيها أيضا : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ناهياً إياهم عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضا ،

فاجتنبوا الكثير منه احتياطا ، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلاّ خيراً وأنت تجد لها فى الخير محملا .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ ، وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَنَافَسُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا » فلا يتجسّس بعضكم على بعض . والتجسس : هو البحث عن عيوب الناس. والتحسّس: هو استماع كلام الناس بقصد الإفساد . وأفادت الآية أن أكثر الظنون من قبيل الإثم ، لأن الشيطان يُلقى الظنون فى النفس ، فتظن النفس الظن الفاسد ، وعلى أن بعض الظن ليس بإثم ، بل هو حقيقة كالفراسة الصحيحة بأن يرى القلب بنور اليقين .

وقد نهى الله تعالى عن الغيبة ، وقد فسرها الشارع كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ ما الْغِيبَةُ ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ ، قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِى أَخِى مَا أَقُولُ ؟ قال صلى الله عليه وسلم إِنْ كَانَ فِيهِ مَاتَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَاتَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ » رواه الترمذى وأبو داود . والغيبة محرمة بالإجماع ، ولا يُستثنى منها إلا ما رُجحت مصلحته كما فى الجرح والتعديل ، والنصيحة كقوله صلى الله عليه وسلم لمّا استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر « ائْذَنُوا لَهُ وَبِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ » وكقوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس رضى الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم « أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ ، وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ » وكذا ماجرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها تبقى على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ، ولهذا قد شبّهها الله تعالى بأكل لحم الإنسان الميت

(أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) أى كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذلك شرعا ، فإن عقوبته أشد من هذا .

وعن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَامَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ لَاتَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ » رواه أبو داود . ونظر عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يوما إلى الكعبة فقال : ما أعظمَكِ وأعظم حرمتكِ ! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك ؛ فيأيها المؤمنون اتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه ، فإن تبتم إليه تعالى فالله توّاب على من تاب وأناب ، ورحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه ، وغفار لمن تاب واستغفر .

ولكن الأسف أن المسلمين اليوم ابتلوا بارتكاب هذه القبائح ، وغرقوا فيها وتلوثوا بها ؛ كالظن السوء خصوصا بالصالحين المفلحين من أهل التوحيد والعلماء العاملين ، والتجسس والغيبة ، فلا يخلو مجلس من المجالس سواء مجلس العلماء أو الجهلاء إلا والغيبة إدامهم ، والنميمة حلواهم ، والبهتان فاكهتهم يتفكهون بها . والسبب فى ذلك غفلتهم عن معانى كتاب ربهم ، وعدم مبالاتهم به و بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الغفلة من أعظم جند الشيطان فتنبّه .

الآية الرابعة والثمانون فى سورة الحديد : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين الذين آمنوا بالأنبياء السابقين كموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، فقال لهم (اتقوا الله وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (يؤتكم كفلين من رحمته) و يزدكم فضلا ورحمة لجمعكم بين الإيمان بجميع الرسل صلوات الله

وسلامه عليهم ، (و) ببركة هذا الإيمان الكامل (يجعل لكم نوراً تمشون به) فى الدنيا على الصراط المستقيم ، وفى الآخرة على الصراط كالبرق الخاطف .

ولا ريب أن من استقام فى هذه الدنيا على الصراط المستقيم استقامة تامة فهو يستقيم على صراط الآخرة بفضل الله ورحمته ؛ وأما من حاد عنه وتموّج فى هذه الدنيا فهو فى الآخرة أضل وأعوج ، وهذا النور هو القرآن ففيه الهدى والبيان ، وهذه كقوله عز وجل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

فرأس الأمر ومداره الإيمانُ بالله وتقواه ، ومن لازمه الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا حصل هذا وصح نال المتصف به كل سعادة ودولة ، من هدى ومغفرة ورحمة وجنة ورضوان . فيأيها المؤمنون كمّلوا إيمانكم بكل مايؤمن به ، ولا تكونوا كالذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، أو كالذين يؤمنون فيعملون بما وافق مذهب إمامهم ، ويكفرون فلا يعملون بما خالف مذهبهم كما هو شأن كثير من مقلّدة المذاهب ، وأهل الطرق فتنبه .

الآية الخامسة والثمانون فى سورة المجادلة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ . وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين مؤدبا إياهم أن لايكونوا مثل الكفرة والمنافقين الذين يتناجون بالإثم فيما بينهم ، والفسق والعدوان على غيرهم ، ومنه معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ومخالفته ، ويصرّون عليها ويتواصون بها فيما بينهم كأكثر البخاريين الذين يجاورون فى الحرمين وهم مصرّون على عداوة أهل التوحيد العاملين بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعادون الوهابيين

ويعادون السلفيين ويقولون على طريق التشنيع إنه وهابى ، ويتواصون بذلك بعضهم بعضاً ، ويتواصون بعضهم بعضاً أن لايحضروا ولا يستمعوا دروس التفسير والحديث والتوحيد .

وقد قال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم) وتسارتم فيما بينكم (فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ، ومن على شاكلتهم ومالأهم على ضلالهم من المنافقين والمقلدين الجامدين، بل أنتم أيها المؤمنون (تناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون) فيجازيكم على أعمالكم وأقوالكم وقد أحصاها عليكم .

ثم قال تعالى : (إنما النجوى) أى المسارة حيث يتوهم المؤمن بها سوءا من تزيين الشيطان وتسويله (ليحزن الذين آمنوا) أى إنما يُزين لهم ذلك ليحزن المؤمنين ويسوءهم (وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله) كما يفعل أكثر المبتدعين فى حق السلفيين الموحدين ، وما هم بضاريهم شيئاً إلا بإذن الله ، فنحن نستعيذ منهم بالله ونتوكل عليه تعالى فهو حسبنا ونعم الوكيل .

فيأيها المؤمنون اتقوا ربكم فإنه عليم خبير ، وعذابه أليم وشديد . ولا تغتروا بوساوس الشيطان من الجن والإنسان .

الآية السادسة والثمانون فيها أيضا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين معلّما إياهم وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض فى المجالس ، ويوسع بعضهم لبعض ، فإذا أحسنوا إلى إخوانهم المؤمنين أحسن الله إليهم ووسع عليهم ، لأن الجزاء من جنس العمل ، ولا يضنّ الجالس على القادم فى مجالس العلم والذكر والصلاة .

وقالوا فى سبب النزول مجىء البدريين فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ولم يوسع لهم أحد فى المجلس ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللهُ تَعَالَى رَجُلاً يَفْسَحُ لِأَخِيهِ » فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لإخوانهم المؤمنين .

ولكن لايجوز أن يقيم الرجلُ الرجلَ ويجلس فى مكانه لما فى الصحيحين عن ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يُقِمِ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسُ فِيهِ ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَتَوَسَّعُوا » . وفى رواية : « لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَكِنْ لِيَقُلِ افْسَحُوا » .

وهل يجوز القيام للقادم ؟ فيه قولان . وفى السنن : أنه لم يكن شىء أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا جاء لايقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة رضى الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم ؛ فالصدّيق عن يمينه وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبا عثمان وعلىّ لأنهما كانا ممن يكتبان الوحى وكان يأمرهم بذلك . (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) أى إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا ، أو إذا قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، ولا تثاقلوا فى المجلس (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) أى لاتظنوا أنه إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج أن ذلك نقص فى حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لايضيّع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لله ولأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره . (والله بما تعملون خبير) قال ابن مسعود رضى الله عنه : أيها الناس ، افهموا هذه الآية فإنها لترغبنّكم فى العلم (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) فالمؤمن العالم فوق الذى لايعلم درجات . وروى مسلم عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْفَعُ بِهٰذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ » والعلماء العاملون هم ورثة الأنبياء، والله خبير بنياتكم وأعمالكم. وأفادت الآية سرّ تقدم العلماء على غيرهم فى المجالس والمحافل ؛ لأن الله تعالى رفع قدرهم وأعلى درجتهم ، فمن رفعهم وأكرمهم رفعه الله وأكرمه فى الدارين ، ومن وضعهم وأهانهم وضعه الله تعالى وأهانه فى الدارين ، و إنما هذا فى حق العلماء الذين يعملون بعلمهم و يخشون ربهم ، لا العلماء الذين جعلوا علمهم آلة للرياسة ، والجاه وتحصيل المال فإنهم محرومون بل مرذولون .

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً وقلباً خاشعاً ولساناً ذاكراً .

الآية السابعة والثمانون فيها أيضا : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ، فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى يسارّه فيما بينه و بينه ، يعنى يجلس معه فى مجلس خاص أن يقدّم بين يدى ذلك صدقة تطهّره وتزكّيه وتؤهّله لأن يصلح لهذا المقام ، ولهذا قال : (ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا) ماتتصدقون به لفقركم (فإن الله غفور رحيم) فما أمر بها إلا من قدر لها .

وقد قالوا فى سبب النزول إنهم كانوا يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيكثرون مناجاته ويجلسون طويلا حتى كره النبى صلى الله عليه وسلم طول جلوسهم وكثرة مناجاتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئا ، وأما أهل الميسرة فضنوا و بخلوا فنزلت الرخصة .

وقال مجاهد رحمه الله تعالى نُهوا عن المناجاة حتى يتصدّقوا ، فلم يُناجه إلا عليّ رضى الله عنه تصدق بدينار فناجاه ، ثم نزلت الرخصة فكان عليّ رضى الله عنه يقول : آية فى كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى وهى آية المناجاة ، وهذه الصدقة إنما يُتصدّق بها على الفقير المستحق ، لا على النبى صلى الله عليه وسلم كما يدعيه أو يظنه من لا خلاق له من أهل الطرق والمشايخ الدجالين ، لأن الصدقة حرام على النبى صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى (فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) أى فتصدقوا قبلها على المستحق ، وهذا كقول عمر رضى الله عنه : أفضل ما أوتيت العرب الشعر ، يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ، ويستنزل به اللئيم ؛ وفى هذا الأمر تعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونفع للفقراء ، والنهى عن الإفراط فى السؤال ، والتمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الآخرة ومحب الدنيا . قال المفسرون : إن رسم النشارات للملوك والأمراء مأخوذ من أدب الله تعالى فى شأن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية (ءأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات) أخفتم من الفقر إذا تصدقتم (فإذ لم تفعلوا) ما أمرتم به وشق عليكم ذلك (وتاب الله عليكم) بأن رخص لكم فى أن لا تفعلوه ، وأسقط عنكم تقديم الصدقة ، وعفا عنكم بفضله ، فتداركوه بامتثال ما تؤمرون به بعد هذا ، وهو (فأقيموا الصلاة) فى أوقاتها مع أركانها وسننها ، (وآتوا الزكاة) إلى مستحقها ، (وأطيعوا الله ورسوله) فى سائر الأوامر ، فإن القيام بها كالجابر لما وقع فى ذلك من التفريط (والله خبير بما تعملون) من أعمالكم الظاهرة والباطنة ، لا تخفى عليه خافية فيجازيكم عليه ، فاعملوا بما أمركم به ابتغاء لمرضاته ، لا لرياء أو سمعة .

فيأيها المسلمون أطيعوا ربكم وامتثلوا أمره ولا تتساهلوا فيه ، عسى الله تعالى أن يرحمكم ويعفو عنكم ، ويصلح بالكم وحالكم ، ويعزكم فى الدارين .

الآية الثامنة والثمانون فى سورة الحشر : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ

نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمرا إياهم بأن يتقوا عذابه وغضبه ، ثم أمرهم بأن ينظر الإنسان وكل عاقل مكلف فيما فعل من الأعمال الخيرية التى قدمها لنفسه ليرى أجرها ليوم القيامة (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) أى حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم ، وعرضكم على ربكم (واتقوا الله) تأكيد بعد تأكيد ، ولا تغتروا ببعض الأمانى والخيالات والترهات (إن الله خبير بما تعملون) من خير وشر ، وإخلاص ورياء (ولا تكونوا كالذين نسوا الله) فتركوا أمره ، فكل من ترك أمر الله كأنه نسى الله ، (فـ)مجازاة لذلك (أنساهم أنفسهم) فلم يعملوا لأنفسهم الأعمال الصالحة التى تنفعهم فى معادهم ، فان الجزاء من جنس العمل (أولئك هم الفاسقون) الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، ومن عمل لغير الله فقد نسى الله تعالى ، وكل من غفل عن ذكر الله فقد نسى الله تعالى ، لا خير فى قول أو عمل لا يراد به وجه الله تعالى ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم .

ويأيها المؤمنون لا تكونوا كالذين نسوا الله : أى نسوا حقوقه عز وجل ، فما قدروه حق قدره ، وما وحدوا الله فى عبادته ، ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها ، فأنساهم بسبب ذلك أنفسهم ، فلم يسمعوا ما ينفعها ، ولم يفعلوا ما يخلصها ، فأولئك الناسون المخذولون بالإنساء هم الفاسقون الغارقون فى الفسق ، والخروج عن طريق الطاعة .

فيأيها المسلمون اتقوا الله حق التقوى ، واعملوا ما أمر بالإخلاص والرضا ، ولا تنسوا الله ربكم ، ولا تنسوا أمره ولا نهيه لحظة من اللحظات ، ولا تغفلوا عن ذكره حتى تكونوا من الصالحين المفلحين ؛ وأما إذا نسيتم الله ولم تتقوه ، واتبعتم

هواكم ونفسكم وشيخكم وشيطانكم ، فأنتم الفاسقون ، وأنتم الهالكون ، وأنتم الأذلاء في الدارين ، في الدنيا تحت أرجل الكفرة المستعمرين المستعبدين ، وفي الآخرة في نار الجحيم والعذاب الأليم .

الآية التاسعة والثمانون في سورة الممتحنة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم أن يتخذوا عدوالله وعدو المؤمنين من المشركين والكفار والزنادقة الأشرار أولياء وأحباء وأصدقاء لأنفسهم يعاملونهم بالمودة والمحبة و بث الأسرار ، والحال أنهم قد كفروا بما جاءكم به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله من الحق ، وهم يقصدون دائماً إخراج رسول الله و إياكم من أوطانكم ، و إنما سبب هذه العداوة هو إيمانكم بالله ربكم وحده لاشريك له الخ .

وذكروا في سبب النزول قصة حاطب بن أبي بلتعة كما هو المشهور المسطور في الصحاح ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب كما لايخفى على الخبير ، ولا شك أن اتخاذ الكفار أولياء سبب لضعف الإسلام وأهله ، كما هو المشاهد المجرب في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

فيأيها المسلمون إذا كنتم تسرون إلى الكفار بالمودة و بث الأسرار فقد ضللتم وخرجتم عن سواء السبيل ، وقد صرتم خداما لهم لعدم بيان الإسلام ، لأنهم إن يظفروا بكم يفعلوا بكم كل ما استطاعوا بأيديهم وألسنتهم حتى يردوكم إلى الكفر ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وقد قال الله العليم الحكيم (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ

وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) وأما أنت إذا ظننت أن التقرب والتودد إليهم ينفعك فى دولتك أوسياستك فاعلم أن الله تعالى إذا أراد بك سوءا فلا مردّ له ، فلاتنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ولامودتكم ولا سياستكم ، لأن الله تعالى خبير بأعمالكم و بنياتكم ، فيجازيكم بحسب ذلك فى الدارين .

فيأيها المسلمون حيث إنكم على ملة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام فاقتدوا به فيما عمل ، فإنه فيه الأسوة الحسنة ، فإنه لما تبين له كفر أبيه وقومه وجماعته أعلن التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله ؛ فكذلك يجب على كل مسلم إظهار العداوة والبغضاء على المصرِّين على الشرك والكفر ، فلا توادوا ولا تحبوا أحدا من الكافرين والمشركين ، بل تبرءوا منهم تبرأ كليًّا ماداموا كافرين ومشركين يعبدون مع الله غير الله من الملائكة والأنبياء واللات والعزى ، أو يغوث و يعوق ونسرا ، أو الأوثان والقبور وأهلها ، أو الأرواح والمشاهد ؛ فلهذا قد قرر الشارع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحب والبغض من الإيمان : أى حب الإيمان والمؤمنين وأهل التوحيد من الإيمان ، و بغض الكفار والمشركين من الإيمان ، فمن ساوى بينهما فقد برئ من الإيمان .

فيأيها المسلمون امتثلوا أمر ربكم ، وتوكلوا عليه ، وتوبوا إليه ، واستعيذوا بالله من الشرك والكفر ، ومن فتنة أهل الشرك والكفر ، ولا تهدموا باختياركم أركان دينكم و بنيانه بتولى أهل الشرك والكفر والضلال ، و إن توليتم الكفرة كما تولى كثير ممن أضله الله تعالى وأزاغ قلبه من أهل الهند والصين والتركستان والترك ، فان الله تعالى هو الغنى الحميد جل جلاله ، وأنتم لاتضرون إلا أنفسكم .

الآية التسعون فيها أيضاً : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لاَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا) الآية .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم إذا جاءهم النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام أن يمتحنوهن . قال ابن عباس رضى الله عنهما : امتحانها أن تستحلف إنها ماخرجت لبغض زوجها ، ولا عشقا لرجل من المسلمين ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا لحدث أحدثته ، ولا لالتماس دنيا ، وما خرجت إلا رغبة فى الإسلام ، وحبا لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية : امتحانها أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله ، وأن هجرتهن إنما هى لله ورسوله ، فإذا ثبت بإقرارهن إيمانهن (فلاترجموهن إلى الكفار لاهن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن) ما أحل الله مؤمنة لكافر ، وآتوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهر ، ثم بعد عدتهن إذا أردتم أن تتزوجوا بهن فتزوجوا بالرضا والمهر .

وأنتم أيها المؤمنون لا تمسكوهن بعصم الكوافر ، والعصم جمع عصمة ، وهى ما اعتصم به من العقد والنسب ، والكوافر جمع كافرة ، وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات ؛ فعلى هذا لايحل للعبد المؤمن أن يعاشر زوجته المشركة ، بل يجب عليه مفارقتها بعد استتابتها كما لا يخفى ؛ ككثير من الجاهلات اللاتى تعتقدن أن أرواح الأولياء تعلم الغيب أوتحضر فى المجالس أوتتصرف فى الأمور ، أو تعمل « بى بى من شنبه » على ما هو المعروف بين البخاريات ، فإنهن بهذه الاعتقادات الباطلة مشركات بالشرك الأكبر ، ولا تنفعهن كلمة الشهادة مالم يعتقدن معناها بعد العلم به ، وإجراء كلمة الشهادة على اللسان بطريق العادة من غير قصد التوبة لاينفع فتدبر .

الآية الحادية والتسعون فيها أيضا : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ، ناهيًا إياهم عن موالاة الكفرة الذين قد غضب الله عليهم ولعنهم ، واستحقوا من الله الطرد والإبعاد ، فكيف

توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء ، وهؤلاء الكفار قد يئسوا من حكم الله تعالى في ثواب الآخرة ونعيمها : وقد روى أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين يتوصلون إليهم بذلك ، فيصيبون من ثمارهم ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك .

وهكذا كثير ممن يدعى الإسلام يخدمون الكفرة سرا ، ويدلونهم على أسرار المسلمين وعوراتهم ، لينالوا بذلك منهم مالا ومنصبا ، فهؤلاء قد خانوا الله تعالى ، وخانوا المسلمين ، وخانوا ديار المسلمين ؛ فهؤلاء لما تولوا الكفار الذين غضب الله عليهم ، صاروا من حزب المغضوب عليهم ، فأيئسوا وصاروا من المحرومين من الرحمة ومن نعيم الآخرة ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، أى كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم المدفونين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ، لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشوراً ، أو يئسوا أن يرجعوا إليهم ، أو كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير لمَّا عاينوا العذاب .

فيأيها المؤمنون لا تتولوا الكافرين أبدا ، ولا تتخذوهم لأنفسكم أوليـاء أو أصدقاء ، وإلا فتستحقون غضب الله ، وتبتلون بعذاب الله ، فتندمون ولـكن لا ينفعكم الندم .

الآية الثانية والتسعون في سورة الصف : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بالاستفهام الإنكارى على من يعد وعدا ، أو يقول قولا لا يفى به ، وهذا يدل على أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا ، كما يجب العمل بما علم من العلم مطلقا ، ويؤيده ما في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » وزاد مسلم في روايته : « وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » وأكد الله ذلك بقوله : (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وهذا إنكار وتوبيخ

من الله تعالى على أن يقول الإنسان من نفسه مالا يفعله من الخير والعمل ، وأن الإنسان إذا أخبر أنه فعل كذا وهو لم يفعله كان كاذبا ، وإن وعد أنه يفعله في المستقبل ولا يفعله كان خُلْفا ، وكلاهما مذموم ، فيشمل الكذب وإخلاف الوعد بلاعذر ، فمن يمدح الجهاد في سبيل الله ولا يجاهد عند الإمكان فهو داخل في الوعيد ، ومن يمدح العلم ولا يجتهد في طلبه مع الإمكان فهو داخل أيضا في الوعيد ، ومن يمدح السخاء والجود وهو يبخل مع قدرته وثروته فهو داخل في الوعيد . قال الله عز وجل : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

أما العجب العجاب المؤسف فإن أكثر الناس في هذا الزمان يقولون ويتقوّلون مالا يفعلون ، بل يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، والعياذ بالله تعالى الجبار كما هو شأن أكثر المقلدين وأهل الطرق فإنهم يمنعون الناس من حضور دروس التوحيد والتفسير والحديث ، ولكنهم يرغّبونهم في البدعيات والخرافات من تقليد المذاهب المحرّفة ، والطرق الفاسدة الباطلة ، ومع ذلك يدّعون التوحيد والتقوى ، فهم داخلون في الوعيد ألبتة .

الآية الثالثة والتسعون فيها أيضا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبها إياهم فقال: يا أيها المؤمنون الصادقون

الطالبون سعادتى الدنيا والآخرة ، والفوز بالرضا والرضوان والجنة (هل أدلكم على تجارة) عظيمة مباركة رابحة تكون سببا لإنجاء الله إياكم ، وتخليصه لكم من العذاب فى الدنيا والآخرة ، وتكون سببا للعزة والسعادة ، وهى تجارة لن تبور أصلا ، ولن تخسر أبدا ، هى (تؤمنون بالله) إيمانا صادقا ، وتؤمنون برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكل ماجاء به من عند الله (وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) قاصدين إعلاء كلمة الله تعالى ونشر التوحيد ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ » وإذا جمعتم هذه الأوصاف الجميلة فذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

لأن هذه التجارة لاتكون إلا رابحة ، بخلاف التجارة الدنيوية فإنها قدلاتكون رابحة ، بل قد تكون خاسرة ، ولو ربحت فربحها قليل زائل .

فيأيها المؤمنون إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات ، وعلاوة على هذه النعم العظيمة السرمدية أزيدكم أيها المؤمنون نعماً أخرى عاجلة فى الدنيا ، وأنتم تحبونها وترغبون فيها ألا وهى (نصر من الله وفتح قريب) ينصركم على أعدائكم ، ويفتح عليكم الفتوحات ، أى إذا قاتلتم فى سبيل الله ، ونصرتم دينه ، وعملتم بأمره ، تكفل الله تعالى بنصركم فهو ينصركم ألبتة ، كما قال الله عز وجل : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) كما ذكرناها وفسرناها سابقا فى الآية السادسة والسبعين ، وهى فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكما يأتى فى قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ) الآية .

وهذه النعم من النصر والفتح عاجلا هى خير الدنيا موصولا بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ، ولهذا قال (و بشر المؤمنين) يارسولى محمد بالنصر

فى الدنيا والجنة فى الآخرة (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ) وقد صدق الله العظيم ؛ إن الناس حينما كانوا مؤمنين صادقين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم كالخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، نصرهم الله تعالى على الأعداء ، وفتح لهم البلدان شرقا وغرباً ، ورفعوا أعلام الإسلام ، فصارت تجارتهم رابحة ، ونجتهم من ظلم الظالمين ، واستعباد المستعبدين ، واستعمار المستعمرين ، وقد غفر الله تعالى ذنوبهم ، وأدخلهم جنات النعيم ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم .

وأما الخلْف الذين قد خالفوا السلف الصالحين ، ولم يعملوا بموجب إيمانهم ، ولم يجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، بل إنما تظاهروا ببعض مظاهر الإيمان والإسلام ، وصار مقصدهم الجاه والرياسة ، والهوى والشهوة ، فصاروا محرومين من النصر والفتح ، والتجارة الرابحة ، والخير الكثير ؛ فذهبت دولتهم وديارهم فى أيدى الكفرة — والله أعلم — كما أنهم صاروا من المحرومين من دولة الدنيا ، فسيحرمون من المغفرة والرحمة وجنات النعيم ، والمساكن الطيبة فى الآخرة ؛ لأنهم قد غيّروا ما بأنفسهم من الوظائف الإيمانية ، واللوازم الإسلامية ، فغير الله تعالى عليهم جزاء وفاقا (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

فيأيها المسلمون آمنوا بالله ورسوله إيمانا صادقا كاملا مثمراً مقترنا بالعمل بموجبه ولا تخدعوا أنفسكم ، ولا تنخدعوا بتسويلات شياطينكم من العلماء السوء الذين جعلوا العلم فخًّا ومصيدة لمآكلهم وشهواتهم ، وشيوخكم الذين مهروا فى الدجل حتى جعلوا الطريقة والتصوف غير الشريعة ، حتى قالوا بلا تحاشٍ : الطريقة غير الشريعة فخرجوا عن الشريعة المحمدية إلى الطريقة الوثنية ، وهم لا يشعرون لجهلهم بمعانى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيأيها الناس إلى متى هذا الضلال وإلى أين هذا الخبال ؟ أما تفيقون من السكرة ؟ أما تصحون من الغفلة ؟ أم أنتم

خرجتم عن مرتبة الإنسانية فهبطتم فى مهاوى الحيوانية ، وسلكتم المسالك الشيطانية وقد غرتكم الدنيا ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا وزينتها ولا يغرنكم بالله الغرور .

الآية الرابعة والتسعون فيها أيضا : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللهِ ؟ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى عليه الصلاة والسلام حين قال : (من أنصارى إلى الله) أى من معينى فى الدعوة إلى الله عز وجل (قال الحواريون) وهم أتباع عيسى عليه السلام (نحن أنصار الله) أى نحن أنصارك ومساعدوك يارسول الله على ما أرسلت به ومؤازروك على ذلك ، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس فى البلدان .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى أيام الموسم « هَلْ مِنْ رَجُلٍ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي » حتى قيض الله تعالى له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الأنصارَ ، وصار ذلك علماً عليهم ؛ رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم وجعلنا فى زمرتهم ومن محبيهم ومتبعيهم وحشرنا معهم بفضله ومنّه .

اعلم أن الله تعالى أعلمنا أن بنى إسرائيل افترقت طوائف ، فآمنت طائفة وكفرت طائفة ، وقد غالت فيه طائفة حتى قالت إنه ابن الله ، وافترقوا فرقا وشيعا فتجادلوا وتقاتلوا ، فأيّد الله تعالى المؤمنين على الكافرين ، فأصبح المؤمنون ظاهرين

على الكافرين ظهوراً بيّناً ، وقد ازداد ذلك ظهوراً ببعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم اعلم أنه كما اختلفت وكفرت طائفة من بنى إسرائيل ، كذلك اختلفت وكفرت طوائف من هـذه الأمة ، وغلت فى نبيّها وآله كالرافضة والشيعة وغلاة الصوفية والحنفية الهندية البريلوية ، فادعت أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب الآن وأن حاله صلى الله عليه وسلم بعد موته كحاله قبل موته ، وهو حىٌّ فى قبره كحياته الدنيوية ، ولهذا ينادونه و يستغيثون به ، حتى إنهم حينما يقرءون قصة المولد يقومون قياما بغاية التعظيم ، و يقولون :

مرحبـــا يا مرحبا يا مرحبا مرحبا جدّ الحسين مرحبا

و إنما يقومون لأنهم يعتقدون أن روحه صلى الله عليه وسلم قد حضر هناك .

وزاد غلوّ متأخريهم حتى صاروا يعتقدون أن الأولياء كعبد القادر الجيلانى مثلا يعلمون الغيب و يتصرفون فى الأمور ، فلهذا تراهم ينادونهم و يستغيثون بهم و ينذرون لهم ، فهؤلاء وأمثالهم كفرة ومشركون ، والعياذ بالله تعالى .

وعن هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً ، قِيلَ مَنْ هُمْ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ هُمْ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » وقد أشار إلى هذه الفرقة الواحدة الناجية بقوله صلى الله عليه وسلم « لاَتَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَيَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَّالَ مَعَ الْمَسِيحِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ » فنسألك اللهم أن تجعلنا من هذه الفرقة الظاهرة على الحق ، وهم أنصار دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم الداعون إلى الحق ، و إلى التوحيد توحيد الألوهية والعبادة ، و إلى العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الآية الخامسة والتسعون فى سورة الجمعة : (يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ

لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إياهم أنه إذا نادى المنادى لصلاة الجمعة فالواجب عليهم أن يسعوا إلى أداء الصلاة وسماع الخطبة ، وأن يتركوا البيع وكلّ عمل يشغلهم عن أداء الصلاة ، فأداء صلاة الجمعة وسماع الخطبة والذكر والوعظ هو الخير النافع للمؤمنين إن كانوا يعلمون مصالح أنفسهم وما ينفعهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، ومعنى السعى الذهاب والحضور لا العَدْو ، والمراد من هـذا النداء هو النداء الذى يكون بين يدى الخطيب إذا جلس على المنبر ، وأما النداء الذى على المنارات ، فإنما زاده عثمان رضى الله عنه فى إمارته لما كثر الناس فليس بمراد ، فمن حين النداء يجب المشى والحضور ، ويحرم البيع والاشتغال .

واعلم أن صلاة الجمعة من فروض الأعيان ، فتجب على كل مسلم عاقل بالغ حرّ ذكر إذا كان مقيما فى مصر أو قرية ، فمن تركها بدون عذر استحق الوعيد الشديد ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تَجِبُ الْجُمُعَةُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِلَّا امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا أَوْ مَمْلُوكًا » رواه الترمذى والنسائى . والعذر المسقط للجمعة المرض أو تعهّد مريض ، أو خوف أو مطر ، أو وحل كثير . ومن لايجب عليه حضور الجمعة إذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة ، سقط عنه فرض الظهر لأنها فرض الوقت .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ » ولاشك أن صلاة الجمعة من أوكد فرائض الإسلام ، ومع هذا فإنا قد شاهدنا كثيرا من المسلمين يتركون الجمعة تهاونا بها ، حتى إنى قد رأيت رجالا من أغنياء مكة ، وأنا نازل عنده ضيفا فى أيام الصيف فى الطائف وهذا الغنى لايحضر لصلاة الجمعة ، وعنده السيارات والمراكب الفاخرة ، وإذا قيل له فى ذلك يتعلل بوجع الرجل أو صداع الرأس ، ولـكن أراه يسعى كل يوم بعد

صلاة الفجر ماشيا على رجليه لزيارة قبر عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، فلما رأيته مراراً قلت له : يافلان لم لاتحضر صلاة الجمعة وهى فرض عين ؟ فأجاب بأنه متأثر أو رأسه دائخ أو مريض ، فأعدت القول فقلت : لم تذهب كل يوم ماشيا إلى زيارة قبر ابن عباس رضى الله عنهما ولا تتأثر ولا تسأم ؟ فأجاب بأن شيخه فلان أوصاه بأن لايترك زيارة قبر الحبر فإنه منبع البركات ، وهذه الدولة التى نلتها كلها ببركة هذا الحبر ، فقلت : ياهذا اتق الله إن البركة إنما هى بيد الله وعنده جل جلاله لاعند أحد من المخلوقات ، ورؤية البركة من غير الله وخصوصا من القبور وأصحاب القبور من شعار عبّاد الأصنام والأوثان والمشركين ، ولكن لم يقبل نصيحتى ولم يلتفت إلى ماقلت ، وقال الوهابيون يقولون هكذا ، فقاطعته قائلا : هذا فراق بينى و بينك .

فانظر ياأخى المؤمن إلى حال المسلمين وجهلهم ، وحال من يسكن فى الحرم قد سخر منهم الشيطان ولعب بهم ، وأغفلهم عن أمر الله وأبعدهم عن فهم معانى كتاب الله والعمل به و بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم اعلم أن الله تعالى لم يأمر عباده المسلمين أن يتركوا الأشغال المعاشية ويجلسوا فى المساجد معتكفين كما يفعله الجهلة وأهل البطالة من أهل الطرق والتكايا ، بل أمرهم بعد أداء فرائض الصلوات أن ينتشروا فى الأرض و يطلبوا من فضل الله الرزق والمعاش ، ومن هذا قال بعض السلف : من باع واشترى فى يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله تعالى له سبعين مرة . وكان عراك ابن مالك رضى الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف ، ثم وقف على باب المسجد فقال : اللهم إنى أجبت دعوتك وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين ، رواه ابن أبى حاتم .

(واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) أى فى حال بيعكم وشرائكم وأخذكم و إعطائكم ، وفى كل حالاتكم اذكروا الله ذكراً كثيراً ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة ، ولا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قياما وقعودا واضطجاعا .

ومن فضل الله طلب العلم ، كما أن من فضل الله المال الحلال والرزق الحلال . وأصل الذكر أن يذكر العبد أمر الله فى كل شئونه ، فيأتيها موافقا لأمره برعاية حدوده ، قال سعيد بن جبير رضى الله عنه : الذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ومن لم يطعه فليس بذاكر ، وإن كان كثير التسبيح باللسان كما هو شأن كثير من الدجّالين المكارين ، وذكر الله حقًّا سبب الفوز والفلاح فى الدارين ، وموجب لجمعية الظاهر والباطن (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .

الآية السادسة والتسعون فى سورة المنافقون : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم بكثرة ذكره ، وناهياً إياهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذكر الله ، وأخبر تعالى أن من انتهى وتلهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلق له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثّهم ورغّبهم على الإنفاق فى طاعة الله ومرضاته . وقد روى الترمذى فى سننه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل يا ابن عباس : اتق الله تعالى فإنما يسأل الرجعة الكفار : فقال سأتلوا عليك بذلك قرآناً : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا . وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) . قال فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً ، قال فما يوجب الحج ؟ قال الزاد والراحلة » .

فيأيها المسلمون لايشغلكم الاهتمام بتدبير أموالكم وأولادكم ، والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكر الله تعالى : من الصلاة والزكاة والحج وسائر العبادات المذكِّرة المعبود . وذكر الله إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، والمراد هنا كل ذلك ، وبالله التوفيق .

الآية السابعة والتسعون فى سورة التغابن : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَاتَّقُوا اللهَ مَااسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ، منبّهاً إياهم ومخبراً أن بعض الأزواج والأولاد عدوّ الزوج والوالد ، فإنه بسببه يتلهى ويشتغل عن العمل الصالح أو يرتكب بسببه بعض المحظورات من السرقة والغش والخيانات ، فلهذا قد أمر الله تعالى المؤمنين أن يحذروا من الوقوع بسببهم فى المحظورات ؛ وكم من زوجة تحمل الزوج على قطع الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبِّه لها إلا أن يطيعها .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رجالاً أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يُهاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم ، وقالوا لانصبر على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الهجرة ، ثم لما هاجروا بعد مدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوا الناس الذين سبقوهم أنهم قد فقهوا فى الدين همّوا أن يُعاقبوا أزواجهم وأولادهم الذين منعوهم فأنزل الله (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) فأمرهم الله تعالى بالعفو عنهم والصفح » .

فيا أيها المؤمنون إنما الأموال والأولاد فتنة ، أى اختبار وابتلاء من الله تعالى.

لخلقه ليعلم من يُطيعُه ممن يعصيه ويقع بسببها الإنسان فى المظالم ومنع الحقوق وتناول الحرام (والله عنده أجر عظيم) .

وقد روى البزار بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْقُلُوبِ وَإِنَّهُمْ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَحْزَنَةٌ » وحيث إن الإنسان مبتلى بهذه الفتنة فقد لطف الله تعالى بعبده المؤمن فقال (فاتقوا الله ما استطعتم) أى جهدكم وطاقتكم (واسمعوا وأطيعوا) أى كونوا منقادين لما يأمركم الله تعالى به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنةً ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله ولا تتخلّفوا عمّا أمرتم به ، ولا تركبوا ماعنه نُهيتم وزُجرتم ، واسمعوا أوامره ومواعظه وأطيعوه ، وأنفقوا مما رزقكم الله تعالى على الأقارب والمساكين وذوى الحاجات وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة .

فيأيها المؤمنون كونوا على حذر واحتياط من أزواجكم وأولادكم وأموالكم واعدلوا فى معاملاتهم ، ولا تلقوا أنفسكم بسببهم إلى المهلكة ، وكم من مال أوقع مالكه فى أنواع البلاء حتى فى الدنيا ، فاتقوا كل ما يكون سبباً لمؤاخذة الله إياكم فى تدبير أمورهم ، وترك تعليمهم أمور دينهم ، ولا ترتكبوا ما يُخالف أمر الله تعالى من فعل أو ترك ، وأنفقوا أموالكم فيما أمركم الله تعالى بالإنفاق فيه خالصاً لله تعالى وفى تربية أولادكم ، واتقوا الشح والبخل (ومن يوق شح نفسه) أى من يقه الله ويعصمه من بُخل نفسه الذى هو الرذيلة المعجونة فى طينة النفس (فأولئك) المحفوظون من الشح ، والسامعون لمواعظ الله ، والمطيعون لأوامره ، والمنفقون فيما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه (هم المفلحون) فى الدارين ، والفائزون بالسعادتين ؛ اللهم وفقنا لما فيه رضاك .

الآية الثامنة والتسعون فى سورة الطلاق : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ

وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا) .

قد أمر الله تعالى العقلاء من عباده المؤمنين وأصحاب اللب وهم (الذين آمنوا) بالله ورسوله إيماناً صحيحاً بتقوى الله تعالى والحذر من غضبه وعقابه ، فخاطبهم مناديا إياهم يا ذوى الألباب والعقول السليمة الذين عرفوا ربهم فآمنوا به إيماناً صادقاً .

أى يأيها المؤمنون ذوو الأفهام السليمة والعقول المستقيمة اتقوا الله ولا تكونوا مثل الذين خالفوا أمره وكذبوا رسله ، وغيّروا ماشرعه ، وابتدعوا فى دينه وعبادته فأصابهم ما أصابهم من بلاء الله وغضبه وعذابه ولعنته ، فياذوى الألباب الذين اتصفوا بصفة الإيمان الصادق (قد أنزل الله) تعالى (إليكم ذكراً) يعنى القرآن و (رسولا) يعنى محمدا صلى الله عليـــه وسلم (يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى من ظلمات الشرك والكفر والجهل والضلال إلى نور الإيمان والتوحيد والعلم ، وإنما وحّد الله تعالى لفظ النور وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد وسبيله واحد ، وهو ما جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتقاديا وعملياً . وأما الظلمات والكفريات والشركيات فأنواعها كثيرة ، وطرقها متعدّدة كما قال الله تعالى : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

وأفادت الآية أن ذوى الألباب إنما هم المؤمنون بالله إيماناً صادقاً ، وأمّا غيرهم من الكافرين والمشركين والزنادقة فليسوا من ذوى الألباب وإن اخترعوا الصنائع العجيبة من السيارات والطيارات والقنابل الذرية والماكينات الجهنمية ، وحصّلوا من الدنيا بالمليارات ، فإنهم من فرط جهلهم أعداء أنفسهم كما لايخفى ، فهم كالشياطين الذين كانوا يعملون فى دولة سليمان عليه السلام من محاريب وتماثيل وجفان وقدور راسيات ، وكالذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ومصانع لعلهم يخلدون ، فانتبهوا ياذوى الألباب .

فالله تبارك وتعالى إنما يُخرج بكتابه المؤمنين العقلاء المتفكرين من الضلالة إلى الهدى ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الشبهات إلى الدلالات والبراهين الواضحات ، ومن الغفلة إلى اليقظة ، ومن الأنس بغير الله إلى الأنس بالله على حسب طبقاتهم ودرجاتهم و بقدر استعدادهم وأهليّتهم فى السعى والاجتهاد بعناية الله تعالى وتوفيقه ؛ اللهم اهدنا فيمن هديت يارب العالمين .

الآية التاسعة والتسعون فى سورة التحريم : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً إياهم أن يحفظوا أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأزواجهم ممّا يصير سبباً للدخول فى نار جهنم ، ووقودُ وحطب تلك النار إنما يكون من الآدمى والحجارة المعبودة من الأوثان والأصنام والهياكل والقبب المبنية على قبور الأنبياء والأولياء وغيرها .

ولا شك أن الوقاية منها إنما تكون بالإيمان بالله ورسوله والعمل بمقتضاه ، و بتأديب الأولاد وتعليمهم الإيمان الصحيح والإسلام الصريح والإحسان والأخلاق الإنسانية والعمل بطاعة الله ، والاحتراز عن معاصى الله ؛ فيأيها المؤمنون اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله ، فتأمروهم بطاعة الله ، وتنهوهم عن معصية الله ، وأن تساعدوهم على ذلك ، فإذا رأيتم منهم معصية الله ، قذعتموهم منها ، وزجرتموهم عنها ، فالحق الواجب على المسلم أن يعلم أهله وأولاده وقرابته وعبيده مافرض الله تعالى عليهم وما أمرهم بفعله ، وما نهاهم عنه .

ومما يفسر هذا مارواه أبو داود والترمذى وأحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ ، فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ

فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا » وكذا الصوم ليكون ذلك تمرينا له على العبادة ، والله سبحانه هو الموفق .

وقد أخبر الله تعالى أن وقود تلك النار وحطبها ما يُلقى فيها من جثث بنى آدم والحجارة : الأصنام والأوثان التى تعبد وتعظم لقوله تعالى : (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) فالمشركون والكفار من وقود جهنم ، وكذا الأصنام المعبودة ، والأوثان المسجودة ، والقبب على القبور المركوعة ؛ ويدخل فيه الذين يأمرون الناس بالسجود والركوع لهم ، أوالنذر لهم ولأرواحهم بعد وفاتهم ، أو يأمرون مريديهم بأن يطلبوا حاجاتهم منهم ، متوجهين إلى قبورهم وقبهم ، فهؤلاء هم الطواغيت ، والطواغيت فى النار (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) .

فيأيها المؤمنون اتقوا الله ، وارحموا أنفسكم وأهليكم من الشركيات والكفريات والضلالات والجهالات ، وكل مانهى الله تعالى عنه ، وهذا يقتضى ويوجب على المؤمنين معرفة كل ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه ، ولاشك أن هذا موقوف على معرفة معانى القرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعليكم أيها المسلمون بالسعى والاجتهاد فى تعلم القرآن وفهم معناه ، كى تقوا أنفسكم من نار الجحيم ، والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، والله الموفق .

الآية المتممة للمائة فيها أيضاً : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمرا إياهم بالتوبة والأوب والرجوع إلى الله توبة ناصحة خالصة صادقة ، تمحو ماقبلها من السيئات ، وتلمُّ شعث التائب وتجمعه ،

وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات ؛ وقد روى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ أَنْ يَتُوبَ مِنْهُ ثُمَّ لَا يَعُودُ فِيهِ » ؛ فالتوبة المنصوح هى أن يقلع عن الذنب فى الحاضر ، ويندم على ماسلف منه فى الماضى ، ويعزم على أن لايفعل فى المستقبل .

ثم إن كان الحق لآدمى رده إليه بطريقه ، والتوبة الصحيحة تَجُبُّ ما قبلها ، كما أن الإسلام الصحيح يجبّ ماقبله .

فيأيها المؤمنون توبوا إلى الله قبل الفوت ، فإنك لاتدرى متى تموت ولابد منه ، فالبدار البدار ، والاستغفار دائما آناء الليل وأطراف النهار ؛ فتوبوا أيها المؤمنون من هذه المذاهب المبتدعة المفرقة ، والطرق الوثنية المضللة ، والتوجه إلى القبور والأرواح ، والاستمداد من الأموات والروحانيات ؛ فاتركوا كل هذه الخرافات ، وارجعوا إلى العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهدوا فى استحصال العُدة والآلات الدفاعية بالاتفاق والاتحاد ، ولكنكم لاتتحدون مالم تتحدوا فى التوحيد والاعتقاد ؛ فجاهدوا أعداء الله تعالى وأعداءكم لتخليص البلاد ، عسى الله تعالى أن يغفر ذنوبكم الماضية ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فتخلصون فى هذه الدنيا من براثين أهل الاستعمار واستعبادهم ، فتعمرون بلادكم وأوطانكم بشعائر دين الإسلام من إقامة حـــدود الله ورفع منار الدين ؛ وأما فى الآخرة فيدخلكم الله تعالى بهذه الأعمال الصالحة جنات تجرى من تحتها الأنهار لأن الله جل جلاله لايضيع أجر من أحسن عملا .

وأما التوبة والاستغفار باللسان بلا رجوع عما كنتم عليه من الضلال فلا تنفع كما هو شأن كثير من المغرورين المغفلين من أهل الغفلة وإن ادّعى أنه من أهل المعرفة ، فهؤلاء قد اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وصلواتهم وأذكارهم مكاء وتصدية ، فتوبتهم صورة بلا روح وعرض بلا ذات ، كمدفع بلا قنبلة وسيارة بلا بنزين ،

فماذا تنفع ؟ هيهات هيهات اللهم أرنا الحق حقا ووفقنا لاتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وسهل لنا اجتنابه .

والعبد الضعيف راقم هذه الحروف حينما كنت فى بلدة غوجلة من بلاد الصين كنت ألّفت كتابا فى التوبة والاستغفار وسميته [تحفة الأبرار فى فضائل سيد الاستغفار] وكان قد طبع هناك عام ١٣٥٠ هجرى، ونشر فى الآفاق . فأسأل الله تعالى التوفيق والثبات على الحق المبين والصراط المستقيم .

فهذه مائة آية قد ذكرتها وفسّرتها على مايسّر الله تعالى ، مقتبسا من تفاسير السلف الصالحين والعلماء المحققين رضى الله عنهم وأرضاهم ، وما شا كلها من الآيات كثيرة على هذا المعنى . قد خاطب الله تعالى بها عباده المؤمنين كلهم ، وناداهم وأمرهم ونهاهم و بشرهم وأنذرهم وزجرهم وخوّفهم ، فقال يـٰأيها الذين آمنوا ، ولم يقل يـٰأيها العلماء ، أو يـٰأيها العرب ، أو يـٰأيها السادات والأشراف ، ولـكن قد خاطب كل المؤمنين بأنتم وكم وكنتم ، فإذًا كل المؤمنين سواء فى التكليف وكلهم مخاطبون بهذه الخطابات الإلهية ، كما أن كل البشر مخاطبون بخطابات يـٰأيها الناس و يابنى آدم ، فبهذا قد توجه الخطاب إليهم ، وكل واحد منهم أهل لفهم ذلك مادام عاقلا بالغا ، ولأنهم لولم يكونوا أهلا لما خاطبهم الله تعالى ، ولما كلفهم ؛ فلا يعذر أحد بالجهل ، سواء كانوا عربا أوعجما ، فارسيًّا أوهنديًّا ، جاويًّا أوصينيًّا ، روميًّا أوحبشيًا ، جابانيًّا أو أمريكانيًّا أو أىّ جنس كان ؛ فما يقوله أو يتقوّله كثير من المؤلفين وقلدهم عامة غوغاء المسلمين بأنهم ليسوا أهلا لفهم معنى القرآن والعمل بمقتضاه و إنما يقرأ القرآن للتبرك وتحصيل الثواب فقط ولو بلا فهم ، لأن فهم معانى القرآن مختص بالأئمة المجتهدين وهم قد انقرضوا منذ تاريخ أربعمائة ، فبعد ذلك العصر انسد على الناس باب الفهم والاجتهاد ، أى باب رحمة الله وفضله ، فالناس قد صاروا محرومين عن فهم كلام ربهم كأنهم قد مسخوا عن الإنسانية إلى الحيوانية ، وعن الآدمية إلى البهيمية وانسلخوا عن صفة العلم والإيمان إلى سفاسف الفلسفة وترّهات الصوفية ، فبذلك

صاروا محرومين من السعادتين ، وقد صاروا محكومين ومرذولين ومخذولين تحت حكم الكفار ، فيخدمونهم آناء الليل وأطراف النهار ، كما لايخفى على من له أدنى عقل سليم أو فهم مستقيم .

فهؤلاء المحرومون و إن ادعوا العلم والفضل والكمال وتلقبوا بالعلامة المحقق والفهامة المدقق ، أو الألمعى اللوذعى ، أو الشاعر الفريد الفرزدق ، لكنهم لايعلمون الإله ولا معناه ، فحيث لايعرفون معنى الإله فقد اتخذوا إلههم هواهم وعبدوا غير الله وهم لايشعرون ، وأشركوا بالله رب العالمين شركا صريحا كبيراً ، بل أكبر وهم و إن قالوا الله رب العالمين ، ولكنهم يعتقدون أن الروحانيات لها حق التربية ، فتربى من يدعوها وتعين من يستعين بها ، وكذا أرواح الأنبياء والأولياء يعلمون الغيب و يتصرفون فى الكون ؛ فهؤلاء المحرومون لو استعملوا عقولهم وفكرهم التى صرفوها فى فهم فلسفة أفلاطون ودراسة حكمة أرسطو ومذاكرة ديوان ابن الفارض والفارابى والمتنبى ، وما ألفه الغير المعصومين من المؤلفات الغامضة والأغلوطات والألغاز والمعميات الغاوية إلى فهم كتاب رب العالمين وتدبر معانيه كما أمر الله جل جلاله لوصلوا إلى الحق الصريح الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونالوا رضى الله تعالى ورضوانه ، فكانوا من أهل السعادتين فى الدارين .

وما علم هؤلاء المحرومون أنهم إن كانوا مؤمنين ، فهم داخلون ألبتة فى خطاب ونداء يأيها الذين آمنوا ، ومكلفون بامتثال هذه الأوامر ، والامتثال لايتحقق إلا بالفهم ولكنهم كأنهم لما نسوا أمر ربهم ، وفهم كلام خالقهم ، فأنساهم أنفسهم وأهمل أمرهم وشأنهم جزاء وفاقا . وهذه الآيات صريحة فى إيجاب الله تعالى على المؤمنين ، خصوصا وعلى عامة البشر عموما تعلم لغة القرآن ومعرفة كلام العرب ، ولا يُعذر أحد بالجهل بها ، لأن الإنسان قابل للتعلم ومعرفة اللغات والصنائع والأشياء كلها ،

فتى تساهل وقصر فى التعلم فهو المقصّر المسئول فى الدنيا والآخرة ، وكيف لاتجب على العبد معرفة كلام مولاه وخالقه وربه ؟ فاعتبروا يا أولى الألباب والأبصار .

فصـــل

اعلم أن اليهود عندهم التوراة ، والنصارى عندهم الإنجيل وهم يقرءونهما تعبدا فى معابدهم ، ولـكن لايعملون بأمرهما ونهيهما ، فهل نفعهم الإنجيل والتوراة ؟ كلا . بل صاروا ملعونين وضالين ومغضوبا عليهم بعد أن قامت حجة الله عليهم ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك فى سورة المائدة : (قُلْ يَا أَهْلَ الْـكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْـكُمْ مِنْ رَبِّـكُمْ) ؛ فمن يتأمل هذه الآية يعلم يقينا أن حفظ الـكتاب ودراسته بدون فهم وعمل اعتقاديًّا وعمليًّا ليس بشىء ، بل هو وبال عليه وتضييع للعمر والوقت بلا ثمرة .

ومن وزن حال المسلمين اليوم وقبل اليوم ، فإنهم وإن حملوا القرآن وحفظوه غيبا ، وحسنوا خطه ونقشه ، وزخرفوه بأنواع الزخارف والنقوش ، ولـكنهم عن معانيه غافلون ، وعن تدبر مافيه فارغون ، وعن الاعتقاد والعمل بما فيه بعيدون ، والعبرة المسلم فى هذه الآية أن يعلم أن المسلمين لايكونون على شىء يُعْتَدّ به من أمر الدين حتى يقيموا القرآن ، وما أنزل إليهم من ربهم فيه ويهتدوا بهدايته ، فحجة الله تعالى على جميع عباده واحدة ، فإذا كان الله تعالى لايقبل من أهل الـكتاب قبلنا تلك التقاليد التى صدتهم عما عندهم من وحى الله تعالى على ما كان طرأ عليه من التحريف بالزيادة والنقصان ، فأن لايقبل منا مثل ذلك مع حفظه لـكتابنا أولى ، والناس عن هـذا غافلون وبالانتساب إلى المذاهب راضون ، وبهدى أئمة الدين لايقتدون ، وإلى حكمة الدين ومقاصده لاينظرون (ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الـكاذبون) ، وأفاد الله تعالى أن الانتساب إلى الدين لايفيد فى الآخرة إلا بإقامة كتاب الدين .

فصـــل

اعلم أن الأمة إذا تركت العمل بكتابها المنزل من ربها اعتقاداً وعملا قست قلوبها فصارت ملعونة كما قال الله تعالى : (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ) الآية (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » الآية . ونقض الميثاق يدنس النفوس ويفسد الفطرة ويقسى القلوب ، فلا تؤثر فيها الحجة والموعظة فبسبب ترك العمل بالكتاب يقع التفرق فى الدين ، وتحدث العداوات والبغضاء ، والمسلمون من منذ ماتركوا التدبر فى كلام ربهم وأهملوا العمل به حق العمل ، وكذا تركوا العمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما وافقت هواهم وشهوتهم ، تفرقت الآراء وتعدّدت المذاهب والطرق ، وحدثت الشركيات والكفريات والبدع والضلالات ، فعادى بعضهم بعضا فتباغضوا وتدابروا وتقاتلوا إلى أن صاروا طعمة لثعابين الإفرنج والروس والطليان والبلاشفة والأمريكان وهم لايشعرون ، ومن سكرتهم لايفيقون ، وعن غيهم لايرجعون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

فيأيها المسلمون لاتفتروا بمجرد تلاوة القرآن بلافهم معناه والعمل بمقتضاه ، وأنتم إنما تقيمون الحجة على أنفسكم ، كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم « الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ » رواه مسلم . وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم « رُبَّ تَالٍ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ » فحيث ترك المسلمون العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تركهم الله تعالى بحيث تسلطت عليهم الكفار ، واستولت على أوطانهم الفجار ، فحكمت عليهم بما شاءت من قانون جبار ، وأذلتهم تذليل الحمّار للحمار ، وهذا هو جزاؤهم فى هذه الدار ؛ وأما جزاء إعراضهم عن العمل بالقرآن واتخاذهم الأرباب من دون الله من الأحبار والرهبان واتخاذهم القبور وأصحابها معبودا كالأوثان ،

واستغاثتهم بالأرواح ، ونذرهم للجن والشيطان ، وتباغضهم وتدابرهم لأهل التوحيد والإيمان ، وتركهم الجهاد فى سبيل الله وموالاتهم لأهل الخذلان ، فهو تعالى العليم الخبير يجازيهم يوم الدين بالعدل ، وهو جل جلاله قد أخبر أن جزاء المشركين والكفار النيران ، فنعوذ بالله منها ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ومن شر شياطين الإنس والجانّ .

فصـــل

فى ذكر الأحاديث النبوية الواردة الثابتة فى الصحاح والسنن والمسانيد المعتبرة فى لزوم فهم معنى الكتاب والسنة والعمل بموجبهما

وذلك أن الله تعالى أمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ببيان ماأنزله الله تعالى إلى الناس فقال جل جلاله : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) الآية ، وهو صلى الله عليه وسلم قد بيّن بيانا واضحاً ؛ فالأحاديث النبوية كلها قولية كانت أوفعلية بيان لما فى القرآن وتفسير له كما لايخفى .

(الحديث الأول) مارواه الإمام ابن ماجه فى سننه والإمام البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » وواضع العلم عند غير أهله كمقلّد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب ؛ ولاشك أن العلم المفروض طلبُه إنما هو علم التوحيد والحلال والحرام ، وهو المبين فى الكتاب والسنة لاغير ، فإذاً يجب على كل إنسان مسلم معرفة معانى القرآن والحديث ، وخصوصاً مايتعلق بالتوحيد ، ثم الحلال والحرام ، ولا يُعذَر أحد بتركه والجهل به ، وهوفرض عين بلا خلاف ، وكذا علم مايحتاج إليه الإنسان فى حياته ومعاشه ؛ فمن ذلك الصنائع الضرورية ، ومعرفة لغة العرب ، وإعداد آلات الجهاد والدفاع ، وحفظ دار الإسلام ؛ وفى رواية ابن عبد البر : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

وفى مسند الفردوس : « طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « طَلَبُ الْعِلْمِ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ » الحديث . ولاشك أن هذا المفروض إنما هو علم الدين من التوحيد ، ومعرفة رب العالمين بصفاته جل جلاله ، والحلال والحرام والجهاد ، وما تتوقف عليه الحياة الإنسانية دنيوية وأخروية ، والمتكفل بهذه العلوم كلها إنما هو القرآن والحديث النبوى ؛ وأما الاشتغال بالفلسفة والأشعار فخزعبلات وترّهات ، وكذا مايدعيه أكثر متصوفة الزمان كما لايخفى .

(الحديث الثانى) ما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَالْقُرْآنَ وَعَلِّمُوهَا النَّاسَ فَإِنِّي مَقْبُوضٌ » والفرائض جمع فريضة ، وهى كل ما أوجبه الله تعالى على عباده من علم التوحيد وكل مايتعلق بالدين ، وتعلموا القرآن وافهموا معناه وعلموه الناس ، ولا شك أن العلم مقدم على العمل ، لأنه تعالى يقول : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ) قال التور بُشتى : الظاهر أن المراد ما افترضه الله تعالى على عباده كأنه قال : تعلموا الكتاب والسنة الخ ؛ وذكر الجلال السيوطى فى الجامع الصغير مايؤيد هذا ، وهو : « تَعَلَّمُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنَّهَا مِنْ دِينِكُمْ ، وَخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » فتعلُّم كيفية الحج والصلاة وصفاتها من الفروض العينية على كل من وجب عليه الحج ، وعلى كل من وجبت عليه الصلاة .

(الحديث الثالث) مارواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَاقْرَءُوهُ » الحديث وروى أحمد فى مسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ وَتَعَاهَدُوهُ وَتَغَنَّوْا بِهِ » ، أى احفظوا القرآن وتفهّموه واقتنوه والزموه ، لأن المقصود من القرآن فهمه والعمل بموجبه ، لأنه قد كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ، وأن تقولوا بلا دليل : هذا حلال وهذا

حرام لتفتروا على الله الكذب ، والعمل بلا علم فاسد ، كما أن العلم بلا عمل باطل ، بل حجة على صاحبه ، وخزى وندامة يوم القيامة ، ولأن العلم كالشجرة ، والعمل به كالثمرة ، فإذا كانت الشجرة لاثمرة لها فلا فائدة فيها و إن كانت حسنة المنظر .

(الحديث الرابع) مارواه أحمد والترمذى وابن ماجه والدارمى عن زياد بن لبيد وأبى أمامة رضى الله عنهما قالا : « قدْ ذكَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم شيئًا هائلاً فقَالَ ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ العِلْمِ ، قلْتُ يارسولَ اللهِ كيفَ يذهَبُ الْعِلمُ وَنحْنُ نَقرَأُ القُرْآنَ ، ونقْرِئُه أَبْنَاءَنَا ، وَيُقْرِئُهُ أَبنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ زِيَادُ ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ فِي الْمَدِينَةِ ، أَوَلَيْسَ هذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَلاَ يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا » قال علىّ القارى فى مرقاة المفاتيح : أى فكما لم تفدهم قراءتهما مع عدم العلم والعمل ، فكذلك أنتم ، والجملة حال من يقرءون ، أى يقرءون غير عالمين بمعناهما ، ولا عاملين بموجبهما ، ففيه تنزيل العالم الذى لايعمل بعلمه منزلة الجاهل ، بل منزلة الحمار الذى يحمل أسفاراً ، بل أولئك كالأنعام بل هم أضلّ .

(الحديث الخامس) مارواه البيهقى فى شعب الإيمان والخطيب فى المشكاة عن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَى مِنَ الْإِسْلاَمِ إِلاَّ اسْمُهُ ، وَلاَ يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلاَّ رَسْمُهُ ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى ، عُلَمَاؤُهُمْ شَرٌّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودُ » ، أى لايبقى من علوم القرآن وآدابه إلا أثره الظاهرى من قراءة لفظه ، وكتابة خطه بطريق الرسم والعادة ، لاعلى جهة تحصيل العلم والعمل والعبادة ؛ فالقرّاء إنما يراعون التجويد ، وحفظ مخارج الحروف ، وتحسين الألحان فيه ، دون التفكر فى معانيه ، والامتثال

بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، وأكثر الناس ساهون عن الصلاة هم يراءون ويمنعون الماعون .

قال الإمام البخارى فى جامعه الصحيح : العلم قبل القول والعمل ، لقوله تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ـ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ـ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ) . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ » أى يفهمه والمراد به علم الدين ، وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من العقائد والأعمال والأقوال والأخلاق « وإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ » ، وروى الطبرانى عن معاوية رضى الله عنه مرفوعا : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ تَعَلَّمُوا ، إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ » ، أى لا يحصل العلم المعتدّ به النافع إلا المأخوذ عن الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات على سبيل التعلّم والتعليم ، لا بالكشف والإلهام ، أو الخيال والمنام ، ولا بالفلسفة والسفسطة ولا بالمنطق والشمسية ، وحكمة العين والشفاء والإشارات ، كما يدعيه كثير ممن غرق فى ردغة الفلسفة أو سفاسف الصوفية .

قال العلامة العينى فى عمدة القارى : لاشك أن من أراد شيئاً تعلّم علم ذلك الشىء ثم يعمل به ، فالعلم مقدم على العمل بالذات ، كما أنه لا عمل إلا بالنية ، ولا توجد النية إلا بالعلم ، لأن النية إنما هى قصد فعل الشىء بعد العلم به كما لا يخفى . وأفادت الآية الكريمة أن التوحيد مما يجب العلم به ، ولا يجوز فيه التقليد ، فإذاً لابد لكل طالب نجاة وسعادة من طلب علم الكتاب والسنة ، وهذا لا يحصل إلا بتعلّم لغة الكتاب والسنة ؛ فيجب على كل البشر عموما والمسلمين خصوصاً تعلّم معنى الكتاب والسنة ، ومعرفتهما معرفة صحيحة كما لا يخفى .

(الحديث السادس) ما روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ

قَبْلِي ، فذكرَ منها : وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » أى العرب والعجم والأسود والأحمر . قال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ ـ وَ ـ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) فالواجب على المرسَل إليهم معرفة كلام رسول الله إليهم ، وإلا فلا يحصل من الإرسال شئ ؛ فيا أخى المسلم إن كل عاقل يعرف أن رعايا الحكومات يتشبثون بتعلم لغات حكوماتهم ، ويعلِّمون أولادهم إياها ، لما يعلمون أنهم ينتفعون بها فى معاشهم ومعاملاتهم وحياتهم الدنيوية ، وكذا يحصلون بها بعض المناصب العالية والدرجات السامية فى هذه الحياة القصيرة الفانية ؛ فاذا كان الأمر هكذا ، أليس الألزم الأوجب الأنفع عاجلا وآجلا تعلُّمَ كلام رب العالمين تعلماً تاما حتى يعرفوا مقاصد ربهم الحكيم ومرضاة مولاهم الرءوف الرحيم ، فيعملوا به لينالوا العز والشرف فى الدنيا والآخرة ، ويفوزوا بدولة الرضا والرضوان والرحمة فى دار النعيم ، والخلود الدائم أبد الآبدين ؛ فانتبهوا يأيها المفتونون والمغرورون ، إما بزخارف الدنيا الفانية ، وإما بدجل الدجالين ووساوس الشياطين ؛ اللهم نور بصرنا وبصيرتنا ، واهدنا صراطك المستقيم ، آمين يامجيب السائلين .

(الحديث السابع) حديث جبريل الذى رواه الشيخان وأصحاب السنن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففيه آخرا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » فاعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » ولم يقل يروى لكم دينكم ، ليفيد بذلك أن المقصود العلم والفهم ، كما أن الإيمان التصديقُ ، وهو لا يحصل إلا بالعلم بالمؤمَن به ، فإذاً يجب العلم على كل مؤمن ومسلم ، فلا يصح إيمانه ولا إسلامه إلا بالعلم : علم ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنبه .

(الحديث الثامن) ما رواه ابن الأنبارى فى كتاب الوقف والسيوطى فى الجامع الصغير عن أبى جعفر الأنصارى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « أَعْرِبُوا الْكَلَامَ كَيْ تُعْرِبُوا الْقُرْآنَ » وروى الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن قال الحافظ أبو يعلى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ » وحيث إنه يجب معرفة معاني القرآن ، وذلك موقوف على معرفة لغة العرب معرفة كاملة ، لأن ما يتوقف عليه الواجب واجب كما لا يخفى .

والعبد الضعيف قد بيّنت هذا الأمر في رقم ٩٥٥ من كتابي [حبل الشرع المتين] فعليك به .

(الحديث التاسع) ما رواه في شرح السنة والنووي في أربعينه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ » فإذاً لا بدّ لكل من يريد أن يكون مؤمناً بالله ورسوله و ينال ما وعد الله ورسوله المؤمنين أن يعلم كل ما جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين والشرع ؛ وأما من لم يعلم ذلك فكيف يتبعه ؟ و إنما يتبع هذا الرجل من يظنه إماماً أو يعتقده عالماً من غير معرفة دليل ذلك الغير ، ومن كان حاله هكذ فهو قد اتخذ ذلك الغير أرباباً من دون الله ، كما هو شأن كثير من مقلدة المذاهب وأصحاب الطرق فتنبه .

(الحديث العاشر) ماروا، رُزين والخطيب في المشكاة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « مَنْ تَعَلَّمَ كِتَابَ اللهِ ثُمَّ اتَّبَعَ مَا فِيهِ ، هَدَاهُ اللهُ مِنَ الضَّلَالَةِ فِي الدُّنْيَا وَوَقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوءَ الْحِسَابِ » وفي رواية قال « مَنْ اقْتَدَى بِكِتَابِ اللهِ لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى » ويؤيده ما رواه مالك في موطئه مرسلاً عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ » فأفاد رضي الله عنه أن تعلّم كتاب الله وفهم معناه مقدم على الاتباع لأن الاتباع موقوف على معرفة ما يتبعه ؛ فهذا يوجب على كل

مسلم تعلّم كتاب الله وسنة رسوله ومعرفة معناها ، ولكن الأسف أن عامة المسلمين تركوا تعلم كتاب الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذين تعلموا القرآن أو حفظوه فإنما تعلموا قراءته فقط وحفظوا حروفه وألفاظه من غير معرفة معناه .

فحيث إنهم جاهلون بالمعنى تراهم قد خالفوه اعتقاداً وعملاً فصار القرآن حجة عليهم كما لايخفى على كل من له عقل أوألقى السمع وهو شهيد ، ويقولون الحمد لله رب العالمين ثم يقولون إن الأرواح تربّى ويقرءون (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ثم يركعون ويسجدون لأكابرهم عند الملاقاة وينذرون للروحانيات وأهل القبور بل الجن والشيطان ويستعينون بأهل القبور ويستمدون من الأرواح أرواح مشايخهم وعبد القادر الجيلانى ، أليس هؤلاء قد خالفوا ما قرءوا لأنهم جاهلون بمعنى ما تلوا ، ومحرومون من الانتفاع بكلام رب العالمين ، وبعيدون عن سنة سيد المرسلين ، فلهذا تراهم قدضلوا وأضلوا ، وإن ادعوا أنهم مسلمون ، ولكن إسلامهم لفظى فقط أو إسلام جغرافى فتدبّر .

(الحديث الحادى عشر) ما رواه الشيخان عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي » وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا » وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ عَنْهُ إِلاَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » فهذه الأحاديث الثلاثة صريحة فى أن الخير كل الخير ، والسعادة كل السعادة ، والشرف كل الشرف فى التفقّه فى الدين ، وفقهُ الدين وعلمُه إنما يؤخذ من الكتاب والسنة ، ولا اعتبار هنا للرأى والهوى والتفلسف ، لأن الدين ما يُدان به فى يوم

الدين وذلك لايكون إلا عند الله فلا يُعرف إلا بأخبار الله تعالى إما فى كتابه القرآن أو بيان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا مدخل للعقل والقياس هناك ؛ وأهل الضلال ما ضلوا إلا بقياسهم رب العالمين بالمخلوقين ، فقاسوا الله بالملوك ، وقاسوا عالم البرزخ بهذا العالم ، وقاسوا الغائب بالشاهد ، فضلوا وأضلوا ، فاستحقوا غضب الله تعالى وصاروا من المحرومين فتدبر .

(الحديث الثانى عشر) ما رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا » فقد ظهر من هذا الحديث أن المقصود من الكلام إنما هو الفهم والإفهام ، فالواجب على كل مكلف الفهم والإفهام ، ولأجل تعليم العباد أنزل الله القرآن ، فمن لم يفهم فليس من بنى الإنسان ، بل هو حيوان فى صورة إنسان .

(الحديث الثالث عشر) ما رواه الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ » لأن الفقيه لايقبل إغواءه ، ويأمر الناس بالخير والتوحيد والاعتماد على الله وحده ، والعمل بكتابه واتباع سنة نبيِّه ، ويصونهم عن إغوائه ببيان الصراط المستقيم ، وإيضاح صراط أهل الجحيم من دعاء غير الله أيّا كان ، وعبادة غير الله أيّا كان ، والاعتماد على غير الله أيّا كان ، وتقليد غير المعصومين فى الدين والتقوّل على الله وعلى الرسول بالظن والتخمين ، ولايخفاك أن إمام الفقهاء على الإطلاق إنما هوسيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بعده أبو بكر الصديق، ثم بعده عمر الفاروق رضى الله عنهما ، الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا ابْنَ الخطَّابِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ » وهو الذى قال حينما حج وأراد طواف البيت حينما وصل إلى الحجر الأسود : إنى

أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبَّلَكَ ما قبَّلتك ، فقبَّل اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم واتباعًا له ، وهو الذى أمر بقطع شجرة الرضوان التى كانت فى الحديبية وذكرها الله تعالى فى كتابه ، وقد جلس النبى صلى الله عليه وسلم تحتها وأخذ البيعة من أصحابه هناك ؛ وإنما قطعها حينما رأى الناس يبحثون عنها ليتبركوا بها ، وهذا هو الفقيه الذى هو أشد على الشيطان من ألف عابد ، ثم من الفقهاء عبد الله بن مسعود وعثمان وعلىّ وحذيفة وسائر الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم ، ثم تابعوهم بإحسان ؛ ومن هذه الأمة الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وابن قيم الجوزية ومحمد بن عبد الوهاب النجدى ، وأمثالهم ممن أنعم الله تعالى عليهم بالعلم النافع والعمل الصالح ، جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا فى زمرتهم ، فهؤلاء هم فقهاء ملة الإسلام وهداة الأنام ، وهم وإن كانوا قليلين عدداً ، ولكنهم كثيرون درجة ورفعة عند الله تعالى ، وأما غيرهم من أدعياء العلم والدين والزهد والتقوى ، فهم وإن سوّدوا الدفاتر ، وألفوا الأساطير ، وصنفوا الكتب ، ولكنهم مخلِّطون ، ولعقيدة الأنام مُخرِّبون ، قد ملئوا الدنيا بالخرافات ، وأفسدوا العقول بالترّهات والخيالات ، ولقبوها بالتصوف ، وزينوها بالتفلسف ، فصار التقىّ عندهم من يدعو غير الله ، ويعبد مَن دون الله ، وينذر لغير الله ، ويرجو غير الله ، ويخاف غير الله ، مسمياً إيّاه بالأقطاب والأبدال والنجباء والأوتاد ورجال الغيب ، فبذلك أشركوا بالله شركا أكبر وهم لا يشعرون ، وقد لعبت بهم الشياطين وهم لا يفهمون ، وقد حصل إبليس مقصده منهم بقوله (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ولكن قليل من عباد الله الشكور المخلص ، اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين والموحدين الشاكرين .

كل جمع تجمّعوا وبنقصى تحدّثوا
لا أبالى بجمعهم كل جمع مؤنّثُ

أولئك آياتى فجئنى بمثلها إذا جمعتنا يا عنود المباحثُ

وزهّدنى فى الناس معرفتى بهم وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب

فلم ترنى الأيامُ خــلاًّ يُسرّنى ... مباديه إلا ساءنى فى العواقب

لقاء الناس ليس يفيـد شيئاً ... سوى الهذيان من قيل وقال
فقلّل من لقـاء الناس إلا ... لأخذ العـلم أو إصلاح حال
وخِلاّنُ الزمان بكل حال ... جواسيسُ العيـوب بكل حال

فصــل

فِى أقوال الصحابة الكرام والتابعين لهم باحسان رضي الله عنهم فى لزوم فهم معانى القرآن على كل مسلم من أىّ جنس كان عُرْبا أو عُجماً شرقيًّا أو غربيًّا ، ولا يُستثنى منه إلا الصبى الغير البالغ والمجنون الذى لايعقل أصلاً لأنه لايتوجه عليهما الخطاب ، ولا فرق بين الذكر والأنثى .

وقد ذكر الحافظ محمد صالح الفلانى المتوفى عام ١٢١٨ هجرى فى كتابه [إيقاظ همم أولى الأبصار] ص ٨٠ مانصه : قال حافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر : طلب العلم درجات ؛ فأول العلم حفظ كتاب الله عز وجـل وتفهمه وكل مايُعين على فهمه من لسان العرب ، ثم النظر فى السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبها يصل الطالب إلى فهم مراد الله تعالى فى كتابه ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى الآفاق أن يُبلّغوا السنة والفرائض واللحن ؛ يعنى النحو كما يُتعلّم القرآن .

وعن أبى عثمان قال : كان فى كتاب عمر رضى الله عنه : تعلّموا العربية فتفهموا فى السنة . وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى : من حفظ القرآن عظمت قيمته ، ومن طلب الفقه نبل قدره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى النحو رقَّ طبعُه ، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم ، ومن عارض السنن برأيه فهو ضالٌ ومضل .

واعلم أن القرآن والسنن هما الأصل والمعيار والميزان ، وليس الرأى والقياس عياراً على الكتاب والسنة ، ومن جهل الأصل لم يصب الفرع أصلاً .

وروى فى جواهر الأدب أنه روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه والعمل بذلك مابقيت إنك على كل شىء قدير .

قال الحافظ ابن الجوزى فى كتابه [تلبيس إبليس] : إن من تلبيس إبليس أنه قد شغل القراء بتحسين القراءة والاشتغال بالشاذّ طول عمرهم مع الغفلة عن المعانى وفهمه والعمل به . قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملا ؛ يعنى أنهم اقتصروا على التلاوة وتركوا العمل به .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً) فمن هجرانه ترك الإيمان به ، ومن هجرانه ترك تدبّره وتفهمه ، ومن هجرانه ترك العمل به وترك امتثال أمره وترك اجتناب زواجره ، ومن هجرانه العدول عنه إلى غيره من شِعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة ومذهب مأخوذ من غيره ، والصحابة رضى الله عنهم كانوا يقرءون ويفهمون فيعملون لأن العمل بلا فهم وعلم متعذر .

وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالى الطوسى فى الفصل الثالث من [قواعد العقائد من إحياء علوم الدين] : إن عِصابة السنة وأهل الحق الذين حفظهم الله تعالى عن زيغ الزائغين وضلال الملحدين ، ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، ويسّر لهم اقتفاء آثار السلفِ الصالحين ، هم تحققوا واتفقوا على أن النطق بما تُعُبِّدَ به من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وقد عرفوا أن كلمتى الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته

و إثبات أفعاله ، و إثبات لامعبود بحق إلا هو وحده لاشريك له ، و إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأن مخالفته توجب تكذيبه فتنبه .

قال الإمام محي السنة البغوى فى تفسيره : إن الناس كما أنهم متعبَّدون باتباع أحكام القرآن وحفظ حدوده ومعرفة معانيه فهم متعبدون بتلاوته وحفظ حروفه أيضا ؛ فقد تبين أن فهم معانى القرآن والحديث والتفهم لها واجب ، لأنه لايصح العمل إلا بعد العلم ، والعلم لايحصل إلا بالفهم والتفهم ، والقرآن و إن كانت تلاوتُه عبادة مطلوبة يُتعبَّد بها ، ولكن المقصد الأصلى منه الفهم والعمل ، فمن يتلوه ولا يفهم معناه ولا يعمل به فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، أو كمثل اللون بلا طعم ولا رائحةٍ طيبة ، أو كمثل بُندقية أو مدفع بلا قنابل ولا رصاص ، أو كمثل سيَّارة بلا بنزين فتنبه .

قال الجلال السيوطى فى النوع الحادى والخمسين من كتابه [الإتقان] : روى البيهقى وأبوعبيد عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إِذَا سَمِعْتَ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَوْعِهِ سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ » .

وأخرج الترمذى وابن ماجه وأحمد عن على رضى الله عنه : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَظْهَرَهُ فَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ » . وعن عائشة رضى الله عنها : « الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ » .

ثم ذكر الجلال فى النوع السابع والسبعين منه : اعلم أن من المعلوم أن الله تعالى إنما خاطب خلقه بما يفهمونه ، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه وأنزل كتابه على لغتهم . وقال الإمام ابن تيمية : يجب أن يُعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ) يتناول هذا وهذا ، وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما رضى الله عنهما أنهم كانوا إذا تعلّموا

من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . وأقام ابن عمر رضى الله عنهما على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه فى الموطأ لأنه تعالى قال (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) وقال (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لايمكن ، وكيف لايجب فهم كلام الله الذى هو عصمتهم و به نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم الخ .

فصل

فى أقوال علماء أصول الفقه من أهل المذاهب الأربعة المشهورة كالحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية وأهل الحديث من علماء أهل السنة والجماعة .

شكر الله تعالى سعيهم ورحمهم الله تعالى رحمة واسعة وأدخلهم فى فردوس الجنات فى لزوم فهم معنى القرآن الكريم والحديث النبوى على كل مكلف من المسلمين ، وأنه لا يُعذر أحد فى ترك ذلك مادام عاقلا بالغاً ، والعباد كلهم مكلّفون بمعرفة الله وتوحيده والإيمان به و برسوله ؛ كما أن المسلمين كلهم مكلفون بفهم معانى الكتاب والسنة والعمل بمقتضى ذلك ، فأسأل الله تعالى الكريم الوهاب أن يوفّقنا لذلك بفضله ومنّه ، فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال الشيخ موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلى المقدسى فى كتابه [روضة الناظر وجُنّة المناظر] ص ١٤٧ ج ٢ : ماورد من خطاب مضافاً إلى الناس والمؤمنين دخل فيه العبد لأنه من جملة من يتناوله اللفظ و يدخل النساء فى الجمع المضاف كقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ ـ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ) و (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ونحو ذلك يتناول العبد والمرأة لأنهما من الناس والمؤمنين والأمة والمكلفين ، ولفظ الناس والبشر والإنسان وضع للعموم ، فيتناول الذكور والإناث والعبد والأمة والصغير ، وخروج العبد والأمة

والصغير والنساء عن بعض التكاليف لا يوجب رفع العموم فيه ؛ كالمريض والمسافر والحائض ؛ وأكثر خطاب الله تعالى فى القرآن بلفظ التذكير كقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا ـ و ـ ياعبادى الذين أسرفوا ـ وهدى للمتقين ـ و بشرى للمؤمنين) والنساء يدخلن فى جملته ، وذكره تعالى لهن بلفظ مفرد تبييناً وإيضاحا لا يمنع دخولهن فى اللفظ العام الصالح لهن ، وما من عموم إلا وقد تطرق إليه التخصيص إلا اليسير ؛ فالعام إذا دخله التخصيص يبقى حجة فيما لم يخص عند الجمهور لأن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتمسكون بالعمومات فتدبر الخ .

وفيه أيضا ص ١٥٧ ج ٢ : اللفظ العام يجب اعتقاد عمومه فى الحال ، ولفظ العموم يفيد الاستغراق ، ولا يجب البحث عن المخصص ؛ وإذا ظهر المخصص فلا يسقط قيام الحجة بالعام ، ثم يجب اعتقاد عمومه فى الحال والزمان مالم يرد نسخ وكذلك فى الأعيان ، ولا نعلم خلافا فى جواز تخصيص العموم ، ويستحيل خطاب وتكليف من لا يفهم كالصبى والمجنون .

وفيه أيضا ص ٣٣٢ ج ١ : والأمة كلها متعبَّدة بالنصوص والأدلة القواطع ، مُعرَّضون للعقاب بمخالفتها الخ .

وفيه أيضا ص ٩٧ ج ٢ : الأمر لجماعة يقتضى وجوبه على كل واحد منهم ، ولا يسقط الواجب عنهم بفعل واحد منهم إلا أن يدل دليل عليه ؛ فيكون فرض كفاية الخ .

وقال محمد بن إسماعيل الأمير الصنعانى الشوكانى فى كتابه [إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد] ص ٣٨ ج ١ : ومعلوم يقيناً أن كلام الله وكلام رسوله أقرب إلى الأفهام وأدنى إلى إصابة بلوغ المرام ، فإنه أبلغ الكلام بالإجماع وأعذبُه فى الأفواه والأسماع ، وأقربه إلى الفهم والانتفاع ، ولا ينكر هذا إلا جامد الطباع ولاحظ له فى النفع والانتفاع ، والأفهام التى فهم بها الصحابة رضى الله عنهم الكلام الإلهى والخطاب النبوى هى كأفهامنا وأحلامهم كأحلامنا ، إذ لو كانت الأفهام متفاوتة تفاوتاً

يسقط معه فهم العبارات الإلهية والأحاديث النبوية لما كنا مكلفين ولا مأمورين ولا منهيين لا اجتهاداً ولا تقليداً الخ .

وفيه أيضاً ص ٤٦ ج ١ : لابد المكلف من تفهم معانى ما كلف به من كلام ربه أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم أو من كلام شيخه وأستاذه ضرورة أنه لايتم له التكليف إلا بالفهم و إلا كان معذوراً غير مكلف ولا مخاطب بشيء من الشرعيات ؛ فالفهم الذى يصرفه فى حل عبارات شيوخه و بيان معانيها لو صرفه فى تفهم كلام ربه وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لوصل إلى المقصود بأسهل طريق ، ولا شك أن أكثر العلوم التى يشتغل أكثر الناس بها فضول الخ .

وفى روضة الناظر أيضاً ص ١٥٤ ج ٢ : ذهب بعض القدرية إلى أن العامة يلزمهم النظر فى الدليل فى الفروع أيضاً كما يلزم فى الأصول ، وهو باطل باجماع الصحابة رضى الله عنهم ، فإنهم كانوا يفتـــون العامة ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد ، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم ، وضدهم ماذهب إليه الحشوية والتعليمية من أن طريق الحق ومعرفته التقليد ، وهذا هو الواجب ، وأن النظر والبحث حرام ، وهؤلاء نزّلوا أنفسهم منزلة الحيوانات العجم ، وهؤلاء هم أكثر من يدعى الإسلام اليوم وقبل اليوم . والحق سؤال الجاهلِ العالمَ لقوله تعالى : (فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) .

وفيه أيضاص ٣٢١ : قد أجمع المسلمون على وجوب تعلم علم الدين على كل مسلم ، وأجمعوا أيضا على جواز شرح الشرع للعجم بلسانهم لضرورة التعليم والتفهيم ؛ وكذلك كان سفراء النبى صلى الله عليه وسلم يبلغونهم أوامره بلغتهم ، لأن المقصود فهم المعنى و إيصاله إلى الخلق الخ ، وأن التعبد فى الحـديث بالمعنى لأنه المقصود لا باللفظ ، ولهذا قد جوزوا رواية الحديث بالمعنى ؛ بخلاف القرآن فإن التعبد بمعناه للإبلاغ و بلفظه للتلاوة والإعجاز بدليل الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فإنه ليس

لها معنى يُفهم فيمتثل ، ونحن متعبَّدون بلفظها والأجر يترتب عليها على كل حرف عشر حسنات كسائر حروف القرآن الخ .

وفيه أيضا ص ٣٤٨ : إن العوام لايُعتبر قولهم عند الأكثرين ، والمقلد حكمه حكم العامى ؛ يعنى أن لفظ العامى يشمل كل من ليس مجتهداً وعالماً . والحق أن المقلد والعامى من واد واحد ، فلا عبرة بقولهم ولا بفعلهم سواء وافق أو خالف ، والمحققون لايقيمون لقولهم وزنا لأنهم كالدابة والأنعام ، والعامى إذا قال قولا فإنما يقوله عن جهل وتقليد ؛ وليس يدرى مايقول ، ولهذا قد انعقد الإجماع على أنه يعصى بمخالفة العلماء ويحرم عليه مخالفتهم ، ولذلك ذم النبى صلى الله عليه وسلم الرؤساء الجهال الذين أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا الخ .

وفى إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين للمرتضى الزبيدى ص٤٣٢ ج١ : اعلم أنه يجب على كل مسلم معرفة مايثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا ، لأن اتباعه إنما يحصل لمن علم ذلك ، والإمام المقلَّد إنما هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقًّا ، وهو الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم حقًّا ، و إنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا هو الذى أُمِرْنا باتباعه لاغيره ، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : مامن أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كل مايثبت عنه صلى الله عليه وسلم مقبول ، قال العراقى رواه الطبرانى فى الكبير و إسناده حسن ، وكذا فى قوت القلوب الخ .

قال الإمام على بن أحمد بن حزم الأندلسى فى كتابه [النبذ] ص ٥٤ ج١ : التقليد فى الدين لغير المعصوم حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد بلا برهان لقوله تعالى : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) والعالم والعامى فى هذا سواء كل على قدر حظه ونصيبه ، ولم يخص الله تعالى عالما من عامى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) وإنما نحن نسأل العلماء ليخبرونا بما عندهم من

أوامر الله تعالى الواردة على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لا عن شرع يشرعونه لنا من قبل أنفسهم .

قال : ثم العجب أن يكون الله تعالى فرض للعامى الذى بالأندلس تقليد مالك ، ومن باليمن ومصر تقليد الشافعى ، ومن بخراسان وماوراء النهر تقليد أبى حنيفة لا غير ، وإذا أسلم رجل من أهل دار الحرب وشهد بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهذا لاشك دخل فى دين الإسلام ، فهل الفرض عليه السؤال عما فرض الله تعالى عليه وأمره به وأمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؟ أو يلزمه أن يسأل عما قال أبو حنيفة أو مالك أو الشافعى أو أحمد رحمهم الله تعالى ؟ فما يقول فيه هذا المقلد الخ ، وبماذا يجيب ؟

قال العبد الضعيف جامع هذه الكلمات : إنى قد ألفتُ فى هذه المسألة رسالة حينما ورد علىّ سؤال من مسلمى الشرق الأقصى بلاد الجابان ، وسميتها [هدية السلطان إلى مسلمى بلاد جابان] فجاءت رسالةً بديعةً ، فعليك بها إن أردتَ التحقيق وبالله التوفيق .

وفى [الوحى المحمدى] للسيد محمد رشيد رضا ص١٢٢ ج١ : يجب على كل المسلمين تعلم اللغة العربية لغة القرآن ، وهذا مجمع عليه بين المسلمين ، كما قرره الإمام الشافعى رحمه الله تعالى فى رسالته ، وقد جرى عليه العمل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم ، ثم الخلفاء الأمويين والعباسيين إلى أن كثر الأعاجم ، وقل العلم ، وغلب الجهل ، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه فى العبادات من القرآن والأذكار ، وقد جعل الله تعالى لغة الدين والتشريع لغة لجميع المؤمنين ، والمؤمنون باعتقاداتهم الإيمانية يكونون مسوقين إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لفهمهما ، والتعبد بهما ، والاتحاد بأخوتهم فيهما ، وهما مناط سعادتهم وسيادتهم فى الدنيا والآخرة ؛ ولذا قد كرر فى القرآن بيان

كونه كتاباً عربيا ، وحكما عربيا ، وكرر الأمر بتدبره والتفقه فيه ، والاتعاظ والتأدب به .

اعلم أنه ما أفسد المسلمين وما أذلهم إلا جهلهم بكتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وعدم فهمهم معانيهما ومواعظهما ؛ وما أوقعهم فى البدع والخرافات إلا هذا الجهل ، ومن الجهل ينشأ التقليد ؛ والبدع تروج فى سوق التقليد والجهل ، لا فى سوق الدين والعلم الصحيح المأخوذ من الدلائل ، ومن باب الجهل والتقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين ، لانتساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المعتبرين ، وهم فى دعوى اتباعهم من الكاذبين ، وذكر فى كثير من كتب التفسير والفقه والتصوف وشروح الأحاديث للعلماء المنسوبين إلى الأئمة كثير من البدع والخرافات التى يتبرأ منها أئمة الهدى ، وترى علماء الرسوم الجامدين يحتجون بذكرها فى هذه الكتب على شرعيتها ، وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وكذا فى المجلد (١١) من تفسير المنار ص ٢٥٨ .

قلت كما ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسيره رواية العتبى ، قصة الأعرابى المجهول فى تفسير قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) ولم يتعقبه ؛ وكان اللازم عليه تعقيبه ؛ وبيان حال الخبر ، أو عدم ذكره أصلا كما لا يخفى ، ولكن الجواد قد يكبو ، والصارم قد ينبو ، فتنبه .

قال ابن القيم فى أعلام الموقعين ص ١٨٦ ج ٢ : وما قيل بأن الناس لو كلفوا كلهم فهمَ الخطاب يلزمهم الاجتهاد ، وأن يكونوا علماء ، لضاعت مصالح العباد ، وتعطلت المصانع والمتاجر ، وهذا مما لا سبيل إليه شرعا وقدراً ؛ فالجواب من وجوه :

أحدها : أن من رحمة الله تعالى ورأفته أنه لم يكلفنا بالتقليد ، فلو كلفنا به لضاعت أمورنا ، وفسدت مصالحنا ، لأنا لم نكن ندرى من نقلده من العلماء والمفتين وهم عدد لا يحصون ، وقد انتشر الإسلام بحمد الله وفضله ؛ فلو كلفنا بالتقليد لوقعنا

فى أعظم المحنة والفساد ، ولكلفنا بتحليل الشئ وتحريمه ، وإيجاب الشئ وإسقاطه معاً إن كلفنا بتقليد كل عالم ، وإن كلفنا بتقليد الأعلم فالأعلم ، فمعرفة مادل عليه القرآن والسنن من الأحكام أسهل بكثير من معرفة الأعلم ، وإن كلفنا بتقليد البعض كأن جعل ذلك إلى تشهينا واختيارنا صار دين الله تبعاً لإرادتنا وشهوتنا ، وصار الدين ألعوبة ، قلت كما هو الواقع الآن ، بل منذ عصور وأزمان ، فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى من أمر الله تعالى باتباع قوله ، وتلقى الدين من بين شفتيه ، ألا وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، رسول الله وأمينه على وحيه ، وحجته على خلقه ، ولم يجعل الله تعالى هذا المنصب لسواه بعده أبدا ، صلوات الله وسلامه عليه .

الثانى : بالنظر والاستدلال صلاح الأمور لاضياعها ، وبإهماله وتقليد من يخطئ ويصيب إضاعتها وفسادها ، كما أن الواقع شاهد بهذا .

الثالث : أن كل واحد منا مأمور بأن يصدق الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به ويطيعه فيما أمر ، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وخبره ، ولم يوجب الله تعالى من ذلك على الأمة إلا مافيه حفظ دينها ودنياها ، وصلاحها فى معاشها ومعادها ، وبإهمال ذلك تضيع مصالحها وتفسد أمورها ؛ فما خراب العالم إلا بالجهل ولا عمارته إلا بالعلم ، وإذا ظهر العلم فى بلد أو محلة قل الشر فى أهلها ، وإذا خفى العلم هناك ظهر الشر والفساد ، ومن لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نورًا . قال الإمام أحمد : لولا العلم كان الناس كالبهائم .

والعلم النافع هو الذى جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم دون مقدورات الأذهان ومسائل الحرص والألغاز ، وذلك بحمد الله تعالى أيسر على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه ، فإنه كتاب الله الذى يسّره للذكر ؛ وكذا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهى بحمد الله تعالى مضبوطة محفوظة ، وأسهل من كل سهل ، وإنما الذى هو فى غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان ، وترّهات اليونان ، وأغلوطات

المسائل والفروع والأصول التى ما أنزل الله بها من سلطان ، و إنما هى من دسائس الشيطان انتهى .

وفيه أيضاً ص ١٣٨ ج ٢ : إن أقبح التقليد وأشنعه الإعراض عما أنزله الله تعالى وعدم الالتفات إليه ، اكتفاء بتقليد الآباء والمشايخ .

تنبيه — على أى شئ كان الناس قبل أن يولد فلان وفلان وفلان الذين قلدتموهم وجعلتم أقوالهم بمنزلة نصوص الشارع ، أفكان الناس قبل وجود هؤلاء على هدى أوضلالة ؟ فلا بد من أن تقروا بأنهم كانوا على هدى ، فيقال لهم فما الذى كانوا عليه غير اتباع القرآن والسنن والآثار ، وتقديم قول الله وقول رسوله ، وآثار الصحابة على مايخالفها ، والتحاكم إليها دون قول فلان وفلان ؟ فإذا كان هذا هو الهدى ، (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) .

اعلم أن الله تعالى قد ذم من إذا دُعى إلى الله ورسوله أعرض ورضى بالتحاكم إلى غيره ، وهذا شأن أهل التقليد . قال الله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) ، فكل من أعرض عن الداعى له إلى ما أنزل الله على رسوله إلى غيره فله نصيب من هذا الذم فمستكثر ومستقل ؛ فالواجب على كل مسلم طلب الحق ، وبذل الاجتهاد فى الوصول إليه بحسب الإمكان ، لأن الله سبحانه أوجب على الخلق تقواه بحسب الاستطاعة ، وتقواه إنما هو فعل ماأمر به وترك ما نهى عنه ، فلا بد أن يعرف العبد ما أمر به ليفعله ، وما نهى عنه ليجتنبه ، وما أبيح له ليأتيه ، ومعرفة ذلك لا تكون إلا بنوع اجتهاد وطلب وتحرّ للحق .

وقد ذم الله تعالى من حاكَمَ إلى غير الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فكذا هذا ثابت بعد مماته صلى الله عليه وسلم ، لأن سنته وما جاء به من الهدى ودين الحق لم يمت ، وإن فقد من بين الأمة شخصه الكريم ، فلم يفقد من بيننا سنته ودعوته وهديه بحمد الله ، وقد ضمن الله تعالى حفظ الذكر الذى أنزله على

رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يزال محفوظاً بحفظ الله ، لتقوم حجة الله على عباده إلى أبد الآبدين .

وفيه أيضاً ص ٢٠٦ ج ٤ : ولا يسع الحاكم والمفتى إلا الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم البتة ، عند وجود المسألة فيهما ، فإن الله تعالى سائل كل أحد عن رسوله وما جاء به ، لا عن الإمام المعين وماقاله ، و إنما يُسأل الناس فى قبورهم ويوم معادهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقال له فى قبره ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ ويوم القيامة يناديهم فيقول : (ماذا أجبتم المرسلين) ولا يُسأل أحد قط عن إمام ولا شيخ ولا متبوع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل يُسأل عمن اتبعه وائتم به غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلينظر بماذا يجيب ؟ ففى ذلك اليوم يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

والعبد الضعيف قد ألفت فى هذه المسألة رسالتى :

[البرهان الساطع فى تبرؤ المتبوع من التابع]

فعليك بها فإنها مطبوعة فى مصر ومنشورة فى العالم الإسلامى فتنبه .

خاتمة

قال العبد الضعيف محمد سلطان المعصومي رزقه الله تعالى الحسنى وزيادة : وقد فتح الله تعالى لي اليوم فتحاً ، وهو أن الله تعالى حينما أراد تعمير الدنيا قال (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً — وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) الآية (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) .

فهذه الآيات تفيد أوّلا وبالذات أن الله تعالى جعل آدم عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام خليفته في الأرض ، ثم أولاده إلى يوم القيامة ؛ فهم يتصرفون فيها ويعمرونها ويعيشون فيها بما منحهم الله تعالى من العقل والفهم والذكاء ، وأودع الله تعالى فيهم من قوة التعلم ، يتعلمون باستعمال تلك القوة جميع العلوم والصنائع ، فبذلك يعرفون ربهم وخالقهم ، وأنه واحد لاشريك له لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلا يستحق العبادة إلا هو وحده جل جلاله .

فبنو آدم كلهم أولهم وآخرهم لهم أهلية العلم والتعلم ، فإذا استعملوا قواهم فيما خُلقوا له نالوا السعادة في الدارين ، وإذا أهملوا وقصروا في ذلك خابوا وخسروا ، فكانوا من الهالكين ؛ فحيث إن بني آدم لهم أهلية العلم والفهم ، وجّه الله تعالى إليهم الخطاب وخاطبهم أوّلا بيأيها الناس ، ثم بيأيها المؤمنون ، فأمرهم ونهاهم ، وبشرهم وأنذرهم ، فعلمنا منها قطعاً أنه يجب فهم خطاب الله تعالى على كل إنسان ، ولا يخرج منه إلا الصبي والمجنون ؛ فبهذا يجب الإيمان بالله وبالرسل على كل بني آدم ، ثم خصص الله تعالى المؤمنين بخطاب خاصة ، وأوامر مخصوصة (بيأيها الذين آمنوا) الآيات ، فهل بعد هذه الآيات يُعذر أحد بترك تعلم الخطاب الإلهي ؟ كلا لا يُعذر

أبداً ، فجزاؤه فى الدنيا المذلة والحقارة والإساءة ؛ وأما فى الآخرة فالعذاب أشد وأبقى .

فانتبهوا يأيها الذين ضيعوا أعمارهم فى الشهوات والخرافات ، والفلسفة اليونانية ، والأشعار الجاهلية ، وديوان ابن الفارض والمتنبى ، أوميرزا عبد القادر « البيدل » الفارسى كما هو شأن أهل ماوراء النهر ، فإنهم بذلك افتتنوا ، وأوقعوا الناس فى الفتن العمياء كما لايخفى .

* * *

قال العبد الضعيف جامع هذه الكلمات : هذا آخر ماقصدت جمعه ، وبيان مايتعلق بالمبحث ، فأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وينفع به العباد فى عامة البلاد بفضله ومنّه وإحسانه . وكان ذلك فى دارى الكائنة فى مكة المكرمة قريبة من المسجد الحرام فى زقاق البخارية من حارة المسفلة فى ١٥ / ٤ / ١٣٦٦ هـ وآخر دعوانا « سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

بحمد الله وحسن توفيقه قد تم طبع كتاب :

(تمييز المحظوظين عن المحرومين)

تأليف الأستاذ

محمد سلطان المعصومى الخجندى المكى

القاهرة فى { ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٦٩ هـ
١٦ فبراير سنة ١٩٥٠ م

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى

obeikandl.com

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٣	أوامر	واعر
»	٢١	المسلمين الأولين	المسلمون الأولون
٥	٢٢	فلا معبود إلا الله	فلا معبود بحق إلا الله
٦	١٥	حظيرة الحيوانية	حفيرة الحيوانية
»	١٦	تلك الحظيرة	تلك الحفيرة
٨	٩	إنكم أنتم بأنفسكم	إنكم بأنفسكم
١١	١٦	لرؤساء المسلمين	على رؤساء المسلمين
١٢	١	التقوى هى	التقوى هو
١٤	٦	رجلا من	رجل من
١٨	٢٠	سنّة الله التى قد	سنة الله قد
١٩	٥	فيوسوسون لهم	فيوسوسونهم
٢٢	٦	دين لاسلام	دين الإسلام
٢٣	٢٣	وظلمها لهم	وظلمها عليهم
»	١٦	حينما ترون	حينما يرون
»	»	تساقون إلى	يُساقون إلى
»	١٨	تشبثا	متشبثا
٣٤	١٤	جميع المريدين	جمع المريدين
٣٦	١٠	صاروا من	فصاروا من
٣٩	١٥	فخاصّ بقوم	فخاص لقوم
٤٣	١٥	ووجه إليك	ووجهه إليك

obeikandl.com

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٤	١٣	فياأيها الناس والإنسان	فيا أيها الإنسان
٤٩	٥	بالتطوع	بالطوع
»	١٩	إنه منهم	إنه معهم
٥٣	٨	وستر	وسرّ
٥٤	١٩	ولكن بسده	ولكن يسده
٥٦	٦	وألا يفتروا	ولا يفتروا
٥٨	٣٠	المنكر	المستكره
٥٩	١٩	و يتحرزون	و يحترزوا
»	»	الاحتزاز	الاحتراز
٦٣	٤	والسفه	والسمة
٦٤	٩	ولا يسكن معه	ولا يساكن معه
»	١١	وجُزئيا	أوجزئيا
٦٦	٢٠	مباطنية	مباطنته
٦٩	٥	و يخدعهم	و ينخدع بهم
٧٠	٢١	البتة	بتّةً
٧٩	٤	أما تستحون	أما تستحيين
٨٦	١١	استحقيتم	استحققتم
٨٨	٢٢	انتشر	انتثر
٩٧	١	آثارهما	ناراهما
»	٢٢	عامة العرب	بعض العرب
٩٨	١٤	حافظون	خافضون
١٠٩	١٦	وأما الإقسام	و إنما الإقسام

obeikandl.com

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١٦	١٤	خافوا من الله	خوّفوا من الله
١١٨	١٠	الآية السابعة	الآية الثامنة
١١٩	١٨	يبتغى	يتبع
١٢٣	١٥	ويأيها	ويا أيّها
١٢٧	٧	واشتدّ	وأشدّ
١٢٩	٦	أدنى وأدنى	أدناً وأدنى
١٣١	١٦	لمامة	لهامّة
١٣٤	٩	ويخشى	أو يخشى
»	١٦	ربك	ربكم
١٣٦	٩	مذاهبها	مذاهبه
»	١٧	الإسلام بل لم يتصف بالزهد والتصوف والتقوى أحد من المسلمين صوابه : الإسلام والزهد والتصوف والتقوى من المسلمين الجغرافيين	
١٤٥	١٣	فوق موضع	موضع
١٤٧	١	دخول الغير	دخول دار الغير
١٤٩	٢١	فيأيّها	فيا أيّها
١٥٧	١٦	الناس	الناس
١٥٩	٤	بين العلماء	بين يدى العلماء
١٦١	١٠	مجاوروا	بعض مجاورى
١٧١	١١	النشارات	النثارات
١٧٣	١٦	ويأيها	ويا أيها
»	٢١	فيأيها	فيا أيها
١٧٣	٢٠	لعدم بيان	لهدم بُنيان
١٧٥	١٦	من شنبه	منْ شَنبه

obeikandl.com

فهرس

تمييز المحظوظين عن المحرومين

صفحة

٣ سبب التأليف .

وجوب فهم معانى القرآن على كل البشر عموما وعلى المسلمين خصوصا .

٤ تقسيم الناس إلى المحظوظين والمحرومين .

٥ تفسير يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم . معنى الرب والتربية .

٦ الإنسان أهل للتعلم والتعليم والخلافة فى الأرض فإذا ضيع صار من المحرومين

٧ معنى الحرية والعدالة والمساواة .

٨ اتخاذ الأنداد والاعتماد على غير الله وحقيقة الحرية والتوحيد .

٩ تفسير يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا الآية .

١١ دسائس الشيطان وخطورته وما يجب على ملوك المسلمين .

تفسير يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة الآية .

١٢ « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين الآية .

١٣ « يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم الآية .

١٤ فهم رجل من النصارى معنى القرآن ودخوله فى الإسلام وحكايته فى ذلك .

١٥ تفسير يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا الآية .

معنى الإله والعبادة واتخاذ بعض الناس أربابا من دون الله .

١٧ تفسير يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا الآية .

١٨ « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة الآية .

١٩ « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا الآية

٢٠ حكاية الأطباء .

تفسير يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى الآية .

٢١ « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض الآية

٢٢ إن أبا مسلم الخراسانى منع الناس عن تعلم العربية .

٢٣ تفسير يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا الآية .

٢٤ « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور الآية .

صفحة

٢٦ تفسير قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله الآية .

٢٧ تفسير قل ياأيها الناس قدجاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه الآية .

« وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الآية .

٢٨ « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد الآية .

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون .

٢٩ « ولقد صرفنا للناس فى هـذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا .

٣٠ تفسير ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا .

٣١ تفسير ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم .

٣٢ « ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب الآية .

« قل ياأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين .

« ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له الآية .

٣٣ تفسير ولقد ضربنا للناس فى هـــذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا الآية .

٣٤ تفسير ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده الآية .

٣٥ إن الدجالين يعتقدون أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب .

تفسير وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون .

« يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض الآية .

٣٦ تفسير يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

٣٧ تفسير ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد .

« ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين .

٣٨ « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون .

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه الآية .

٣٩ تفسير هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون .
« ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها الآية .
٤٠ « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الآية .
٤٢ « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل إلى : وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .
٤٣ تفسير يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك .
٤٤ « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه .
« فلينظر الإنسان م خلق خلق من ماء دافق الآيات .
٤٥ الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان ، كم من متعاقل ليس له إيمان .
٤٧ فصل فى بيان الآيات الموجهة إلى المؤمنين .
تفسير يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا .
٤٨ « ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين .
٤٩ معنى الصبر وتحقيق ما يتعلق به وسر قرنه بالصلاة .
٥٠ تفسير ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله الآية .
٥١ « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر الآية .
٥٢ « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم الآية .
٥٤ « ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان الآية .
٥٦ « ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم الآية .
٥٧ « ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى الآية .
٥٨ الإنفاق فى سبيل الله أشق الأمور على النفوس . بيان المن والأذى .
تفسير ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم الآية
٥٩ « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين .
٦٠ « ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه الآية .
٦١ قد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى نظام المدنية العليا لحفظ الحقوق .
٦٣ ولكن الأسف أن المسلمين محرومون عن هذه المرتبة الإنسانية والكمالات المدنية .
تفسير ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم الآية .

صفحة

٦٤ تفسير يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا الآية .

٦٥ الاجتماع فى الاعتصام بكتاب الله يوجب الاجتماع والوحدة والقوة ومن حاد عنه هلك .

٦٦ تفسير يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا الآية .

٦٧ سبب عز الدولة وقوتها الاعتصام بكتاب الله ، وسبب ضعفها وسقوطها الاعتماد على الأجانب .

تفسير يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله الآية .

٦٨ « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم الآية .

٦٩ « يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض الآية .

٧٠ تفسير يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

٧١ « يأيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولاتعضلوهن الآية.

٧٢ « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة حاضرة عن تراض منكم الآية .

٧٣ ومن الأكل بالباطل الغصب والغش والسرقة والخداع والرشوة ونحوها .

٧٤ تفسير يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون الآية.

٧٥ « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم الآية .

٧٦ من المراد بأولى الأمر المأمور باتباعهم .

٧٧ المسائل الدينية لاينبغى أن يكون فيها تفرق واختلاف .

٧٨ الأسف على حال المسلمين الذين جمدوا على التقليد على كتب المتأخرين .

٧٩ تفسير يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا .

٨٠ بيان فنون الحرب فى كل زمان ومكان والقنبلة الذرية المهلكة .

٨١ تفسير يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا الآية .

٨٢ « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم الآية.

٨٤ « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله الآية.

٨٥ « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين الآية .

صفحة

٨٦ من والى من ملوك المسلمين ملوك الكفار ندم آخرا وذل لامحالة .
٨٧ تفسير ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام الآية .
٨٨ « « « « لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام الآية .
٨٩ من لم يسر على سنن الله فى الكون هلك لامحالة .
تفسير ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم الآية .
٩٠ الصلاة الحقيقية تطهر الروح كما يطهر الماء الصافى الظاهر .
٩١ تفسير ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط الآية .
٩٢ العدل سبب نمو الدولة والسعادة والظلم سبب الخراب والمذلة .
تفسير ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم الآية .
٩٣ قصة هذا الفقير فى بلاد فرغانة وحفظ الله إياه من القتل .
٩٤ تفسير ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة الآية .
٩٥ بيان الوسيلة الشرعية وأنها أحدثها الدجالون فى القرون المتأخرة .
٩٦ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء الآية .
٩٧ أسراء المستعمرين الأجانب بلاء عظيم على أمتهم .
تفسير ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله الآية .
٩٩ « « « « لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا الآية .
« « « « لاتحرموا طيبات ماأحلّ الله لكم الآية .
١٠٠ من البدع التركية التعبد بترك الطيبات وتعذيب النفس .
١٠١ تفسير ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام الآية .
١٠٤ « « « « ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم الآية .
١٠٥ « « « « لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم الآية .
« « « « لاتسئلوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم الآية .
١٠٧ لايجوز التنطع فى الدين ولا الزيادة على نصوص الشارع .
تفسير ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم الآية .
١٠٩ « « « « شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت الآية .
١١٠ « « « « إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار الآية
١١١ « « « « أطيعوا الله ورسوله ولاتولوا عنه وأنتم تسمعون .

صفحة

١١٢ تفسير يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم الآية .
إن الله يحول بين المرء وقلبه وهذا أخوف مايخافه العبد التقى .
١١٤ تفسير يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم الآية .
١١٥ علامات المنافق وفتنة الأموال والأولاد .
١١٦ خيانة الوزراء تسقط الدولة .
١١٧ قصة أبى لبابة وحاطب بن أبى بلتعة .
١١٨ تفسير يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفرعنكم الآية .
١١٩ « « « « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا الآية .
١٢٠ منذ تفرق المسلمون وأحدثوا المذاهب والطرق تلاشوا وتشتتوا .
١٢١ تفسير يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر الآية
١٢٢ « « « « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الآية .
١٢٣ عدم جواز سكنى الكافر فى الحرمين وجزيرة العرب .
١٢٤ تفسير يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان الآية .
١٢٥ مايأخذه القضاة من الرشوة وتأخذه سدنة القبور والمشاهد .
١٢٦ طريق صدّ الأحبار والرهبان عن الإسلام الصحيح والدين القويم .
١٢٨ تفسير يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله الآية .
١٢٩ « « « « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين .
١٣٠ « « « « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا الآية .
١٣١ انعكاس حال المسلمين فى تواضعهم للكفار وغلظتهم للمؤمنين .
١٣٢ تفسير قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة الآية .
١٣٣ « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم الآية .
١٣٤ « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم الآية .
١٣٦ « « « « لاتتبعوا خطوات الشيطان الآية .
١٣٧ « « « « لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا
على أهلها الآية .
١٣٨ تفسير قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم الآية .
١٣٩ « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ الآية .

صفحة

١٤٠ تفسير ياأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات الآية .

١٤١ تفسير يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فاياى فاعبدون .

١٤٣ « ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم

١٤٤ « « « « اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا .

١٤٥ الذكر نوعان بالقلب واللسان ، وأذكار صوفية الزمان ورابطتهم الخ .

١٤٦ تفسير يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن الآية .

تفسير ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام الآية .

١٤٧ « إن الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

١٥٠ بيان الصلوات والأحزاب المبتدعة كدلائل الخيرات وصلوات الثناء الخ .

تفسير يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا الآية .

١٥١ تفسير ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم الآية .

« قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة الآية .

١٥٢ الترغيب إلى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإيمان لحفظ الدين والإيمان وحال بعض المهاجرين فى مكة .

١٥٣ تفسير قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية .

« فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الآية .

١٥٤ « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون .

١٥٥ « ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .

مخالفة المتأخرين لأمر الله وحرمانهم من نصر الله ، وبيان دجل الدجالين .

١٥٦ تفسير ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم .

١٥٧ « « « « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم .

obeikandl.com

صفحة

١٥٨ مبنى العبادات على الاتباع وصوم يوم الشك وما يتفرع عليه .
١٥٩ تفسير يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول الآية .
١٦٠ تفسير ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما الآية .
١٦١ « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون .
١٦٣ « ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم الآية .
١٦٤ تفسير ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا الآية .
١٦٦ تفسير ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته الآية.
١٦٧ « « « « إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول الآية .
١٦٨ تفسير ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم الآية .
١٧٠ تفسير ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة الآية.
١٧١ « « « « اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدّمت لغد واتقوا الله الآية .
١٧٣ « « « « لاتتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق الآية .
١٧٣ موالاة الكفار والمشركين والقبوريين غير جائزة .
١٧٤ الحب فى الله والبغض فى الله .
١٧٤ تفسير ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الآية .
١٧٥ « « « « لاتتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة الآية.
١٧٦ « « « « لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا الآية.
١٧٧ « « « « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله الآيات .
١٧٩ الخلف قد خالفوا السلف ولم يعملوا بموجب الإيمان فجوزوا بالخذلان .
١٨٠ تفسير ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين الآية.

صفحة

١٨١ قد اختلفت هذه الأمة كما اختلفت بنو إسرائيل إلى مذاهب وطرائق شتى .

تفسير يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله الآية .

١٨٢ قصة من لا يحضر لصلاة الجمعة ولكن يمشي إلى زيارة قبر ابن عباس ويستمد منه الإعانة .

١٨٤ تفسير يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله الآية .

١٨٥ « « « « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم الآية .

١٨٦ « فاتقوا الله ياأولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا الآية .

١٨٨ « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة الآية .

١٨٩ « « « « توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم الآية .

١٩٠ التوبة من حقوق الآدمى بردها إلى أربابها ، وبيان التوبة الصحيحة المنتجة النافعة .

١٩١ سرّ الخطاب والنداء بيأيها الناس ويأيها الذين آمنوا دون يأيها العلماء يأيها السادات .

١٩٢ الذين لا يفهمون القرآن كأنهم قد مسخوا عن الإنسانية فصاروا من المحرومين .

١٩٣ اليهود والنصارى عندهم التوراة والإنجيل حيث لم يعملوا لم ينفعهم ، وكذلك المسلمون عندهم القرآن ولكنهم حيث لا يعملون به لا ينفعهم بل يكون حجة عليهم .

١٩٤ إن الأمة إذا تركت العمل بكتاب الله المنزل قست قلوبها فصارت ملعونة .

سبب ذهاب الدولة عن المسلمين اغترارهم بمجرد تلاوة القرآن عن غير فهم وتفهم والعمل بمقتضاه .

١٩٥ بيان الأحاديث الواردة فى لزوم فهم معنى القرآن والعمل به .

١٩٨ العلم قبل القول والعمل والعلم بالتعلم لا بالكشف والإلهام أو الخيال والمنام .

٢٠١ إن الناس حيث جهلوا معنى القرآن نراهم قد خالفوه اعتقادا وعملا فصار القرآن حجة عليهم .

معنى الفقه ومن الفقيه وبيان الذين أشركوا بالله بالقياس .

صفحة

٢٠٣ قطع عمر رضى الله عنه شجرة الرضوان التى بالحديبية .
فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد .
٢٠٤ أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى لزوم فهم معانى القرآن والسنة .
٢٠٧ أقوال علماء السلف والأئمة الأربعة فى لزوم فهم معانى القرآن والسنة .
٢٠٨ اللفظ العام يجب اعتقاد عمومه فالعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .
٢٠٩ لابد للمكلف من تفهم معانى ما كلف به من كلام ربه أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم .
قد أجمع المسلمون على وجوب تعلم علم الدين على كل مسلم .
٢١٠ التقليد فى الدين لغير المعصوم حرام .
٢١١ هل أوجب الله لأهل المغرب تقليد مالك ولأهل ماوراء النهر تقليد أبى حنيفة الخ .
٢١٢ ما أفسد المسلمين وما أذلهم إلا جهلهم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
٢١٣ العلم النافع إنما هو الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم دون مقدورات الأذهان .
٢١٤ ذم التحاكم إلى غير الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته إلى سنته .
٢١٦ جعل الله تعالى آدم عليه السلام وأولاده خليفة فى الأرض وحكمة ذلك .

للمؤلف :

هدية السلطان

الى

مسلمي بلاد جابان

يبين :

الإسلام وحقيقته وآراء أهل العلم وأفهامهم في اتخاذ كيفية المذاهب على أصحابها رضوان الله

يطلب من : المؤلف بأم القرى

ebeikandil.com